والنور يضيء في الظلمة

بيتينا جاباه

ترجمة عبير شاليش

بيتينا جاباه

والنور يُضيء في الظلمة



ترجمة عبير شاليش



والنور يُضيء في الظلمة

والنور يضيء في الظلمة

تأليف: بيتينا جاباه
ترجمة: عبير شاليش

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-25-895-7



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: MC-02-01- 6182843
التصنيف العمري: +17

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل
Out of Darkness shining Light



إلى ابني كوشينغا

الذي يُدعى أيضًا -إلى جانب أسماء أخرى عديدة-

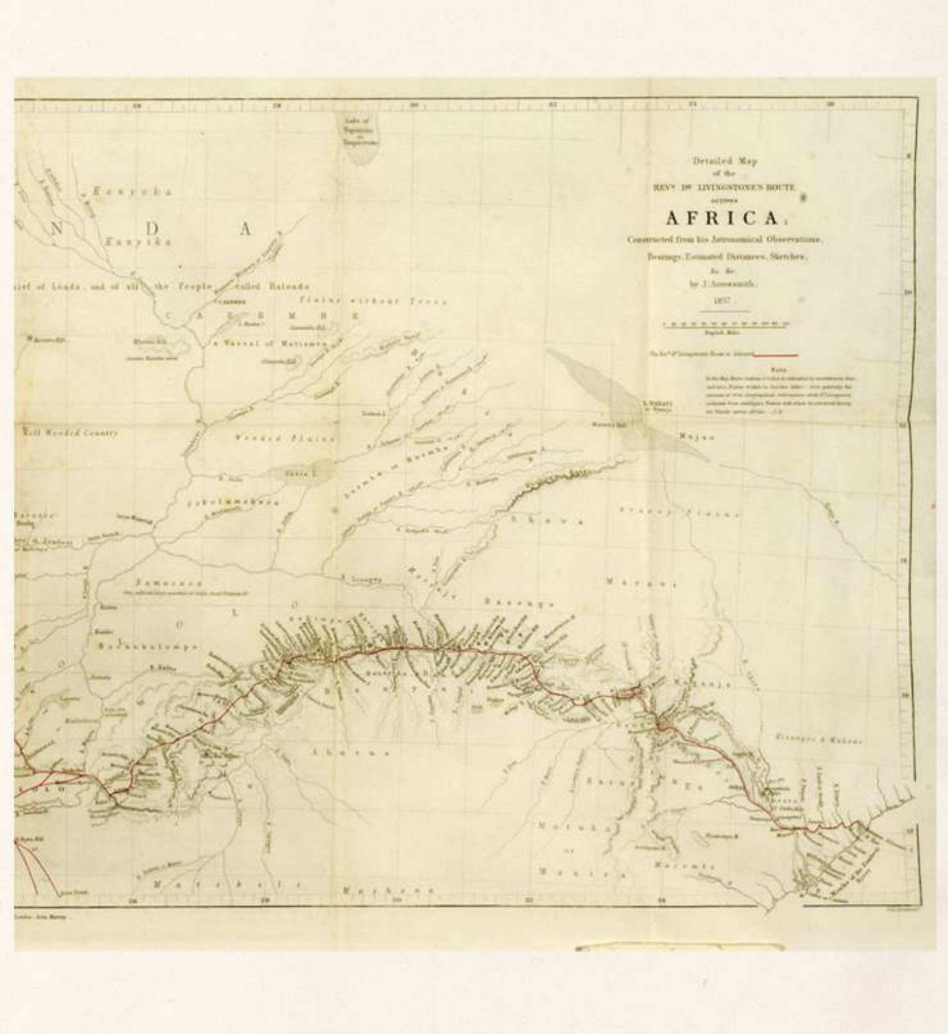
ديفيد.

Kärt barn har många namn.
Rakkaalla lapsella on monta nimeä.
Kjært barn har mange navn.

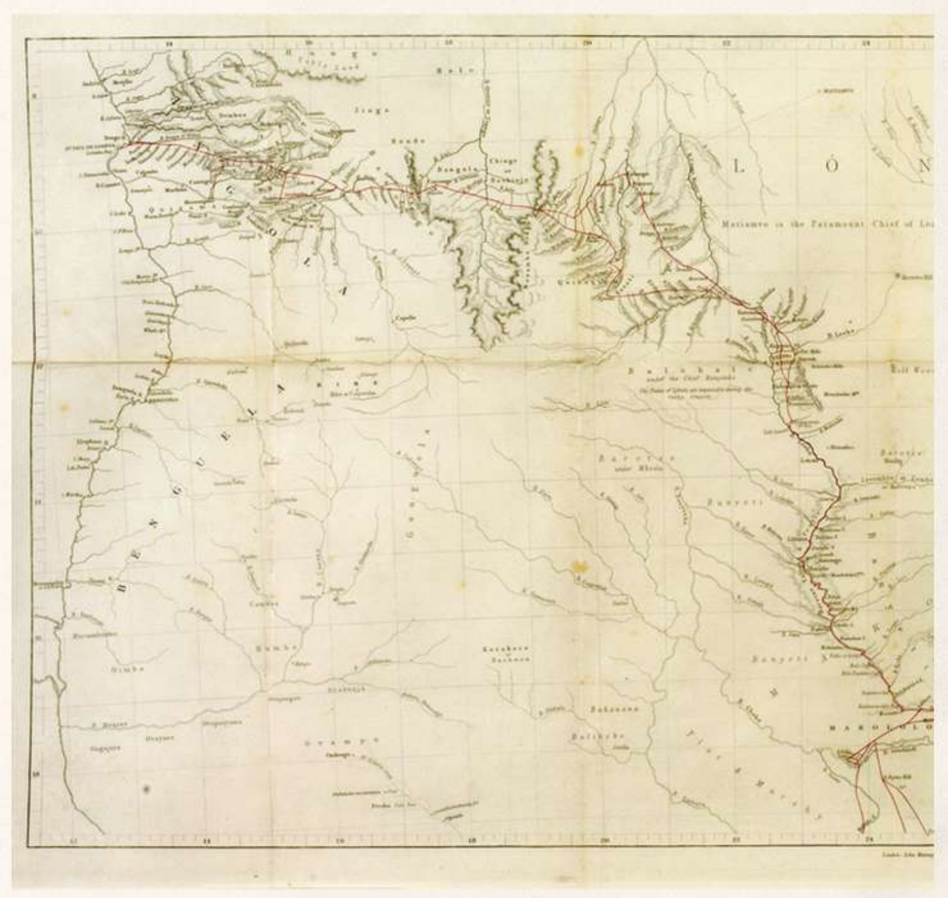
"لأن مثوى الرجال العظماء تراب العالم بأسره، ليست وحدها أعمدة بلادهم ونقوشها تخلّد ذكراهم، بل هناك في أراضٍ غريبة أيضًا تجد ذكراهم حية، لا في ذاكرة الحجر، بل في قلوب الناس".

بيركليس عن القتلى الأثينيين.

من كتاب ثوسيويدس (**تاريخ الحرب البيلوبونيسية**).



Detailed Map
of the
REVD DR LIVINGSTONE'S ROUTE
across
AFRICA,
Constructed from his Astronomical Observations,
Bearings, Estimated Distances, Sketches,
&c. &c.
by J. Arrowsmith.
1857.
English Miles
Kanyoka
N D A
Kanyika
Plains without Trees
C A Z E M B E
Well Wooded Country
Wooded Plains
Mojao
Shewa
Mazavi
Banyai
Maganja
Abutua
Matabele
Mashona



Wellcome Library, London

أفريقيا

خريطة تُظهر رحلات ديفيد ليفينغستون،
وفهمه جغرافيةَ المنطقة بالاستناد إلى رحلاته
والمعلومات التي قدمها له التجار والرحالة الآخرون.

والنور يُضيء في الظلمة

مدخل

أؤمن أن العناية الإلهية هي عوني. أعرف الأنهار الأربعة؛ زامبيزي، وكافو، ولوابولا، ولومامي، لا بد أن شلالاتها تصب في منطقة واحدة... أدعو الرب أن ينعم عليَّ بأن أكتشف شلالات هيرودوتس القديمة، وإذا كان في الحفريات تحت الأرض ما يثبت ما ورد في الوثائق الثمينة القديمة (τά βιβλία)، وفي الكتب المقدسة، أدعو الله أن يبيح لي أن أجعلها ترى النور، وأن يمنحني الحكمة لاستعمالها في ما يرضيه.

ديفيد ليفينغستون، (**مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة**).

هكذا أخرَجْنا من إفريقيا جسد بوانا داودي المشقوق، جسد الطبيب، ديفيد ليفينغستون، ليحمله البحر إلى بلاده فيدفن فيها. لأكثر من ألف وخمسمئة ميل، من المناطق الداخلية إلى الساحل الغربي لإفريقيا، سرنا حاملين جثمانه، من شيتامبو إلى موانامورزونغو، ومن تشيزالامالا إلى كومباكومبا، ومن لامبالامفيبا إلى تابورا، إلى أن وصلنا، بعد مئتين وخمسة وثمانين يومًا - منذ أن غادرنا شيتامبو - إلى باغامويو، موطن الأسى، الذي يعني اسمها حرفيًا أن تلقي عن كاهلك أعباء القلب.

أثويناه في سكون الكنيسة وسلامها، وما برحنا طوال الليلة تلك نصلي ونغني ونندب العبيد السبعمئة المعتوقين من "قرية الأحرار"، الذين كانوا مصطفين بعدما ارتفع المد في اليوم التالي على جانبي الطريق المؤدي إلى السفينة الشراعية التي ستحمله في رحلته الأخيرة. ولبثنا نراقب الشراع الأبيض للقارب الخشبي المتهالك إلى أن صار مثلثًا قاتمًا في الأفق البعيد، ولم نعد نرى منه سوى التقاء السماء بالبحر المتلألئ.

لقد وقف حياته للمنكوبين، مهووسًا بالبحث عن السر العظيم لمنبع النهر السماوي، أطول أنهار العالم. كرّس نفسه لاكتشاف السر الذي شغل رجال المعرفة لأكثر من ألفي عام: منبع النيل.

في آخر سنتين من حياته، قبل أن يغيثه في يوجيجي الأمريكي بوانا ستانلي، وبعدها، ظل رجلًا شغوفًا. في كل بلدة وفي كل قرية مرّ بها، ما فتئ بوانا داودي يسأل السؤال ذاته. هل رأى أحد أو سمع عن مكان تلتقي فيه أربعة شلالات، أربعة شلالات عظيمة تنبعث من الأرض، بين تلّتين ذواتي قمتين مخروطيتين؟ كان يقول إنها شلالات وصفها في الأزمنة الغابرة حكيم من بلاد اليونان البعيدة يدعى هيرودوتس، كان يعتقد أنه بإيجاد هذه الشلالات سيجد منبع النيل.

عندما أرادوا أن يعرفوا ما النيل، كان يقول إنه أطول نهر في العالم، بيد أنه ليس مجرد نهر، بل معجزة من معجزات الخلق التي لا تدركها العقول. كان يقول: "لأنه يتدفق كل يوم من أيام السنة، على طول أكثر من ألف ميل عبر أكبر الصحاري القاحلة، تجري مياهه دون أن يغذيها رافد".

كان بوانا داودي متيقنًا من أن تلك الشلالات تتصل بأربعة أنهار كبرى كان يعرفها، وهي: كافو، ولومامي، ولوابولا، وزمبيزي. كان يقول إن هيرودوتس كتب أن مياه تلك الشلالات تجري في اتجاهين، أحدهما

صعودًا نحو مصر والآخر نحو الجنوب. وهكذا تتبعنا مجرى نهر لوابولا جنوبًا إلى مستنقعات بانغولو. لكنه هناك، وبدل أن يقبل بوانا داودي على منابع النيل في قرية شيتامبو، أقبل عليه الموت.

عرف الشتات في موته كما عرفه في حياته. اليوم ترقد عظامه في بلاده، مدفونة في بهاء حجارة عتيقة. وفي قبر حفرناه لأجله في ظل شجرة مفولا، يتحد قلبه وبقية أحشائه بتراب رحلاته. وعلى القبر الذي دفنت فيه عظامه كُتب أنها حملت عبر اليابسة والماء بأيدينا المخلصة. رجال عصره الحكماء يقولون إنه سطع في عتمة أرضنا الولّادة تاركًا إثره شعاعًا من نور، يمضي فيه الرجال البيض في غاية الطمأنينة.

نحن التسعة والستين الذين كنا في عالمه؛ التسعة والستين الذين حملوا عظامه، مرافقوه السود، ظلال البشر التي تتحرك في قوافله. لم نكن سوى الباغازي في رحلته، الحمالين الذين نقلوا أحماله وبنوا أكواخه وطبخوا طعامه وغسلوا ثيابه ووثروا فراشه، العسكر الذين قاتلوا في معاركه، حاشيته الأوفياء والمخلصين.

وفي رحلتنا الطويلة والخطرة لإعادته إلى وطنه، عشرة من جماعتنا لقوا حتفهم. لا حجارة تدلّ أين يرقدون، ولا مرثيات تعلن موتهم، وخلف من واصل المسير منا، لا حجّاج سيأتون ليشيروا لأبناءهم مواضع رقودهم؛ إنما من خلف العتمة الموحشة يشع نور ساطع. لقد كانت تضحياتنا بهاءً لحياته.

لقد رويت هذه الحكاية مرات عديدة من قبل، لكنها كانت دومًا حكاية الطبيب. وفي بعض الأحيان، يظهر اسما شوما وسوزي، على شكل زوائد أو حواشٍ في قصته. كانا من أوائل مرافقيه، أكبر من خدمه عمرًا ولأطول مدة، لأن البقية منا لم ينضموا إليهما سوى في الأشهر القليلة التي سبقت

موت بوانا داودي.

يُروى في بعض النسخ أنهما كانا صديقين، وفي أخرى، أخوين. لكنهما على الدوام خادما بوانا داودي الأوفى، هما الاثنان وحدهما يحملان عظامه، عهدًا لقوة رابطة الخدمة، تكريسًا لتقوى الإيمان المسيحي، إيمانه، تقواه، قداسته؛ فمن غير القديسين يلهم خدمة كهذه؟

يُذكر أحيانًا أنهما سوزي وشوما، لكنهما في الغالب، شوما وسوزي. نادرًا ما يظهر اسماهما الكاملان: لم يذكر يومًا أنهما جايمس شوما، الذي حرّره بوانا داودي من العبودية، وعبد الله سوزي، باني السفن المحمّدي من شوبانغا الذي خدم سيّدًا مسيحيًا. هما، لو ذكرا، يُذكر أنهما لوحدهما حاملا عظام بوانا داودي، أنهما اللذان كانا هناك من قبل.

ماذا لو عرفنا حينها ما نعرفه اليوم؟

عندما حملنا جسده إلى خارج إفريقيا، حملنا معنا خرائط ما سيسميه رجال عالمه بآخر اكتشافاته وأعظمها، النهر الهائل الذي يُدعى لوالابا. ماذا لو عرفنا حينذاك أن وفاءنا الأخير له سيزرع بذور غدر أبنائنا، قدرهم وقدر أبنائهم من بعدهم؟ أن لوالابا في رسوماته كان فم نهر كونغو العظيم، النهر الصالح للملاحة الذي عبره سيأتي الرجال البيض، وتنتصب بندقية وينشستر ويُلقّم مسدس ماكسيم؟

في تسع سنوات فقط، إنكلترا التي أعدنا إليها ابنها المبجّل ستجتمع مع آخرين على طاولة، وتخربش خطوطًا على خريطة لتكون حدودًا وحواجز ليس لها وجود، وتمزّق أممًا وتشتت عائلات. عبر نهر لوالابا جاؤوا، عبر كونغو العظيم، بسفن بخارية ومسدسات، بمزارع المطاط والضرائب، وأسماء جديدة لمدافن أسلافنا جميعها. وكل رجل وكل امرأة وكل طفل قابلناه في رحلتنا، كل صديق وكل عدو، كل تاجر رقيق وكل عبد، سيكون،

في غضون سنوات، من رعايا ملوك أوروبا.

كل ذلك كان قادمًا لا محالة، لكن قبل ذلك:

ليست هذه مجرد حكاية عن رجلين، سوزي وشوما. إنها أيضًا حكاية قادة القافلة شوبيره ويوليدي موناسير، حكاية آمودا، ابن محمود، وحكاية ناثانييل كومبا، المعروف بمبروكي. إنها قصة الرجال من بعثة ناسيك في الهند، والعبيد المعتوقين جميعًا، ومن بينهم كاروس فرار وفرج الله كريستي اللذين بضعا جسد الطبيب الميت كما لو أنهما يشقّان سمكة، وحكاية جايكوب واينرايت، الذي نقش مرثية على القبر الذي دفن فيه قلبه. إنها حكاية النساء اللواتي سافرن معنا، ميسوزي وتاويكا، وخديجة ولا يده، وبنت سومري وكانيكي.

إنها حكاية حليمة، طباخة الطبيب، التي ظلت تقرّعنا طويلًا حتى قلنا نعم، نعم سنعيده إلى حيث جاء، إلى موطنه عبر البحار. إنها قصة الصبي ماجوارا، أصغر المرافقين سنًا، الذي وجد الطبيب يجثو ميتًا، والذي كان مع كل صوت من قرع طبله يجعل الحياة تدب في سيقاننا بينما نسير طوال تلك الرحلة المنهكة إلى المناطق الداخلية.

إنها حكاية بوانا داودي، حكاية سنيّ حياته الأخيرة التي عانى فيها العذاب، وإغاثة بوانا ستانلي له، والمشاهد التي مزّقت روحه وفطرت قلبه وهو يمضي نحو حتفه. إنها حكاية هؤلاء وآخرين كثر، قصة الطبيب ورحلته الأخيرة: المسير نحو موته المحتوم، نحو باغامويو.

1

شِمشِمي يا هيرودوتس[1]

1 Chemchemi ya Herodotus شلالات هيرودوتس. (المترجمة).

1

قبل البدء في هذا المشروع، لم يكن د. ليفينغستون قد حسم أمره فيما يتعلق بالطريق التي عليه أن يسلكها، إذ كان وضعه مؤسفًا بالفعل. كان خدمه هم سوزي، وشوما، وحمودة، وغاردنر، وحليمة الطباخة زوجة حمودة.

هنري مورتون ستانلي، (**كيف وجدتُ ليفينغستون**).

أليس من الغريب، فعلًا، كيف أن الأحداث التي تعلم أنها ستقع لا تقع بالضبط كما كنت تعتقد عندما تقع بالفعل؟
في الصباح الذي وجدناه فيه، كان قد أيقظني حلمي بالقرنفل. كانت الرائحة الزكية المألوفة تملأ أنفي كما لو أن الزمن عاد بي إلى سوق البهار في زنجبار، بنتًا نحيلة، من المفترض أن أكون مصغية أتعلم كيفية اختيار الأفضل لمطبخ الوالي، لكنني كنت في الواقع أقف على قدم واحدة، ثم على الأخرى، وأمي تقول، يا حليمة، أنت لا تصغين إليّ. وهذا ما كان، إذ كنت أصيخ السمع إلى أصوات النهار، ونداء المؤذن، وصيحات المزادات في سوق العبيد، وإلى أصوات القردة المحتجة، ومجموعات الكلاب تزمجر فوق جثث العبيد خارج دائرة الجمارك، وضحكات الأطفال العالية.

أفكر في أمي كثيرًا، لكنها نادرًا ما تزورني في أحلامي. كانت سُرّيّة لوالي زنجبار، إحدى أماته المفضلات، على الرغم من أنها لم تنجب له صبيًا لتصبح أم الولد، وما أدراك ما يعني أن تكون أم الولد، أن تحمل ابن الوالي؛ فقد كان ممثل السلطان عندما كان سعيد العظيم، السيد سعيد بن سلطان، يقطن في مسقط، وراء البحر في عُمان وليس في زنجبار.

تقول أمي إني وُلدت قبل أن ينقل السلطان العاصمة من مسقط. في تلك الأيام، كان للسلطان والٍ يمثله في زنجبار، وبالطبع، كان هناك الزعيم السواحلي في زنجبار، يسمونه *Mwinyi Mkuu*[2]، بيد أن السلطان كان يحتاج لرجاله، لرجل عربي ابن عربي، عماني من الدرجة الأولى.

إلا أن المرء لو نظر إلى الوالي، لرأى أن في دمه عبدًا إفريقيًا أو اثنين، وهذا لا ريب صحيح. لديه ثلاث زوجات شرعيات، حرماته الثلاث، كما يسمّونهنّ، وأيضًا جواريه، عشر سرارٍ في حرمه. هذا أكثر من كافٍ لأي رجل، لكنه لا يضاهي عدد الجاريات لدى سعيد العظيم، فقد كان لديه خمس وسبعون زوجة وسُرّيّة، أنجبن له أكثر من مئة ولد.

كانت أمي السُرّيّة السوداء الوحيدة بين جاريات الوالي السراري، فقد كنّ جميعًا من الشركس والترك وغيرهم. وبالرغم من أنه يُقال إن السُرّيّة أفضل الجواري، وإن النساء الجميلات هنّ من يُخترن ليكنّ سراريًا، فبالنسبة لأمي، التي كانت طبّاخة أيضًا، أن تكون سُرّيّة لم يكن يعني لها إلا أنها مستأمة مرتين؛ في الليل أمة في حريم الوالي، وفي النهار أمة في مطبخه.

كان الوالي آنذاك قد توفي منذ سنوات عديدة. واليوم يملك بيته تاجر هندي ثري من بومباي يُدعى لودا دامجي. يقولون إنه أعظم نفوذًا من

2 تعني "المالك العظيم". (المترجمة).

الوالي، إذ أقرض السلطان الجديد سعيد برغش الكثير من المال. ويتحكم في دائرة الجمارك أيضًا، وله حصة من بيع كل عبد في سوق العبيد، وكل عبد يُرسل إلى بلاد فارس والعرب، وإلى الهند، وعلى طول ساحل المحيط الهندي. إن هذه لثروة هائلة!

أُوقظت من حلمي، ومن أفكاري عن حياتي الماضية، على وقع أقدام تركض وأصوات عالية. كان بوسعي أن أخمّن أن مكروهًا قد وقع. إذ إن تاويكا ولايده لم تشعلا النار بعد، وهذا ليس بغريب، فالوقت كان بين الفجر وآخر الليل.

رغم ذلك، كان بمقدوري أن أتبين هيئتهم بسهولة، فقد كان القمر ما زال مضيئًا. كان الحراس مستيقظين، لكن آخرين ممن يفترض أن يكونوا نياما كانوا مستيقظين أيضًا. الحمّالون وقادة البعثة كانوا يتحركون باهتياج. حتى عديمو الفائدة من الباغازي، كذاك اللص شيرانغو، الذي لا يحرك رجليه الكسولتين قبل أن ينفخ فيهما طبل ماجوارا بعض الحياة، كان كالجميع يتحرك في عجلة، ذاهبًا من مجموعة إلى أخرى، ومنها إلى ثالثة.

ركض سوزي إلى الصبي ماجوارا، وآسماني هرع إلى يوليدي مونياسير، وسافينه نحو شوبيره. كانوا مضطربين جميعًا، مثل الدجاج قبيل هطول المطر. وتحت شجرة مفولا، كان فتيان ناسيك يتجمعون معًا.

كان هناك سبعة منهم، وجميعهم عتقاء قبض عليهم تجار العبيد حين كانوا صبيانًا ثم أنقذتهم جاهازي ضخمة أرسلتها ملكة بلاد بوانا داودي. كان يقول سوزي إنهم يسمونها أفلاك، وهي سفن شراعية يضاهي ارتفاعها ارتفاع المنازل ويكاد يقارب حجمها قصر الوالي. أخذتهم تلك الأفلاك إلى الهند، حيث علموهم أن يتكلموا بلسان ليس لسانهم، وتعلموا لغات الموزونغو. وعلموهم كذلك التجارة، وأعطوهم كتبا ليقرؤوها، وأوراقًا

ليكتبوا عليها، وثيابًا تجعلهم يبدون كالوازونغو.

في وسطهم كانت تنتصب قامة جاكوب وينرايت، وهو يرتدي بزته الكاملة في هذه الساعة. يمكن أن يهطل وابل من أمطار العواصف، ويمكن أن تكوي الشمس بقساوتها غارات تيبو تيب للرقيق، ولا يمكن إلا أن يكون جاكوب ما يزال يرتدي بزته.

يقول إن الرجل الذي سُمّي تيمنًا به قد أهداه إياها، ولو أردتم رأيي، لقلت إنه لو رأى الرجل الطيب كيف يتعرق جاكوب - أثناء ارتدائها - في كل ساعة من كل يوم، لربما أعاد النظر في هديته. لم أستطع أن أرى أي أثر لوينرايت الآخر، جون، شقيق جاكوب. حسنًا، أقول شقيقه، لكن جاكوب نفسه يزعم أن جون ليس أخاه، ولا عجب في ذلك. فالرجل أكسل من قطيع من فرس النهر. حتى إنه أضاع اثنتين من أجود بقراتنا الحلوب، حتى لتظن أنه لم يرعَ بقرًا في حياته يومًا. لا أعلم حقًا ماذا يعلمونهم في تلك المدرسة في الهند غير القراءة والتكلم بالإنكليزية!

كان قد تبادر إلى ذهني ما يمكن أن يكون أيقظ المخيم في ساعة كهذه، فشققت طريقي إلى شجرة مفولا ولمست كتف ماثيو ويلينغتون.

قلت: "هل حصل ما كنا نتوقعه؟"

أومأ برأسه دون أن يتكلم. أطلقت صرخة أفزعت بومة كانت بجوارنا وحملتها على الطيران بعيدًا. ترك سوزي مجموعة كبار الباغازي وجاء نحوي، فرميت نفسي بين ذراعيه. لم يكن سوزي يحتاج يومًا أي عذر لكي يكون بجواري، ولم يكن له عذر منذ أول مرة رآني فيها. وإذا كان هناك شيء أفهمه، فهو تلك النظرة التي ينظرها الرجل إلى المرأة عندما يريدها، ولو أنني حظيت بسبيكة ذهبية مقابل كل نظرة من نظرات سوزي إليّ، لكنت وريثة الثري الهندي لودا دامجي.

ما أن ألقيت نفسي بين ذراعيه، حتى أقبل رجلي آمودا، فأبعدني سوزي بعجلة، لكن ذلك لم يكن قبل أن أشعر بصلابة جسده. والطبيب مسلتقٍ على بعد بضع ياردات منا، ميتًا كالجمادا مثل جدي درن.

قبل أن تكون لآمودا فرصة للاحتجاج، سحبه سوزي جانبًا. قادتني غريزتي إلى إيجاد امرأة أخرى. فاتجهت نحو الكوخ الذي نامت فيه تاويكا الليلة الماضية بينما أطلق صرخة تشق السماء، معتقدة أنها ستنضم إليّ. لم يأتِ جواب. لعلها رتبت سريرًا في مكان ما مع مبروكي الذي ارتبطت به بكل حماقة. وحتى في غمرة اضطرابي، لم أستطع منع نفسي من تذكر أنها منذ أسبوع فحسب كانت تقول إنه ليس رجلًا، وإنه ليس سوى حمار، حمار كسول.

قلت لها حينئذ: "حسنًا، كان بإمكانك أن تختاري عندما أتاح لك بوانا داودي ذلك. كان يمكن أن تحظي بغاردنر، أو شوما، لكنك اخترت أن تكوني مع مبروكي".

عندما كنا في يونيانيمبي، وحشرت نفسها في مجموعتنا دون دعوة، قال بوانا داودي إن عليها أن تختار واحدًا من رجاله الأحرار ليكون زوجًا لها. لقد كان محقًا، فكائن حسن المنظر مثلها قد يتسبب لنا في كثير من المتاعب لكونه طليقًا.

خلال أسبوع من عملها غاسلة ملابس في يونيانيمبي، كانت عيناها على آمودا. ثمة كثير من الأشياء التي يمكن قولها عن رجلي هذا، لكن لا يمكن إنكار أنه يستطيع أن يجذب النساء إليه بسهولة. فهو نموذج حسن للرجل شأنه في ذلك شأن سوزي، حسن البنية وطويل. ورغم أنه لا يمتلك ضحكة سوزي الحيوية والمرحة التي ترغب في سماعها مرة بعد مرة، لكن فيه ما يجعله يحظى بقلب أي امرأة. عندما رأيته أول مرة، في تابورا

عندما كنت مع التاجر العربي، خلب لبّي، واستحوذ على كل تفكيري إلى أن حظيت به. لكنه بالطبع سرعان ما ظهر على حقيقته، والكدمات على جسدي تشهد على ذلك. لطالما تمنيت لو أن سوزي كان هو من رأيته أولًا.

لكنني ما دمت حليمة، ابنة ظافرين، سُرّيّة الوالي المفضلة، فلم أكن سأدع تاويكا تتبسّم في وجه رجلي وتفلت بفعلتها، حتى وإن كان خشنًا كآمودا. لم أكن لأمانع من استعمال قبضتي ضدها، لكنني بالتأكيد لم أفعل، إذ أثرت غضب بوانا داودي الذي قال إن الخطأ خطئي. لكن بعد أن بدأت تنظر إلى سوزي بإعجاب، وتثير غضب امرأته ميسوزي، صار يرى الأمور كما أراها.

قابلنا ميسوزي في يوجيجي، قبل أن يجدنا بوانا ستانلي بأسابيع. كانت حينها متعاونة معي كثيرًا على وجه الخصوص، ولا عجب في ذلك، إذ كانت عيناها على سوزي. قالت إن رجلها ذهب في مهمة تجارية إلى تابورا ولم يعد. وآثرت الرحيل معنا وأن تكون امرأة سوزي في السفر على أن تبقى في انتظار رجلها في يوجيجي. كانت لها طبيعة بالغة العناد، ميسوزي تلك، وعقل جدي صغير. لكن لا بأس في وجود امرأة أخرى معنا. سيّان!

بعد أن أوضحت لتاويكا أن آمودا ليس لها، حوّلت عيناها إلى سوزي. عندما أسرعت ميسوزي تشتكي لبوانا داودي، حينها قال إن عليها أن تختار رجلًا آخر. سمعته يقول لآمودا: "لا أحبذ أن تبقى امرأة جميلة طليقة بيننا، أفضّل أن تختار أحدًا من رجالي الصالحين".

انظروا إليها الآن، رغم أنها مرتبطة برجل، إلا أنها ما تزال تتسبب في المتاعب. إنها مثل تلك الزبديات الجميلة في دار الوالي؛ لا تستطيع أن تشرب الشاي فيها لأنها مسطحة، ولا أن تأكل التمر منها لأنها صغيرة، لذا تراها موضوعة فوق رف عالٍ حيث لا تصلح سوى للنظر إليها، ولأن تأخذ

حيزًا دون سبب.

منذ أن وصل الناسيكيون، بعد رحيل بوانا ستانلي بستة أشهر، والفرحة لا تسع تاويكا. أراهن أنها كانت ستفتح رجليها لأي واحد منهم إن طلب ذلك، خاصة لذلك الذي يُدعى جاكوب وينرايت. فالطريقة التي كانت ترمش فيها عيناها كلما تراه تجعلك تخال أنها تحاول أن تذرف من الدموع ما يكفي لغسل التراب منهما.

أخبرت ميسوزي بفكرتي؛ أن تاويكا تندم على عجلتها، إذ لو أنها اختارت بعد وصول تلك الجمهرة من الرجال التي أرسلها بوانا ستانلي لكان بوسعها أن تختار أي واحد من رجال الباغازي الخمسة والخمسين، وأيضًا من الناسيكيين السبعة الذين كانوا برفقتهم. كان بوانا داودي يسميهم فتيان الناسيك، ورغم أنهم ما زالوا صغارًا في السن، حتى إنك لتقدر أن تعصر الحليب من أنوفهم، إلا أنهم أبعد ما يكونون عن الفتيان، خاصة جاكوب وينرايت، ذلك الشاب الراشد الذي شهد شهر رمضان على الأقل واحدًا وعشرين مرة. يتباهى بكل شيء، بلغته الإنكليزية، وبعلمه، وبحذائه، وبكتبه، وحتى بثيابه البيضاء.

إلا أن ميسوزي وليس تاويكا من جاءت إليّ وهي تفرك عينيها: "ما الأمر؟"

"لقد مات، لقد رحل، لقد مات!" بدأتُ بالعويل.

"من؟" سألت ميسوزي وهي تتثاءب.

يخطر في بالي أحيانًا أن المرأة لا يمكن أن تكون غبية مثلما تبدو. من غيره يمكن أن أكون قد قصدت؟ الحمار مثلًا؟ بالنسبة لامرأة كتلك، لا عجب أن سوزي ينظر ثلاث مرات ثم مرتين إلى كل امرأة يمر بها.

دخلت لتجلب إزارها، وبينما هي في الداخل، لمحت تاويكا تخرج

خفية من الكوخ الذي كان كاروس فرار نائمًا فيه. غضبت وتساءلت إن كانت ميسوزي تعلم بذلك. سيحين وقت ويُعرف فيه كل شيء، لا أقصد إنني سأبوح بكل شيء، فما أستطيع أن أقوله صراحة هو أنه ليس من طبعي النميمة.

"وأنت كذلك يا ميسوزي" قالت تاويكا. "عمن تتحدث حليمة برأيك؟ من كنا نتوقع موته كل يوم؟ من كان جسده الضعيف على وشك أن يصبح جثة؟ لا يمكن أن يكون غير البوانا".

بدأتا تتجادلان على نحو يصيبك بالدوار. تحركت صوب النار حيث كان مجموعة من الرجال جالسين يتحدثون. كان من بينهم سوزي، وآمودا، وشوما، وكاروس فرار، والصبي ماجوارا. كانوا ينتظرون، بحسب كاروس فرار، زوال التخشُّب من جسده حتى يمكنهم تمديده. وحسب تقديره، لن يستغرق الأمر طويلًا، إذ إن بوانا داودي قد مات ليلًا وعليه فإن حرارة الجو ستساعد في زوال تخشُّب الجثة.

بدأ رجال الباغازي يصلون تباعًا ويجلسون حول النار. كان هناك سؤال واحد يتردد على كل شفة: كيف حدث ذلك؟ أخذ كل من سوزي وماجوارا على عاتقهما الإجابة عن ذلك تباعًا.

قال ماجوارا: "قبيل منتصف الليل، خرج بوانا داودي من الكوخ ليقول إن على سوزي أن يحضر إليه فقد كان يعاني من الهذيان".

أكمل سوزي: "دخلت حالًا. كان بوانا حينها يحاول أن ينهض من فراشه. وكان جليًا أنه لم يكن في كامل قواه العقلية، إذ قال لي: "لقد وجدت الينابيع يا سوزي. لقد وجدتها. أليس هذا لوابولا؟"

قال سوزي: "أخبرته أننا في بانغويلو، قرية شيتامبو"، إذ بدأ البوانا يتمتم بالإنكليزية وكلّ ما سمعه سوزي، وهو غير متأكد إن سمع على نحو

صحيح فكلماته لم تكن منطقية بالنسبة له: "المسكينة ماري في منحدر شوبانغا، وتخبز قرب الشمس".

ماري، كما كنت علمت، هو اسم ماما روبيرت، زوجة بوانا داودي، وشوبانغا، التي ينحدر منها سوزي كذلك، هي المنطقة المدفونة فيها. قاطعت سوزي لأسأله عما فهمه من تلك الكلمات، غير أنه لم يكن لديه أي جواب. استدرنا جميعًا نحو جاكوب وينرايت، إلا أنه كان ينظر في الأفق وكأنه لم يسمع السؤال. لقد لاحظت قبلًا أنه عندما لا يعرف الجواب يتظاهر أنه لم يسمع السؤال أصلًا.

سألت حينذاك: "ماذا حدث بعد ذلك؟"

تابع سوزي روايته: "ساعدته على الاستلقاء على فراشه، وهو يسأل متكلمًا بالسواحيلية آنذاك، كم يومًا يستغرق الوصول إلى لوابولا.

قلت له: "ثلاثة أيام سيرًا".

فقال: "ثلاثة أيام حتى نصل إلى لوابولا، آه يا إلهي!"

قال سوزي إنه بدا أنه عاد إلى صوابه بعد ذلك وعرف المكان الذي هو فيه. ثم طلب من سوزي أن يسخن له بعض الماء.

سألت: "هل أكل الطبق الذي أعددته له؟ كان مكونًا من الفستق والحبوب، مهروسان جيدًا حتى إنه يمكنه بلعه دون مضغه. كنت في غاية السرور عندما طلب الطعام".

هزّ سوزي رأسه وتابع حديثه. ذهب إلى حيث النار وعاد ومعه آنية نحاسية مليئة بالماء. ناداه بوانا سوزي كي يدنو منه وطلب صندوق أدويته وشمعة. أخرج دواءً وطلب من سوزي أن يضعه بجانبه.

قاطع كاروس فرار قائلًا: "لا بد أنه عانى من اضطراب معوي، لقد رأيت تلك الآنية. إنها دواء مسهل يدعى كالوميل. يفرّغ ما في المعدة".

قلت: "لو كانت معدته أصيبت باضطراب، فلا علاقة للطعام الذي أعددته بذلك، فقد أعددته طازجًا من الفستق الذي اشتريناه من نساء شيتامبو البارحة".

واصل سوزي حديثه: "أنا متأكد أنه لم يأكل من الطعام الذي أعددته يا حليمة. كان ما يزال بجوار بوانا داودي عندما طلب مني الخروج. غادرت عندها تاركًا ماجوارا في الكوخ".

تابع بعدها ماجوارا رواية ما حدث. قال إنه بعد بضع ساعات من مغادرة سوزي لبوانا، أيقظ آمودا، والذي كان قد استلم المراقبة إلا أن النوم قد غلبه، قائلًا له: "تعال إلى بوانا، أخشى أنه... لا أعلم إن كان على قيد الحياة".

أيقظ عندها آمودا سوزي، وشوما، وكاروس فرار، وشوبيره. دخلوا الكوخ ونظروا إلى الفراش. لم يكن بوانا داودي مستلقيًا عليه، بل كان ساجدًا بجانبه ليصلي على ما يبدو. فتراجعوا إلى الوراء على نحو غريزي. قال ماجوارا وهو يشير إليه: "عندما استلقيت لأنام، كان على هيئته هذه، ولأني أراه لا يتحرك أخشى أنه قد مات".

قال كاروس فرار عندئذ: "كانت الشمعة ملتصقة بشمعها أعلى الصندوق تلقي ضوءًا كافيًا لرؤية هيئته. لقد غادر بوانا داودي فراشه، وكان ساجدًا بجواره. كان جسده ممتدًا إلى الأمام ورأسه بين يديه على الوسادة. لم تصدر منه أي حركة. تقدمت صوبه ووضعت يديَّ على خديه الغائرين. كان باردًا ومتخشّبًا. استدرت نحو البقية وأومأت لهم. أخبرتهم بما شعرنا به جميعًا لحظة دخولنا الكوخ: "لقد رحل بوانا داودي".

أثناء الصمت الذي تلا حديث كاروس فرار، نهض ماجوارا وابتعد وحده. تركت الرجال حول النار وتبعته إلى صخرة في مكان ليس ببعيد.

جلس وجلست بجانبه وانتظرته وهو يبكي ويداه على عينيه. عندما رفع وجهه، كان الأسى والحزن باديين عليه.

عندما لم يكن ماجوارا يؤدي عمله باعتباره كيرانغوزي ويضرب على الطبل إيذانًا بالمسير، كان خادم بوانا الخاص. لم يعد ولدًا لكنه لم يصبح رجلًا بعد؛ لقد كان الوحيد في عمره من بين الأولاد الستة الآخرين. ومع ذلك تراه سعيدًا بطبله. إنها لمسؤولية كبيرة لولد في مثل عمره أن يعتني باغتسال ولباس رجل راشد. انظروا! أظل أنسى أن بوانا داودي لم يعد موجودًا. لطالما كان آمودا يقترح على بوانا أن الولد ما زال صغيرًا على هذا العمل. إلا أن ماجوارا، وقد سمع ذلك، أصر على أن هذا العمل هو بالضبط ما يريده.

وجدناه قبل سنة. كان من بين جماعة من العبيد تُساق إلى الساحل. كان بوانا يصاب بالتوتر الشديد كلما صادفنا مشاهد كهذه. صدمته نظرات ماجوارا الطفولية، وبالفعل، قال شوما فيما بعد إنه هو نفسه كان في مثل تلك السن، خمسة عشر رمضانًا لا أكثر، عندما أُسر وأنقذه بوانا داودي.

تمامًا مثلما فعل مع شوما، أقنع بوانا داودي آسري ماجوارا أن الولد صغير جدًا ومريض وليس بوسعه تحمل السفر إلى الساحل، وأنه سوف يدفع لهم مقابله سعر رجل. رأوا أنها فرصة لعقد صفقة سريعة، سلموا الولد إلى بوانا داودي مقابل خمس سلاسل من الخرز، وهذا ما كان الدكتور دومًا يمزح بشأنه من أنه كلف أكثر مما كلفته؛ إذ كان قد اشتراني أيضًا ولكن ليس لنفسه، بل لآمودا.

ولأن بوانا داودي أنقذه وعالجه حتى شُفي من الملاريا، فقد كان مستعدًا لفعل أي شيء يطلبه منه. لكن الأمر الوحيد الذي رفض فعله هو أن يغير

اسمه، مع أن بوانا داودي اقترح عليه عدة أسماء أخرى. قال: "شوما هو جيمس، وأنت أيضًا ينبغي أن تكون رسولًا. يمكنك أن تكون لي مثل بطرس للمسيح، وسأستند عليك كما استند يسوع على الصخرة".

إلا أن ماجورا ظل يقول إنه يود الاحتفاظ باسمه. قال إنه ذكرى من أمه، لقد اختارت له هذا الاسم دون غيره. كان يقول: "لن أراها ثانية، غير أنها معي باسمي".

"يا لك من فتى عاطفي!" قال بوانا داودي وربت على ظهره. "إذًا، يا سندي الشاب، سيظل اسمك ماجوارا".

وها نحن على هذه الصخرة في قرية شيتامبو وبوانا داودي ميت في كوخه.

كنا أنا وماجوارا جالسين صامتين، ثم قال ماجوارا: "طلب دواءه، أعطيته إياه وأخرج ما كان بحاجته منه. لكن ماذا لو أنه أخذ الدواء الخطأ؟ ماذا لو، بسبب هذيانه من المرض، أخذ الدواء الخطأ؟ ثم غلبني النعاس ونمت. كنت مرهقًا للغاية. ما كان ينبغي أن أكون مرهقًا هكذا. ماذا لو ناداني ولم أسمعه؟"

"لقد فعلت ما بوسعك يا بُني" قلت له وربّتُ على رأسه. رغم أنه كان أصغر مني بكثير إلا أنه كان عليّ أن أرفع ذراعي لأربّت على رأسه، فقد بدا بجانبي مثل شجرة بالغة الطول.

بكى الولد وقال: "لقد أنقذ حياتي، لكنني لم أستطع أن أنقذ حياته".

تركته يبكي دون أن أكلمه. وبعد أن أفرغ عبرته وحزنه، قال: "لن أراه ثانية".

قِلت له: "نعم، هذا هو الموت. لن يرى أي منا بوانا داودي ثانية في هذه الحياة".

عدنا معًا إلى المخيم. كانت التخشُّب قد زال من جثة بوانا ومددها

الرجال. مع وصولنا كانوا يدخلون إلى الكوخ في مجموعات صغيرة لإلقاء نظرة الوداع. بعد أن أنهى جميع الرجال ذلك، أدخلت النساء لرؤيته.

مدَّدوه على ظهره على الفراش الطيني. كانت يداه على جانبيه وعيناه مغلقتان. كان شعر رأسه أشيب وناعم. كان غريبًا أن تراه دون قبعته، إذ لم يصدف أن مر يوم دون أن يعتمرها. وعبر الضوء الضعيف الذي اخترق عتمة الكوخ، بدا وكأنه نائم. كانت ذبابة زرقاء تطن عند السقف. كان صندوق أدويته يشكل طاولة بجانب سريره.

عندما نظرت إلى طبق الحبوب المسلوقة والفستق المهروس فوقه الذي طلبه في الليلة السابقة ولم يأكله، أدركت حينها، وبصدق، أنه ميت، وأن موته كان كل شيء بالنسبة لي.

2

[تيبو تيب] يصفه بأنه رجل عجوز، ويضيف إن اسمه كان
ليفينغستون، لكنه في داخله يسمي نفسه ديفيد.
لذا يبدو أنّ ليفينغستون
كان ملزمًا، من أجل بناء علاقة حميمة،
أن يجعل رجاله السود ينادونه ببساطة باسمه المسيحي.

هينريك برود،
(تيبو تيب، قصة مهنته في وسط إفريقيا،
كما جاءت في رواياته الخاصة).

عندما اشتراني بوانا داودي لآمودا منذ أربع سنوات، أخبرني آمودا أن البوانا كان رجلًا متعلمًا، وأنه كان كانغا أكثر مهارة من جميع رجال الطب عند السلطان. اعتقدت أنه كان يضحك عليّ لأنني لا أعلم عن العالم بقدر ما يعلم هو. لكنني في أثناء وجودي مع بوانا داودي، عرفت أن كل ما أخبرني به آمودا كان صحيحًا: فمن قراءته لكتبه الضخمة بمختلف اللغات، عرف بوانا داودي الكثير عن الأمراض التي تصيب البشر والبهائم على حد سواء.

كان باستطاعته شفاء الجميع تقريبًا بعقاقيره ومستحضراته. صحيح أنه لم يجد متعة في علاج عين شيرانغو بعدما فقدها إثر ضرب آمودا له، وشيبانغاوازي المسكين قد مات بعد أسبوع من الترحال في نيانغوي، لكنه شفى ماجوارا من حمى الملاريا وآخرين كثر من شتى الآلام التي تصيب البدن والمفاصل.

لم يكن لديه ما للعرّافيين من عظام الحيوانات وقرونها وجلودها، أو من المساحيق النباتية، مثل كانغا حقيقي. لكنه كان يملك أشياء أخرى مما تجدها لدى الطبيب، كالعقاقير والمستحضرات التي كان يقول إن الكانغا في بلاده يستعملونها. وإلى جانب مستحضراته ومساحيقه وعقاقيره الكثيرة، كان بوانا داودي يسافر برفقة أدوات متنوعة يستخدمها لقياس ارتفاع الأرض وينظر من خلالها إلى النجوم. غالبًا ما ساعدتنا قراءته للنجوم في رحلاتنا، فتلك حكمة يدرك أهميتها الكثير من البشر، وفي الواقع، تُمنح في بعض البلدان مناصب شرف للرجال الذين يستطيعون قراءة النجوم. وكان لا يتوقف عن الكتابة، وعندما ينفد ما لديه من حبر، كان يطلب مني أن أهرس توتًا طازجًا ليستخدم عصيره حبرًا.

بقيت بعض الوقت حتى عرفت ذلك عن بوانا داودي، ولهذا لم أصدق آمودا على الفور. إذ بدا غريبًا بالنسبة لي أن يهجر رجل الحياة التي يعرفها في بلاده، ويبحر لشهور وشهور في جاهازي في بحر هائج ويمضي كل تلك المسافات ليجول بحثًا عن منبع نهر.

لِمَ قد يهجر رجل أرضه وزوجته وأولاده ليطوف في هذه المستنقعات الكئيبة بحثًا عن مجرى نهر، وعما لا يخصه بأي شكل من الأشكال؛ ذلك أبعد من مستوى إدراكي. لكن بوانا داودي كان بلا زوجة، المسكينة ماتت، ولم يتخذ أخرى بعدها، ماما روبرت، ماتت، يا لها من مسكينة!

لعلّ موتها هو ما جعله يهجر أولاده.

ورغم أنه حاول جاهدًا أن يشرح لي لِمَ كان يبحث عن منبع النيل، لم أستطِع أن أستوعب الأمر. قلت له: "عد إلى أولادك، لأن النيل كان هنا منذ بدء الزمان، وسيظل بعدما نصير أنا وأنت تحت التراب، وماذا عساك فاعل حينها، فالنيل لن يأبه إذا ما عرفت من أين ينبع. سوف يتدفق كما كان يتدفق من قبل سواء وجدته أم لم تجده. انظر إلى بوانا مبروكي ذاك، الذي كان يدعى سبيك، كما أظن، نعم، بوانا سبيك، ذاك الذي أراد بومباي، رجل بوانا ستانلي، زيارة قبره.

لقد أطلق الرصاص على نفسه، أليس كذلك، بينما ينظف مسدسه. أخبرني بومباي عن ذلك عندما كان هنا مع بوانا ستانلي. أكثر طرق الموت حماقة، لو أردت رأيي. لماذا نظف مسدسه بنفسه، كما لو أنه لا يملك عبيدا لينظفوه له؟ حسنًا، هو في قبره الآن، والنيل ما زال يجري".

وقلت له: "من الأفضل أن تجد لك زوجة شابة تدفئ سريرك، نعم، أنت عجوز وأسنانك رديئة، لا يمكننا إنكار ذلك، لكنك، مثل سيدي الثاني القاضي، ثري تمتلك الثياب والذهب والخرز، ويمكنك أن تحظى مثل القاضي بزوجة جميلة. كانت لديه ثلاث زوجات، جميعهن جميلات مثل جواهر لامعة، لكن هل أنفق أي مال عليهن؟ انظر أين أودى به بخله. ميتًا، تاركًا كل شيء خلفه، يتقاتل عليه أولاده ورجاله الأوغاد".

كان يضحك وهو يبعدني عنه قائلًا: "كفى، يا حليمة، دعيني أتناول طعامي بهدوء".

والآن، ربما يكون بوانا داودي سعيدًا للتجول بلا سبب، لكن لو كان الاختيار لي لعدت إلى زنجبار، بعيدًا عن الأدغال والطين، أستوثر الفراش في بيتي الخاص، خلف باب يكون أعجوبة للناظرين. لطالما قلت

له إنني لم أولد للمسير في البرية، والغابات، والمستنقعات بحثًا عن الأنهار، لم أولد لذلك. عشت سنواتي الأولى مع أمي في واحد من أكبر القصور في زنجبار، في بيت المتوني.

كانت أمي ظافرين، قبل أن تصير من نساء الوالي، طباخة لأحد أكثر بنات أخوة السلطان فسادًا ودناءة. اتُّهمت أمي بالسرقة، ولحسن حظها أن ذلك كان عندما وقعت عين الوالي عليها، ولم لا، فرغم أنها كانت نوبيّة ببشرة ذات لون أشبه بلون القهوة المحروقة، إلا أنها كانت طويلة ومتألقة، لها أسنان وعينان أنصع بياضًا من الحليب. وهكذا أحضرنا الوالي كلينا من عند زوج ابنة أخ السلطان، وهكذا أصبحنا من أهل بيته.

النساء في حريم الوالي قلن إن يدها طويلة، أمي، ظافرين. لا أعلم عن ذلك، وللأمانة، لا شيء أبغض إليّ من السرقة، كما يعرف ذاك الباغازي الكسول شيرانغو تمام المعرفة. شككت أنه كان يسرق القماش من رزمة قبل أن تُفتح، إلى جانب بعض الخرز، ويبيعها لي ليلقي اللوم عليّ، لكنني سرعان ما بينت الأمور على حقيقتها.

بعد موت الوالي، انتقلت إلى بيت القاضي، الذي كان يقضي في المظالم ويجلس في تلك المحكمة يصدر الأحكام على من لا يتبع تعاليم النبي، عليه الصلاة والسلام. واليوم، رغم أنني أصلي على النبي إلا أنني - الحق يُقال - لست محمدية، لكنك عندما تعيش بين المحمديين لا يمكنك إلا أن تعتاد على عاداتهم. حاولت جاهدة أن أعتاد على ذلك، وكان عليّ أن أتظاهر بما يكفي أمام القاضي، لا بد أن أعترف أنه رغم أنني كنت أفعل ظاهريًا كل ما يُطلب مني، وكنت أفعله على نحو صحيح أيضًا، إلا أنني لم أتقبل الأمر. كان كل ذلك مجهدًا، كل الصلاة والزكاة والحديث والتعاليم والأحكام وغيرها.

من بيت القاضي، باعني أبناؤه الجشعين إلى التاجر العربي الذي جرّني

من زنجبار إلى تابورا في الداخل. كم كانت بائسة الحياة هناك! العيش في بيت طينيّ واطئ، لا يوجد في كل أرجاء تابورا باب تستطيع أن تسميه بابًا، لا شيء يستوقفك للنظر إليه.

إذا كنتُ حسنة المعشر واعتنيت به وقمت على أمره وطبخت له طعامًا مريئًا، فسيجعلني زوجته الأساسية، حرمته. وإن لم أعامله المعاملة الطيبة، سأقذف بكِ إلى زنجبار، إلى سوق العبيد. قلّبي الأمر في رأسك. هكذا قال لي التاجر العربي. لعلّني كنت من العبيد، لكنني لم أُبع يومًا في السوق، حيث يستطيع أيًا كان أن يتلمسني ويتحسسني هنا وهناك كما لو أنني كنت أي جاكازي.

أجشع رجل يمكن أن تعرفه، أشد جشعًا من أبناء القاضي ورجاله الأوغاد، لم أعتقد أنهم قد يبيعون زوجاتهم وبناتهم في السوق لو استطاعوا النجاة بفعلتهم، لكنهم قد يفعلونها! لو كان عربيًا، لقلت حينها إن أبي فيل وأمي زرافة! كان شديد القبح! ما ذنبي حتى أحاط بالرجال القبيحين؟ حسن!، هناك سوزي، لكن ميسوزي له، أليس كذلك؟ لست أنا من تبكي على حبة طماطم في بستان الآخرين.

وقعت عيناي على آمودا عندما كنت عند التاجر العربي. لذلك اشتراني بوانا داودي له. آمودا لديه زوجتان في زنجبار، وولدان بالغان تقريبًا وثلاث بنات، لكن لم تكن لديه امرأة في الطريق، والرجل كما هو معلوم يتوق لامرأة أثناء السفر. ساوم كثيرًا، وما انتهى إليه الأمر هو أن العربي علم أنه لديه قصة محكمة ليرويها إذا ما قال إنه باع أمته المفضلة إلى موزونغو أبيض. كان العرب حريصين على إظهار أن ذلك لم يكن صحيحًا، وأن الوازونغو أرادوا أمة انتهى منها التاجر.

بين يوم وآخر، كان البيض يزعجون السلطان بالتماساتهم، هكذا قال تاجري العربي. قدموا له شتى صنوف الوعود إذا ما وافق السلطان على إغلاق سوق العبيد في زنجبار. وأين سنبيع عبيدنا إذا أغلق السوق؟ هكذا كان يقول تاجري ورفاقه بسخط، وهم يمضغون طعامي اللذيذ بأسنانهم. قال التاجر إن لديهم ما يكفي من العبيد، وقد أرسلوا سفنها محملة بالزنوج إلى جميع جزرهم في الكاريبي وأمريكا، لكن لديهم ما يكفي من العبيد، وسيمنعون الآخرين من فعل الشيء ذاته. مجرد نكاية، ووافقه رفاقه على ذلك.

لذا حين جاءت الفرصة لتاجري العربي أن يبيعني لبوانا داودي، حسنًا، كانت كما لو أن رمضان انتهى، ومعه أيام العيد جميعها دفعة واحدة. لو كان بمقدوره أن يقول للعرب الآخرين ولكل من يأبه له، إنه باع أمته المفضلة إلى إنكليزي أبيض، حسنًا عندها... عندها سيقولون إنهم ليسوا رفيعي الشأن، أولئك الإنكليز، يذهبون إلى السلطان ليطلبوا منه إغلاق السوق في النهار ويشترون العبيد في الليل.

فرحت للذهاب حقًا، أستطيع أن أقول ذلك. وكما قلت، لقد اشتراني بوانا داودي لأُسعد آمودا، وأعجبني عندما نظرت إليه. لا شيء أجمل من أن تكون المرأة بين ذراعي رجل يحسن التصرف. لكنه كالليمون الأخضر، الرجال يبدون وسيمين كفاية من الخارج، ولكنك عندما ترى داخلهم تجد شيئًا مختلفًا. كان بوانا داودي يعطيني أجري أيضها عندما عرف أنني أستطيع أن أطبخ جيدًا مع أنني لم أطبخ له شيئًا لذيذًا، في غير ذلك الوقت الذي أمضيناه في مانيوما، ببساطة لأنه لم يكن لدينا ما يكفي من المؤن.

وها هو الآن ميت. لا أعلم سوى القليل عن هذا العالم، هذا صحيح، لكنك لا تستطيع إخباري بأي جديد حول انتقال العبيد وعتقهم. أعلم أن

بوانا داودي اشتراني لآمودا لكنه لم ينقل ملكيتي له. وبوجود ابنه في بلاده وراء البحار، وبما أنه لا يقدر أن يتخذني امرأته، فإن موت بوانا داودي قد أحلّ الرابط بيننا. للمرة الأولى منذ أن كنت طفلة صغيرة بين ذراعيّ أمي ظافرين، أنا حرة.

3

أجد أن من الصعب عليّ أن أتوصل لفهم شخصيتهم. فهم، في بعض الأوقات، يفعلون
أشياء خيّرة، وفي أوقات أخرى يفعلون النقيض. لم أكن قادرًا
على أن أتبيّن الدافع للخير لديهم، أو أن أفسّر قسوة ضميرهم
عندما يرتكبون الشرور. بعد مراقبة طويلة، توصلت إلى أنهم
مزيج غريب من الخير والشر، شأنهم في ذلك شأن البشر في كل مكان.

ديفيد ليفينغستون،

(الرحلات التبشيرية والبحوث في جنوب إفريقيا).

كنت أخشى أن تؤول الأمور إلى هذه النهاية المحزنة منذ أن ذُبحت نساء مانيويما أمام أعيننا في نيانغوي. كان ذلك أواسط الشهر الذي يدعوه بوانا داودي يوليو، قبل أربعة أشهر من لقائنا فرقة بوانا ستانلي في يوجيجي. انهار بوانا داودي من الحزن آنذاك، ولم يتعافَ قبل مضي أكثر من اسبوع. كان لديه ما يكفي لتحمّله. لطالما قلت لميسوزي إن ما في جسده من مرض يوازي ما لدى دزينة من الرجال. كانت في جسده مئات ومئات من

الكائنات الصغيرة غير المرئية تأكل عظامه، كما يقول. لكن كيف دخلت إلى جسده؟ لم يفسر يومًا! على الرغم من أنه بدا جليًا لي أن سحرًا عظيمًا وحده قادر على تفسير ذلك. عندما أصررت عليه بجدية أن يجد كانغا لعلاجه من هذا السحر المريع، أبعدني ضاحكًا مني.

وهو يعاني أيضًا من مرض يجعله يصاب بالإسهال كلما أكل طعامًا. وفوق ذلك كله، كانت أسنانه تتساقط من فمه. وبين الإسهال وتساقط الأسنان، صارت هيئته نحيلة وهزيلة.

كان كل ما يمكنه أن يأكله هو الكعك المخمر الذي يحبه. وهو سهل التحضير: طحين وماء فحسب، مطبوخان بزبدة مالحة أصنعها من الحليب الخاثر. كان الكعك المخمر هو الشيء الوحيد الذي استطاعت أسنانه المتآكلة مضغه، بالإضافة إلى بعض اليوغالي غير المطبوخة بالطريقة المعتادة، وبعض دقيق الذرة الذي يخفق بالماء إلى أن يتصلب، لكنه يطبخ حتى يصبح أكثر وأكثر طراوة حتى يكاد يصبح عصيدة، كتلك التي نطعمها إلى طفل مفطوم.

إلا أن الجرح الذي أصاب قلبه كان أشد وطأة من الألم الذي أصاب جسده. ظل فترة طويلة بعد ذلك لا يتحدث سوى عن المجزرة. ومن صدمته لم يعد يسأل حتى عن نهر النيل. كان يقول إنه سيكتب عن مجزرة مانيوما للعالم. سيكتب عنها بكلمات من نار.

حدث ذلك في يوم السوق. كنا في مانيوما لأسابيع وكانت الأمور على ما يرام. غير أن خلافًا وقع بين بوانا داودي ورجل يدعى دوغومبي بن حبيب كان كبير تجار العاج وتاجر عبيد في منطقة مانيوما. التقى الرجلان من قبل. ورغم أنني سألت كلًا من آمودا وسوزي، إلا أنني لم أفهم سبب الخلاف بينهما. على أي حال، كان الخلاف يتعلق بدوغومبي وجربه مع

رجل يدعى ميرامبو. كان ميرامبو هذا سلطان منطقة ما داخل البلاد وقد قتل العشرات في غاراته. مهما يكن سبب الخلاف، المهم، كان بينهما عداوة وهذه هي زبدة الكلام.

في ذلك اليوم، جاء خمسة من رجال دوغومبي إلى السوق. لم يكن يومًا حارًا يحرق الجلد، بل كان يومًا دافئًا صحوًا وفيه نسيم بارد بعض الشيء. كنا جميعًا في السوق. في الواقع لم يكن هناك شيء أكثر متعة من النظر إلى تلك الأشياء الجميلة التي أحضرتها نسوة مانيوما إلى السوق يومها. أحب الرجال النظر إلى النساء أيضًا، وخاصة بوانا داودي الذي ذكر أنه سيكتب في كتابه أن أهل مانيوما ذوو جمال باهر.

كانت أصوات المانيوما ولغتهم تملأ الأجواء. صحيح أنني لم أكن أفهم لغتهم، لكنها كانت رائعة الوقع على الأذن عندما تسمع صوت النساء العالي بينما يبعن الفواكه والمتاع وفي الوقت نفسه يراقبن أبناءهن ويجدلن شعورهم. كن يبعن أشياء رائعة؛ لؤلؤ حصلن عليه من محار النهر الذي يسمونه **ماكيسي**، خرز خشبي وزبادي. وكذلك كن يبعن ثمار البابايا والجوافة الكبيرة الوردية والخيار الخشن، جميعها مرتبة بشكل رائع يسرّ العين. ومن إحدى الزوايا كانت تنبعث رائحة اللحم المشوي الزكية.

تبضعنا وتسوقنا وملأنا بطوننا. وبينما كنا نهمّ بالمغادرة وكلنا رضا بما تسوقنا، رأينا رجال دوغومبي يحملون أسلحتهم ويمرون بجانب بوانا داودي دون أن يسلموا عليه. قال آمودا إنه سيسألهم عما كانوا يفعلون بأسلحتهم في السوق. أمسك بوانا داودي يد آمودا وقال: "هذا ليس شأننا. دعك من ذلك، فأنا لا أحب مناظرهم".

وبينما نغادر سمعنا رجلًا يتشاجر بصوتٍ عالٍ. كان أحد الرجال قد استولى على طير في السوق وكان يتجادل مع المرأة التي كانت تبيعه. بدأت

المرأة تصرخ من فعلته تلك، فما كان منه إلا أن رمى الطير على الأرض وضربها على وجهها بعقب مسدسه. ومع صراخها صرخ كل من آمودا وسوزي.

وبينما كانا متجهين نحوها، أوقفهما صوت الرصاص في مكانهما. كان أربعة من رجال دوغومبي يطلقون النار من الجهة الأخرى للسوق، وسرعان ما انضم إليهم ذلك الرجل المشاكس. أطلق أولئك الرجال الخمسة النار من مسدساتهم في هذا الاتجاه وذاك الاتجاه وملأ صوت الرصاص الأجواء؛ طاطاطاطا، طاطاطاطا ومعه صراخ وعويل النساء اللواتي أخذن يركضن ومعهن أولادهن وقد رمين الفواكه والخضار وغطت دماؤهن بضاعتهن الجميلة.

أخذنا آمودا وسوزي وبوانا داودي إلى دغل غير بعيد رأينا منه - بلا حول ولا قوة - المجزرة بحق تلك النسوة المسكينات. كان النهر الذي يقع وراء السوق مهربهن الوحيد، إلا أن القوارب كانت قليلة جدًا. ومن شدة يأسهن لتفادي ذلك الرصاص، قفزن في النهر واتجهن صوب جزيرة بعيدة، وسرعان ما رأيناهنّ يختفين تحت الماء. صرخ بوانا داودي بلغته لكنني لم أفهم ماذا قال. كان الخوف من الموت يسود المكان، ورائحة الموت أيضًا، إذ ظلت المسدسات تدوي والنساء المسكينات يركضن صوب النهر لا يوقفهن إلا ذلك الرصاص عديم الرحمة.

انتهى كل شيء بسرعة كما بدأ. وحالما غادر رجال دوغومبي، حاول آمودا وسوزي وشوما مساعدة النساء اللواتي وقعن في النهر. ومن شدة ارتباكهن وجهلهن إن كانوا أصدقاء أم أعداء، قاومنهم إلى أن غرقن جميعًا.

أصر بوانا داودي بعد ذلك على أن يحصي الجثث مع آمودا والرجال. وبلغ عدد الجثث أكثر من أربعمئة، قُتلوا جميعًا في وضح النهار وتحت

أشعة الشمس التي كانت في غفلة عما حدث تحت ناظريها. كان ذلك عمل خمسة رجال مدججين بعشرة مسدسات، وفي وقت أقل من ذلك الذي يستغرقه طبخ يخنة الماعز.

عملنا ما بوسعنا لأولئك المسكينات؛ حفرنا قبورهن، أشعلنا النيران وطبخنا وأطعمنا أولادهن. لم نتمكن من عد أو دفن الجثث الكثيرة التي في النهر إلا تلك التي كانت تطفو. إن حدث ذلك.

كان بوانا داودي في حالة صدمة وذهول. اعتقدت حينها أن قلبه سيتوقف من بؤس روحه المتعبة. أخبرته أن يهوِّن على نفسه إذ كان من المؤكد أن ذلك سيقضي عليه. هكذا يموت العبيد في نهاية رحلتهم من الداخل إلى الساحل. في بعض الأحيان كانت تسقط مجموعات كاملة على الأرض ولا ينهضون أبدًا. يموتون، هكذا.

قامت أمي، ظافرين، برحلة مشابهة لتلك عندما كانت فتاة. كانت رحلتها من منطقة في الداخل قريبة من نوبيا. وكما قالت لي، لم ينهكهم المشي طوال الطريق، بل إن ما أنهكهم حقيقة هو كسر قلوبهم عندما علموا أنه - وبعد مشي كل تلك الطريق إلى باغامويو وهم يحملون أنياب العاج الثقيلة على رؤوسهم وندوب السياط على ظهورهم وعلامات العبودية على رقابهم - لن يعودوا أدراجهم، بل كانت أمامهم رحلة إجبارية أخرى عبر النهر إلى السوق في زنجبار حيث سيباعون.

عندما وضعوا أحمالهم وأدركوا أن لا عودة، ماتت قلوبهم في صدورهم. لقد انفطرت قلوبهم. المويو التي في صدورهم انكسرت هكذا، باغا! ولهذا السبب يسميها كل العبيد باغامويو، لأنها المكان الذي تنفطر فيه القلوب.

أنهك الغضب الشديد بوانا داودي. بدأ دوغومبي يشيع بأن رجال بوانا داودي آمودا وشوما وسوزي هم من افتعل الشجار الذي أدى إلى إطلاق

النار. لم أرَ في حياتي بوانا غاضبًا أكثر مما كان عليه حينها. مجرد التفكير في أن دوغومبي يقتل كل أولئك الناس ومن ثم يحاول تغطية فعلته تلك بإلصاقها باسم بوانا داودي الطيب ورجاله، جعله في حالة غضب لا يمكن تصورها، خاصة أنه لم يكن بوسعه فعل شيء. فقد كان لدى دوغومبي رجال أكثر منه بكثير، نفدت مؤونتنا تقريبًا.

كانت تلك بداية نهايته. لقد انفطر قلبه واعتل. باغا! ورغم أنه عاش شهورًا عديدة بعد ذلك حتى مات، لكنني أظن أن كل شيء بدأ في مانيوما. فهو في الواقع لم يتعافَ من آلام ومآسي ذلك اليوم.

4

عقوبة علنية لشيرانغو لسرقته الخرز، خمس عشرة جلدةً؛
تقليص حمولته إلى 40 رطلًا، تكليفه بنظم
خرز أبيض وأزرق في خيط... حليمة هي من أبلغت
عن شيرانغو، عندما عرض عليها خرزًا للقماش
من النوع الذي علمت أنه لم يخرج من الأمتعة بعد.
كان ذلك دليلًا على أمانتها، لكنها تملك لسانًا سليطًا.

ديفيد ليفينغستون، **(مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).**

بعد مذبحة نساء مانيوما المسكينات في نيانغوي، ضاق صدره للوصول إلى يوجيجي، حيث تنتظره مؤونته ومخازنه. وكانت تأتي من زنجبار، عبر باغامويو، ويفترض أن تبقى في يوجيجي. بعد ما رآه في نيانغوي، بات في أمسّ الحاجة لها. فقد نفد ما عنده من الورق واضطر إلى الكتابة على الكتب القديمة باستخدام عصير التوت.

تحسّر على الورق أكثر من أي شيء آخر، لذا يمكنك أن تتخيل حجم خيبته وصدمته. عندما وصلنا إلى هناك، وجدنا مؤونته جميعها تعرضت

للنهب من ذلك العربي الوغد شريف، الذي عُيّن مسؤولًا عنها ريثما يأتي بوانا داودي لأخذها. سرق كاللص كل شيء، حتى الورق، الذي لم يكن في حاجة إليه. ظل بوانا داودي يقول: "لم يوفر حتى الورق، ولا حتى الحبر!"

وما يضيف الملح على جرح بوانا داودي، هو أنه في كل يوم كنا هناك، عالقين غير قادرين على الحركة، كان عليه أن يرى شريف يختال في ثياب بوانا يسلّم ويتبسّم منافقًا. يسلّم وينحني طوال اليوم بعد أن سرق من بوانا داودي. كان الوغد قاطع الطرق يحمل غلّ الأفعى، فالأفعى تلدغ حتى ما لا تريد أن تلتهمه. محظيّته تخاتلت وتمايلت أمامنا، مرتدية الثياب الأمريكانية التي تعود ملكيتها لبوانا. كان كل ما عساي فعله هو أن أحمل نفسي على ألا أمزقها عنها، تلك العاهرة اللصة!

قلت لبوانا داودي: "يجب أن نرسل فرقة لتضرب شريف ذاك ومحظيته أيضًا. سيودّ آمودا ذلك، مؤكد، وأنا أرغب في أن أكون بينهم أو حتى أن أقودهم إذا ما لزم الأمر. سأهرسهما هما الاثنين كما لو كانا جذور الكسّافا في طاحونتي". لكن بوانا داودي قال فحسب: "يجب أن أتحلى بالصبر، يا حليمة، عليّ كمسيحي أن أفعل ما كان المسيح ليفعله لو كان هنا".

لكن لو أردتم رأيي لقلت إن المسألة أكبر من ذلك، فبوانا داودي لا يتوانى عن ضرب رجل عند الضرورة. ففي ذاك الشهر، أمر بضرب شيرانغو لسرقة الخرز الأزرق من الحمولة التي لم تُفتح بعد. تلقى خمس عشرة جلدة بالسوط، شيرانغو، وبعد ذلك صلى الطبيب لكي يصلح شيرانغو نفسه، رغم أنه إذا لم يصلحه السوط، فلن تصلحه الصلاة، لأن آمودا يضرب بيد ثقيلةٍ، أشهد على ذلك.

إذا ما كان هنالك شيء يستطيع رجلي فعله بخفة كما يبني كوخًا أو يعبر نهرًا، هو أن يضرب رجلًا، وامرأة أيضًا - كما أعرف حق المعرفة - حين

يسرف في الشراب، على الرغم من كونه محمديًا. لكن لحسن حظي فإن جميع ندوبي تحت ثيابي حيث لا يستطيع أحد أن يراها، وليست كالمسكين شيرانغو، الذي تعرض إلى ضرب أشد من كل ما تعرضت له.

إذًا ليست رقة القلب هي ما منع بوانا داودي من ضرب شريف. بل لأن بوانا داودي كان يخشى أن يحضر شريف تجار العبيد وينقلبون ضدنا، أنا متأكدة، وعبد الله سوزي قال ذلك أيضًا، ولا بد أن يقول ذلك، فقد أمضى برفقة بوانا داودي طويلًا. لهذا لم ينتقم بوانا داودي من شريف.

لم نكف عن الشعور بالمرارة من جراء خيانة شريف إلا بعد أن أتى بوانا ستانلي إلى يوجيجي، وأنقذ البوانا والجميع. أنا متيقنة إلى أبعد الحدود أن المخاوف التي منعته من التعامل مع شريف هي ذاتها التي جعلت بوانا يحرر داغامبي دون أن يعاقبه على كل كذبه.

لكن كما قلت، لا يتوانى بوانا داودي عن عقاب من يستحق. يلومني شيرانغو على ضربه، وأعتقد أنه محق. لقد حاول أن يبيعني الخرز الأزرق من الحمولة التي لم تفتح بعد وقماشًا من لفة جديدة، شيرانغو فعل ذلك. أحب أن أزين نفسي بقطعة أو اثنتين، لا أكذّب في ذلك، لكنني لا آخذ ما ليس لي. لذا أخبرت بوانا داودي عن الأمر، فقال إن شيرانغو يجب أن يجلد خمس عشرة جلدة بالسوط على يد آمودا.

فقدَ عينه أيضًا، شيرانغو، عندما التفت إلى الجهة الخاطئة بينما كان آمودا يجلده، فسقط السوط على وجهه بالكامل. نزفت عينه وتورمت بشدة.

عرض البوانا أن يعالج العين، وعندما رفض شيرانغو، أمر الرجال أن يمسكوه بينما يضع مرهمًا عليها بالقوة. وهو بين يدي آمودا وسوزي يثبتانه، قاومهما كثيرًا، بينما أخفض شوما وجون ويترايت رأسه إلى الأسفل بالقوة. عندها دهن بوانا داودي شيئًا في عينه، وظل شيرانغو يقاوم الرجال.

استمر الأمر على هذا النحو لأسبوع كامل، الرجال يثبتونه وشيرانغو يصرخ بحرقة، يمسكه شوما ومبروكي أولًا، ثم سوزي ومونياسير، ثم كاروس فرار وتوفيق علي، أحد أقوى الباغازي، ذو عضلات منفوخة، دون أونصة واحدة من الدهون. كان الرجال يمسكونه بحيث يستطيع بوانا داودي أن يعالج عينه، إلا أنها لم تفتح بعد ذلك. ثمة ندبة اليوم، والمنظر لا يسرّ؛ فعينه تنتفخ نحو الخارج كما لو أن هناك ليمونة تحتها. لأيام وأيام، كانت تنزّ خليطًا من الدم والقيح بشع الرائحة، ما جعل الرجال يتفادونه أكثر من ذي قبل.

لأيام بعد جلده، كان يتجول بعينه التي تنز، وهو يدمدم بأن آمودا وبوانا داودي قد أعمياه، وأن الرجال ساعدوهما. لكنه بعد ذلك تغير وركع أمام البوانا، ثم أمام آمودا، وأعلن ندمه. لكن لو أردتم رأيي، لقلت إنه لم يعنِ حرفًا مما قال. تشعر أن في تصرفاته الجديدة شيء من الإذعان والرضوخ.

حتى أدنى العبيد في بيت الوالي لم يتصرف بهذا الشكل. بدأ يدعو نفسه (شيرانغو ذو العين الواحدة)، ويضحك عندما يقولها. لكن بصوتٍ خالٍ من البهجة.

رغم أنه بذل ما في وسعه ليتزلف لهم، إلا أن الرجال لم يتغيروا إزاءه. كلّموه بفظاظة، بجمل قصيرة وأوامر خشنة، كما لو أنهم يتعاملون مع كلب. ولا عجب، كان وجهه كئيبًا، لكن عينيه قاسيتان، ويتعتع ندمًا بصوت أشبه بسكين حادة.

جعلني أشعر كما لو أنه فرخ دجاج منتوف تُرك طويلًا دون طهو، بحيث أنكِ عندما ترى اللحم الأبيض تعتقد أنه سليم من الداخل، لكنك عندما تشقه تجده مخضرًا ومليئًا باليرقات، والرائحة تثقب أنفك كما لو أن حجارة وقعت على رأسك، لو رأيت في حياتي امرئًا مليئًا باليرقات لقت إنه شيرانغو.

لم يكن بين الجماعة الأصلية من الرجال، التي كانت تتألف من سوزي وشوما وآمودا. ولم يكن كذلك بين الجماعة الكبيرة التي تبعت جماعة ناسيك بعد رحيل بوانا ستانلي.

كان بين الرجال الذين تركهم بوانا ستانلي خلفه، إلى جانب رجل تاويكا، مبروكي. ولو أردتم رأيي، لقلت إن بوانا ستانلي كان مسرورًا لأن شيرانغو آثر البقاء على العودة إلى الساحل معه.

وحتى قبل الجلد بالسوط، رأيته أكثر من مرة ينظر إلى بوانا داودي بوجه لا يحمل الود. انتبهوا لكلامي، لقد قلت لميسوزي، إن شيرانغو يجهّز لفعلة ما. رغم أنهم لن يصدقوني، لأنني، كما يقولون، أوه يا حليمة، أنت تثرثرين كثيرًا. حسنًا، ربما أتكلم كثيرًا، لكن ما في رأسي أكثر من لسان فحسب. لديَّ عينان أيضًا، وما تقولانه لي هو أن شيرانغو عازم على فعل السوء.

5

ذكرني الطبيب أيضًا بأن

مخزونًا من حلوى الجيلاتين والبسكويت المقرمش، والصابون، والسمك، ولحم الخنزير المعلب

إلى جانب الجبن، في انتظاره في يونيانيمبي،

وأنه سيسرّ لمشاركتها؛ أحب خيالي أن يبحر في ترف الحياة في يويانيمبي.

تصورت نفسي ألتهم اللحم والمقرمشات وحلوى الجيلو مثل مخبول.

عشت على خيالاتي الهاذية. عقلي المشوش المسكين

أثارته هذه الأشياء البيتية كالخبز والزبدة،

واللحم المعلب، واللحم المقدد، والكافيار، واعتقدت

أنها أشياء لا تقدر بثمن...

فكرت لو أن رغيفًا من خبز القمح يقدم لي إلى جانب

قطعة من الزبدة الطازجة، لكنت قادرًا،

ولو على فراش الموت، على أن أقفز وأرقص الفانداغو بجنون.

هنري مورتون ستانلي، (كيف وجدت ليفينغستون).

وصل بوانا ستانلي في اللحظة التي بدأت فيها أفقد الأمل بمغادرة يوجيجي، إذ لم نكن نملك أي مؤونة للرحلة. منذ أن اكتشف بوانا داودي خيانة شريف، أراد أن يبعث رسلًا إلى باغامويو، ليبلغوا زنجبار بمكاننا، لكننا لم نكن نملك أي شيء لندفعه مقابل ذلك.

ولم يكن بمقدوره الاستغناء عن آمودا، أو سوزي، أو شوما، إذ لم يكن سواهم وأنا من كان برفقته وقتذاك. فحينها، لم يكن فتيان ناسيك ومبروكي وشيرانغو وبقية الباغازي قد انضمّوا إلينا. لذا كنا نحن فحسب، إلى جانب ميسوزي، التي اختارت أن تعجب بسوزي. لم يكن هناك أحد لإرساله.

في غمرة يأسه، ظن بوانا داودي أن على مجموعتنا الصغيرة أن تنطلق إلى يونيانيمبي، حيث هناك مؤونة في انتظاره. ورغم أن آمودا وسوزي ضغطا عليه لاتخاذ هذا الطريق، إلا أنه مع ذلك لم يرغب في الذهاب، لأن ذلك يعني أن يكفّ عن البحث عن ينابيعه العزيزة.

كان أهل يوجيجي طيبين معنا، أعترف بذلك. كانوا يعرفون بوانا داودي من رحلته السابقة، ويعلمون أنه إذا قال إن بضاعة قادمة فستأتي بالفعل. في ذلك الوقت، أطعمونا رغم أننا لم نكن نملك ما نقايضهم به، وساعدناهم بدورنا ما أمكننا.

ثم، في أحد الصباحات، بعدما قرر بوانا داودي أخيرًا أن ننطلق إلى يونيانيمبي وقالت ميسوزي إنها ستأتي معنا، لم يصدق عندما هرع سوزي إلى حيث كنا نجتمع لتناول الإفطار، والتقط أنفاسه قائلًا: "رجل إنكليزي! رأيته!"

اندفع عائدًا قبل أن نستوعب كلماته. وخلال وقت قصير، عاد يقود فرقة كبيرة. ويا لها من فرقة! خلف سوزي، جاء رجل موزونغو قصير

القامة وحول وجهه شعر كثيف يكاد يغطي بشرته. لم أستطع الكف عن النظر في عينيه. فعلى عكس بوانا داودي، كانتا بلا لون كما لو أنهما عينا شبح، ورغم أن الفكرة كانت مخيفة، إلا أنه كان من الصعب أن أبعد نظري. وخلفه جاء باغازي بعد باغازي، وأكثر من عشرين عسكري يحملون مسدسات وبنادق لامعة، ليس عليها ذرة من الغبار. قال بوانا داودي: "إنه رحالة ثريّ".

أوه، الأشياء التي كانت معه، أكوام وأكوام من البضاعة، رزم ورزم من القماش، سلاسل طويلة وطويلة من الخرز، ولا أعلم ماذا، إلى جانب علبتي قصدير، وغلايات ضخمة، وأوعية طبخ، وخيم. سار باتجاه بوانا داودي وصافح يده وألقى تحية. في هذا الوقت، كان أهل يوجيجي قد جاؤوا جميعهم ليشهدوا اللقاء. سوزي ترجم كلماته لنا وقال إنه موزونغو يدعى بوانا ستانلي وقد قطع كل تلك المسافة ليجد رفيقه.

قال لنا سوزي إنه قال لبوانا داودي: "لا بدّ أنك بوانا داودي".

حسنًا، هذا أغبى ما سمعت في حياتي، قلت لسوزي، بالطبع لا بد أنه بوانا داودي. كان الموزونغو الوحيد بين حشد كبير من الناس الذين ليسوا وازونغو، أليس كذلك، فمن يمكن أن يكون لو لم يكن هو؟

حيَّاه بوانا داودي بحرارة، وكان في غاية البهجة مثل دجاجة نجت من الطبخ، رغم أن بهجته كانت من النوع الهادئ، على عادته. كان ينادي بوانا ستانلي بالأمريكانو، وهو ما اعتقدت أنه نوع من القماش، ولكن ما كانت تعنيه الكلمة هو أن بوانا ستانلي قد جاء من أمريكا، المكان نفسه الذي يأتي منه القماش الأمريكاني. قماش ممتاز، رغم أن فيه بعض القساوة.

كان بوانا ستانلي يحمل أشياء غريبة معه، مثل الشمبانيا، نوع من الماء الذي كان يتلألأ ويبقبق عندما يشربه هو وبوانا داودي من كؤوس فضية

كبيرة. ترك لي فرج الله كريستي الذي كان طباخ بوانا ستانلي بعضًا منه لأجربه. بقبق عند أنفي وجعلني أعطس. عندها أخبرني أنه **هونغورو** وأنني تناولت شرابًا سامًا، التيس القذر! قلت في نفسي الأفضل ألا أخبر آمودا، وشربته.

كان بوانا ستانلي يفضل أن تكون أغراضه مرتبة، يمكنني أن أقول ذلك، كما لو أنه في بيته. كل أسبوع كان يغتسل في أحد أحواض الاستحمام الكبيرة المصنوعة من القصدير. عندما كان هو وبوانا داودي يأكلان، كان يأمر فرج الله كريستي، وخادمه الآخر كاروس فرار، بأن يمدّا طاولة بالقماش والفضة. كانا بارعين في ذلك، مثل جاكوب وينرايت والآخرين، الذين كانوا في مدرسة ناسيك في الهند، حيث كان العبيد المعتقون يتعلمون الكلام والتصرف كالإنكليز، لكنهما غادرا منذ بضع سنوات.

بعد أن غادرنا بوانا ستانلي، بدأ ماجوارا يفعل تلك الأمور لبوانا داودي أيضًا، فقد أعجب كثيرًا بفتيان ناسيك وأراد أن يكون مثلهم. قال له بوانا داودي: "يجب أن أخبر البوانا الصغير، في رسالتي التالية، أنك ما زلت تحافظ على تنسيق كل شيء. مثل ساقٍ إنكليزي".

قال لي آمودا إن الساقي هو الشخص الذي يحضر الأشياء إلى المائدة، كما لو أنني لا أعرف! باستطاعتي أن أقول له كل شيء عن الذين يجلبون الطعام إلى المائدة، ألم يكن لدينا الآلاف من هؤلاء، المخصيين والسقاة والبقية جميعهم، في بيت الوالي، وفي بيت القاضي أيضًا بعده؟ آه، لكنه كان رجلًا لئيمًا، القاضي، كل ما يقوله "النبي قال هذا" و"النبي قال ذلك" و"صلوات الله وسلامه عليه"، لكنه كان خاليًا من البركة. لم يكن يسمح بإعطاء حتى قصعة من الخبز إلى المتسولين العميان في فوروداني. من الخير أنه مات وباعني ابنه، وبقيت هناك سبعة أشهر فقط.

كان الناس في بيت الوالي في زنجبار يجلسون ليأكلوا من صحون ذهبية وفضية. كانوا يأكلون طعامهم من أطباق يتناولونها من سفرة طويلة تمتد على طول الغرفة تقريبًا، مغطاة بأطباق من الطعام بحيث لا يكون بإمكانك أن تتبين نوع الخشب المصنوعة منه. هناك أوعية وأوعية من لحم الضأن المطبوخ بالزنجبيل والأرز المسلوق في مرق الدجاج، والأرز المطبوخ بعصير الطماطم، والأرز المطهو مع لحم العجل والسمك، إلى جانب الخضار والدجاج أيضًا، ولكل احتفال خاص هناك أرز مطبوخ بالقرنفل والكزبرة والهيل والقرفة والزبيب.

كان هناك عصائر مصنوعة من التمر، وعصائر من العسل والتمر الهندي، وهناك القهوة، أوه، كانت منكّهة ومعطرة، وتستطيع أن تشم رائحتها على بعد أميال... أفخر أنواع القهوة، من الجزيرة العربية والحبشة. والبهارات، كانت من كل حدب وصوب؛ الكاسيا والقرنفل، وجوز الطيب والقرفة، والهال والزعفران، وفلفل من شتى الألوان. ورغم أنه لم تكن هناك سوى وجبتان رئيستان، واحدة في الصباح والأخرى عند غروب الشمس، كان بين الوجبتين هناك قهوة وشاي وعصير الليمون والماء المحلى، والكعك والفواكه. وهناك خبز وحلويات أيضًا، وفطائر شديدة الحلاوة حتى إنها تؤلم الأسنان، وحبّ الرمان.

أشعر بطعم شهي تحت أضراسي كلما تذكرت حبّ الرمان ذلك. كان من بلاد الرافدين، وردي مليئ بالعصارة ومقرمش، أشهى ما تتناوله في يوم حار، بين رشفات من ماء بارد يروي العطش، لأنه كان يحفظ دومًا في ظل أكثر الأركان برودة في المطبخ.

كان مطلوبًا مني أن أساعد أمي ظافرين في توزيعه على جميع النسوة في حرم الوالي، بيد أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من رمي بعضه في فمي

بينما أشق طريقي سريعًا لأتركه في غرف النوم. ورغم أن أمي ظافرين كانت توبخني، كانت تتحقق على الدوام من أن هناك ما يكفي منه في الأوعية بحيث لا ألتهمه كله قبل أن تصل إلى وجهتها.

كنت أتضور جوعًا لمجرد التفكير في كل ذلك الطعام. "وفوق ذلك..." صحت في وجه آمودا، "في بيت الوالي لم يكن هناك نمل يتمشى جيئة وذهابًا فوق الطعام بينما الناس يأكلون، تخيل ذلك!"

وأضفت: "ولا ذباب يحوم ويئزّ حول أفواه الناس بحيث تخشى أن تبتلعه مع طعامك".

قال: "أغلقي فمك قبل أن أصفعك صفعة تخرج بيت الوالي من قحف رأسك!"

فررت بكل سرعتي قبل أن يستطيع لطمي.

6

حليمة، الطباخة في فرقة بوانا داودي،
كانت تخشى ألا يكون الطبيب مقدّرًا
لمهاراتها في الطهي؛ لكنها الآن تقف مذهولة
أمام كمية الطعام الهائلة التي أُكلت، وكانت في قمة البهجة...
تلك الروح الطيبة المخلصة! عندما كنا نستمع
إلى ثرثرتها المهتاجة، كان الطبيب يذكر خدماتها المخلصة.
ويقول: "لقد فتحتِ شهيتي".
"حليمة هي الطباخة، لكنها لا تعرف الفرق بين الشاي والقهوة".

هنري مورتون ستانلي، **(كيف وجدت ليفينغستون)**.

سأكون أول من يقول إنه عندما قال بوانا ستانلي إنه يفضل طعام طباخه الخاص، فرج الله كريستي، لم أشعر بالإهانة. وهذه هي الحقيقة، مهما كان ما تقوله تاويكا وميسوزي.

كما أن آمودا هو قائد بعثة بوانا داودي، لدى بوانا ستانلي رجل عملاق هائل، أسود كالسخام، له أسنان تبرز من بين شفتيه، يدعو نفسه بومباي،

رغم أن اسمه الحقيقي هو سيدي مبارك. بدا لي أن بوانا داودي ليس الموزونغو الوحيد الجوال في العالم. فهناك الكثير منهم، وجميعهم يبحثون عن منبع نهر النيل، وكان بومباي يعرفهم جميعًا. قال إنه سافر إلى كل مكان، يرتحل مع موزونغو بعد آخر، مع بوانا بورتون وبوانا غرانت وبوانا سبيك، الأحب إلى قلبه.

قال إن كل ما يريده قبل أن يموت هو أن يزور قبر بوانا سبيك.

بومباي هذا أخبرني ذات يوم أن بوانا داودي أخبر بوانا ستانلي كل شيء عني، وكيف أني لا أميز بين القهوة والشاي، ورغم أن بومباي لم يضحك، إلا أن فرج الله كريستي كان يتبسَّم. سوزي غمزني، بُورك قلبه الطيب، لكن آمودا ضحك ضحكة مجلجلة. هكذا هو رجلي، مستعد لأن ينضم إلى أي رجل يسخر مني، وأن يبدأ بالسخرية لو لزم الأمر.

ذهبت إلى بوانا داودي على الفور، رغم أنه كان موعد اغتساله وكان يجهز نفسه للذهاب إلى النهر، لم أدعه يغادر كوخه، وبالفعل، قلت له، نسيت أنني كنت ابنة الطباخة في مطبخ الوالي والتي كانت أيضًا سُرّية في حريمه، وكان لدينا جميع صنوف الشاي، أستطيع أن أقول لك ذلك بالطبع، الشاي المقدم مع النعنع والقرفة، والقهوة أيضًا، التي لم تشمّ مثل رائحتها يومًا، كانت من الجزيرة العربية، ومن الحبشة أيضًا.

كان عمانيًا من الدرجة الأولى، أليس كذلك، قلت لبوانا داودي، رغم أنه كان قبيحًا، الوالي، لكنه كان رجلًا مهمًا يملك دارًا في شانغاني، تطفح مخازنه بالحرير والبهارات والعبيد وشتى أنواع الشاي والقهوة وكثير غيرها. أكثر ما يستطيع المرء فعله هنا هو أن يميز بين الأغراض المكدسة فوق بعضها بعضًا في علب الصفيح تلك، هذا ليس مطبخًا فعليًا، هذه الأدغال والغابة، وهذه النار البدائية المشتعلة بين أحجار ثلاثة.

وقلت له، أمي التي كانت سرية والي السلطان وطباخته أخبرتني أن هناك أناسًا في عمان، من ساكني البرية، يعيشون في الجبال، ويستطيعون أن يطبخوا الدجاج أو حتى تيسًا كاملًا كما لم ترَ في حياتك دون أن يضيفوا له شيئًا سوى الملح، لكنني لست ساكنة جبال من عمان، لست كذلك، أنا حليمة فحسب، وأكبر من استطاعتي إعداد وليمة من بعض الحجارة والملح ولا شيء غير ذلك. ضحك وقال: "حليمة، لكنك تملكين لسانًا سليطًا"، وظل يضحك وهو ينزل ليغتسل في النهر.

ذهبت خلفه وأنا أصيح، تستطيع أن تقول ما تريد عن لساني، ولن تكون الأول ولا الآخر في ذلك، هكذا أنا، لساني هو لساني، لكنني لن أسمح لأحد أن يسلب مني شخصيتي، لا بوانا ولا غيره، ولا أحد، ما دمت ابنة ظافرين. لا أعرف الفرق بين الشاي والقهوة حقًا!

لكن، رغم أنه شارك آمودا في السخرية مني، كان يعرف كيف يطبخ، فرج الله كريستي، ولن أحسد أحدًا على مهاراته عندما تكون واضحة، وفوق ذلك، كان يشارك ما يعرفه، وهو ما لا يفعله معظمهم، وخصوصًا الرجال. كان يعرف تمامًا ما يفعل، ويستطيع أن يطبخ السمك مثل أي طباخ ماهر من عمان نفسها، وذلك لأن بوانا ستانلي مهووس بالطعام، أؤكد لكم ذلك.

أخطأ بوانا داودي وأخبره أن هناك كثيرًا من الطعام في انتظاره إلى جانب المخازن التي تركها في يونيانيمبي. بعد ذلك، لم يستطع بوانا ستانلي أن يفعل شيئًا سوى التكلم عن المؤن في يونيانيمبي. كان يتكلم عن ذلك الطعام أكثر مما كان بوانا داودي يتكلم عن النيل. هذا كل ما فعله، أن يأكل ويتكلم ويتكلم ويأكل. كان يأكل ويتكلم، وكان يتكلم ويأكل، ويأكل ويتكلم. سمعت، منذ أن كنت صغيرة، أنني أتكلم كفاية عن الجميع، لكن بوانا

ستانلي ذاك ليس سوى لسان متحرك، وعندما لا يجلد به الباغازي، كان يتكلم ويتكلم مع الطبيب، يتكلم كثيرًا حتى آخر الليل.

أخبرنا رجله بومباي: "هناك الكثير ليتكلم عنه. كان البوانا خارج العالم لست سنوات وقد حصلت أحداث كثيرة هامة في ذلك الوقت".

عندما كنا نجلس في الليل حول النار مع البوانا الاثنين وهما يتحدثان، أخبرنا بومباي عن بعض الأحداث التي حصلت في تلك البلاد البعيدة. لم أستوعب منها شيئًا تقريبًا. لقد حفروا في أرض مصر ليصنعوا ممرا في البحر الذي يصل إنكلترا، التي أتى منها البوانا، إلى الهند، التي ينتمي إليها عسكريو بوانا الكسالى - الذين يسميهم الجنود الهنديين - وفتيان ناسيك.

أراد شوما، الذي يحب أن يرسم خطوطًا وخربشات على ورق يسميه خرائط، أن يعلم الموقع بدقة ليرى إذا ما كان يستطيع رسمه. قال لي وعيناه تبرقان: "إنها أخبار رائعة. أعظم خبر على الإطلاق. يعني أنه لم يعد هناك داعٍ لأن ندور حول الرأس لنصل إلى الهند".

"نحن" حقًا! كما لو أنني درت حول الرأس في حياتي، أو حتى أريد أن أفعل شيئًا كهذا. الالتفاف حول الرأس. أستبعد أن أدور حول أي رأس. لو كانت مرافقة فتيان ناسيك وأولئك الجنود الهنديين حسنة بالأساس، فإنهم لا يعرفون معنى أن يعمل المرء في الهند، خذوا الكلام مني. الهند لا تناسبني. عندما جاء البوانا من الهند، كان معه عدد ضخم من أولئك الجنود الهنود، وكان عليهم أن يسيروا معه، ثم يتلقون أجرًا مضاعفًا فوق ذلك، لكن هل ساروا؟ هل ساروا؟

تخلوا عنه عندما وصلوا إلى أقرب مستعمرة، ألم يفعلوا ذلك؟ وساروا عائدين إلى الساحل. ثم عادوا إلى الهند، لا ريب في ذلك، دائرين حول الرأس وغيره، وكان من الخير لهم أن يبقوا لو كانوا يعلمون حقًا ما هو خير لهم،

ويمكن أن يبقوا هناك طوال حياتهم ويدورون حول الرأس متى شاؤوا.

قال بومباي إن هناك أخبارًا أخرى. كان هناك رئيس جديد في أمريكا، رجل يدعى غرانت. سألته إذا ما كان هو بوانا غرانت نفسه الذي سافر معه مبروكي، رجل تاويكا. كانا صديقين مقربين، بوانا غرانت ذاك وبوانا سبيك، إلى أن فجر بوانا سبيك رأسه بعد عودته إلى هنا بحثًا عن منبع النيل. لم يكن غرانت نفسه، هكذا قال بومباي، وعندما سألت ما الرئيس، قال لي إنه رجل يختاره الناس، قائلين له: "والآن، نريدك أن تكون سلطانًا علينا".

في أمريكا تلك التي جاء منها بوانا ستانلي، وحيث كان فيها سلطان يدعى غرانت، كانت هناك حرب عظيمة استمرت لسنوات وسنوات، وكانت كلها حول العبيد. أردت أن أعرف المزيد عن هذه الحرب ومن فاز بأكبر عدد من العبيد، وماذا كانوا يزعمون أن يفعلوا بكل أولئك العبيد الذين يملكونهم، لكنهم تابعوا الحديث عن ذلك الممر المائي في مصر. سويس، سويس، ظلوا يسمونه ذلك، لأن ذلك كان اسمه. اسم في قمة السخافة، لو أردتم رأيي. إذا أراد المرء أن يسمي شيئًا، فلماذا يمنحه اسمًا لا معنى له على الإطلاق؟ وأيضًا، لا اسم من أسماء المازونغو جميعًا له أي معنى.

كان ذلك يصيب رأسي بالصداع، أن أسمع عن كل تلك الأماكن الجديدة. إلى جانب الهند، التي يقول فتيان ناسيك إنهم قدموا منها، رغم أنهم يبدون مثلنا؛ والحبشة والجزيرة العربية موطن قهوة الوالي؛ عمان ومسقط، حيث يعيش السلطان؛ ومكة حيث يذهب المحمديون للصلاة؛ شركيسيا، حيث تأتي معظم سُرّيات السلطان؛ وكل الأماكن التي نجلب منها الطعام والبهار، كالملايو وبلاد الرافدين، وآسيا وإنكلترا تلك التي ينتمي إليها بوانا داودي، لم أسمع بأي بلاد أخرى.

طوال تلك الأشهر الأربعة التي أمضاها بوانا ستانلي معنا، ونحن نصغي إلى بومباي يحكي لنا قصصه كل ليلة، انتابني شعور غريب، أقول لكم، عند التفكير في أن هناك الآلاف والآلاف من البشر كالبوانا، والنساء أيضًا، يعيشون حياتهم بعيدًا في إنكلترا، وفي أمريكا أيضًا، دون أن يعلموا شيئًا عن حياتنا.

ثم هناك بشر في الهند، جميعهم هنود مثل جنود البوانا الكسالى، أو صلب وأقوياء مثل جاكوب وينرايت؛ ثم هنالك بشر في مصر وبشر في تلك البلاد؛ أمريكا، حيث ينتمي بوانا ستانلي، جميعهم يعيشون حياتهم دون أن يعلموا شيئًا عنا. جعلني ذلك أشعر بأنني صغيرة وذابلة، أقول لكم، مثل حبة زبيب في سقيفة بيت الوالي، أن أسمع عن كل تلك البلاد والبشر الذين لا يعلمون شيئًا عنا.

ولم أكن أستطيع ببساطة أن أفهم كيف من الممكن لأي بشر أن يختاروا سلطانهم. ذلك أمر عادي، قال بومباي، فالناس الذين يعيشون في البلاد المجاورة لبلاد بوانا داودي قد قطعوا رأس السطان، ورأس زوجته أيضًا، وجميع أبنائهما. عندما تصورت أحدًا يقطع رأس برغش بن سلطان، أو حتى رؤوس زوجاته ونساء حريمه، شعرت أن رأسي يتيبَّس من التفكير، أقول لكم، كما لو أن رأسي يُهيأ للجز.

سألت أمي مرة: "كيف يكون السلطان سلطانًا؟"

قالت لي: "توقفي عن الكلام، السلطان هو السلطان".

فكرت مرة أن أسأل الوالي نفسه. بعضهم قال إنه أبي، بما أن أمي كانت سُرّيته وقد ولدت لأكون من الرقيق، لكن هذا كان بعيد الاحتمال، ولا فرق عندي ألا أعرف من هو أبي، أؤكد لكم ذلك، خصوصًا إذا كان من المحتمل أن يكون الوالي. تخيلوني وأنا ابنة أب كهذا! ربما كان عمانيًا من

الدرجة الأولى، بيد أنه كان قبيحًا مثل أسفل تنور تحت الأرض، وكانت تنبعث منه على الدوام رائحة البهارات الحارة، والعرق القديم، والنفايات المحروقة.

كان طيبًا فعلًا، الوالي، أستطيع أن أقول ذلك عنه. كان كلما لقيني، أتنقل من مهمة إلى أخرى، وأقف لأسأله بعض الأسئلة، ينقر ذقني بلطف ويقول لي أن أذهب إلى عملي التالي وألا أزعجه. ذلك أكثر ما أفتقده من بوانا داودي. فإذا ما سألته سؤالًا كهذا، فسيجيبني على الفور، حتى لو لم أفهم دومًا. ربما لا أفهم كل شيء، لكنه سيجيب على كل حال. لكنه لا يستطيع أن يجيب على أي سؤال حيث هو الآن، الرجل المسكين، أينما يكون الآن...

7

كان الرجل الذي رافقنا إلى الشلالات
مفتونًا بالنساء. كل فتاة جميلة يراها تملأ قلبه بالغبطة.
"اوه، ما أجملها! لم أرَ أجمل منها في حياتي؛
أتساءل ما إذا كانت متزوجة؟" وكان ينظر إليها
بكل توق وإعجاب حتى تغيب عن الأنظار. لديه أربع زوجات في وطنه،
وكان يتمنى أن يحظى بعدد أكبر.

ديفيد ليفينغستون، **(قصة البعثة إلى زامبيزي وروافده)**.

كنت متيقنة من أن وصول بوانا ستانلي سيكون بالتأكيد نهاية هوس بوانا داودي بالنيل. كان يسرّني أن أتخيل أنه عندما يستعيد بوانا داودي عافيته، سنعود إلى الساحل مع بوانا ستانلي، وكم سنكون فرقة سعيدة، فقد جاء إلينا بوانا ستانلي بوجوه جديدة، والوجوه الجديدة تجلب حكايات جديدة، والحكايات الجديدة تجلب معرفة جديدة.

من ناحيتي كنت سعيدة بالتفكير فيما ينتظرني في زنجبار. وعدني بوانا داودي بأن يعتقني ويشتري لي بيتًا صغيرًا، رغم أنني تساءلت كيف

سيكون مع آمودا. كنت امرأته في الطريق فحسب، فلديه نساؤه في زنجبار، اثنتان. لكنني مجددًا، ظننت أنه قد يرغب في أن يسافر ثانية. لم أكن سأندم على فراقه، ولا عودته إلى زوجاته، إذ يمكنه أن يضربهن بدلًا مني. لعلّهن وجدنه أحبّ إلى القلب مما وجدته، أو لعلّه كان أخفّ يدًا معهن. لم أكن سأندم على عدم رؤيته يومًا، عندما يحررني بوانا داودي كما قال، ويشتري لي بيتًا.

أفضّل أن أحظى بسوزي في بيتي، لكن حسنًا، لديه ميسوزي. وربما سيأخذني بوانا داودي أنا وماجوارا ولقيطتنا الصغيرة لوسي إلى إنكلترا معه، فهو قبل كل ذلك قد اشترانا، ونحن الاثنان وكل ما يملكه سيذهب معه أينما ذهب.

أدعو لوسي ابنتي الصغيرة، رغم أنها ليست ابنتي، إذ لم أدع جنينًا يبقى في أحشائي ما يكفي لينمو. كنت أتركهم يسقطون مني، أولادي، قبل أن يكون باستطاعتهم التنفس، وربما كان ذلك خيرًا لهم، تلك الكائنات المسكينة، فمن سيرغب في أن يُولد عبدًا؟

وجدناها متروكة على جانب الطريق قبيل وصولنا إلى يوجيجي، تلك الجثة المسكينة. كانت جلدًا وعظمًا، وتُركت لتموت من قِبل فرقة عبيد ربما. قال لي بوانا داودي: "يجب أن تصبحي أمًّا، يا حليمة، وهذه طفلة تتدربين على أمومتها ريثما يكون لك متوتو".

كم كانت بائسة! احتاجت الكثير من الطعام حتى تعافت. لم يبخل عليها أحد بطعامه، الحق يقال. حاولت أن أشرح للبوانا أنه قد يكون من سِوء الطالع أن يتخذ في بيته طفلًا ليس من لحمه ودمه، فمن يعلم أي أرواح أو أشياء أخرى قد يحضرها.

قال لي: "لو كنا على الساحل، لأرسلتها إلى مدرسة ناسيك في الهند، أو

حتى إلى إنكلترا إلى مربّيتي الضئيلة، إلى ابنتي آغنس، لكن ماذا أفعل بها إذا لم تعتنِ أنت بها؟"

أبعد عني الشكوك، وأنا سعيدة بذلك. فقد كانت نعمة وبركة، لوسي. كانت تلك طيبة قلبه. كثيرًا ما سمعته يتحسر على شيتاني المسكين، الذي نفق قبل أن أنضم إليهم. ظننت أنه لا بدّ كان طفلًا، أو ربما أحد الباغازي، لكن لا. شيتاني هذا الذي بكى عليه لم يكن سوى كلب صغير يكسوه شعر بالغ الكثافة إلى درجة أن من يراه لا يستطيع أن يميز رأسه من ذيله.

غرق في بحيرة، الجرو الصغير ذو الشعر الكثيف. كانوا يجتازون مياهًا عميقة ونسي أحد الباغازي أن يحضر المخلوق الصغير معه. سبح الجرو خلف البوانا، ليغرق قبل أن يصل إليه، فقد كانت المسافة طويلة وأرهقته السباحة. ثم أطلق بوانا داودي على البحيرة اسم مياه شيتاني. أتتصور أنه يحزن على مجرد كلب، على أحد تلك المخلوقات التي يسكن فيها الجن ويختبئ؟

وها هو قلبه الطيب مجددًا. والآن طفل، لا جرو. كيف يمكنني أن أقول لا؟ يستطيع إقناعك، البوانا، وجعلك تفعل الأشياء التي يريدها. أردت أن أسميها ظافرين، تيمناً بأمي، لكنها عندما بدأت الكلام، كل ما استطعنا فهمه من فمها كان كلمة "لوسي"، وهذا ما أطلقناه عليها.

وهكذا كنا نحن الثلاثة، ماجوارا ولوسي وأنا، لقطاء البوانا. كنت متحمسة لتخيل أن بوانا ستانلي سيجبر بوانا داودي على التخلي عن هوسه بالنيل والعودة إلى زنجبار، ثم إلى إنكلترا الشهيرة، لكن لا، كان بوانا داودي يصرّ على الاستمرار وعدم العودة. تجادلا حول ذلك، لكن بوانا داودي ظل ثابتًا على موقفه. سيستمر في رحلته حتى يسقط ميتًا إذا ما دعى الأمر.

كل ما استطاع بوانا ستانلي فعله هو أن يترك بعضًا من رجاله معنا. ورغم أنني لم أعتَد على بوانا ستانلي وعينيه التي يشبه لونهما لون الفستق المسلوق، إلا أنه كان يومًا كئيبًا يوم غادرنا، فقد أخذ معه بومباي وكثيرًا من رفاقه. تركنا وقد تقلص عددنا كثيرًا. من بين الباغازي التسعة الذين قرروا البقاء معنا، كان مبروكي وشيرانغو. ووعد بوانا ستانلي بأن يرسل المزيد من الرجال لملاقاتنا فور عودته، قال إنها ستكون فرقة أكبر من الرجال، ستأتي محملة بالإمدادات. كنا سنلاقيهم في يونيانيمبي.

8

حليمة هربت إثر شجار مع تاويكا؛ توجهتُ
إلى سلطان بن علي وبعثت بمذكرة للبحث عنها، لكنها
عادت بإرادتها، وكل ما طلبته مني هو أن أخرج
وأدعوها للدخول. فعلت ذلك، وأضفت:
"يجب ألا تتشاجري بعد الآن"...
كانت بالغة الطيبة منذ أن جلبتها من عند كاتومبو أو معين-موكايع؛
لم أضطر إلى توبيخها يومًا... سوف أعتقها، وأشتري لها
بيتًا وحديقة في زنجبار، عندما نصل هناك.

ديفيد ليفينغستون، (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

وصلنا إلى يونيانيمبي بعد مغادرة بوانا ستانلي ببضعة أشهر. لو أردتم رأيي، لقلت إن أصعب جزء من رحلته منذ أن انضممت إلى فرقته لم يكن قلة الطعام أو حتى المذبحة في مانيوما، أو أنه لم يجد المؤن في انتظاره، بل تلك الفترة التي قضيناها في يونيانيمبي، في انتظار وصول رجال بوانا ستانلي. الانتظار الممل، هكذا سماه بوانا داودي، أو الانتظار المضني.

لم يتكلم عن شيء سوى الانتظار وكم كان سئمًا من الانتظار. كان ذلك كافيًا ليجعلني نفسي أشعر بالسأم. كان يلهي نفسه بعدّ الأيام، وكم يومًا يحتاج الرجال للسير من باغامويو.

عندما لا يعدّ الأيام، كان يجلس في ظل كوخه، يكتب حول كل ما يخطر في باله، عن مجموعة من النمل ذات يوم، وألعاب الأطفال في يوم آخر. ذات مرة أتى ليقف حيث كنت أقشّر الفستق بينما كانت لوسي تحاول مساعدتي وهي تهذر. قال لي: "أرأيتِ؟ الأطفال لا يعلبون كالأطفال، لأنهم لا يمتلكون لعب الأطفال؟"

لم أعلم ما كان يعنيه باللعب وقلت له ذلك. قال لي: "أعني أن الأطفال يلعبون كالكبار. ها هم، يتظاهرون ببناء كوخ، والذهاب إلى حرب ظاهرية والقبض على عبيد. انظري إلى لوسي هنا، تلعب بالفستق، متظاهرة بأنها أنت".

قلت له: "لديَّ الكثير من العمل، ولا أستطيع أن أقف هنا لأثرثر، لذا إن لم تمانع، هل ذهبت وأثقلت على غيري؟"

ضحك ضحكته المعتادة، وهز رأسه، وذهب. وفي مرة أخرى كنت أطحن الأرز مع الدقيق وكانت لوسي مجددًا تلعب بجانبي عندما جاء وشرع بالحديث معي عن الفيلة، عن جميع الأشياء. الرجل وقف هناك يهذر عن الفيلة. الفيلة حقًّا!

قال لي: "هل تعلمين يا حليمة أن أسلافك في إفريقيا كان يدجّنون الفيلة من قبل ما كان الآسيويون يدجنونها؟"

سِألته: "لم قد يرغب الأسلاف في تدجين الفيلة؟ لا بدّ أنها تشق على التدجين، الفيلة، لأنها تأكل كل شيء يقع تحت بصرها. لماذا، في يوم آخر، في بيت الوالي..."

قال بوانا داودي: "لا تشغلي بالك، ولكن قولي لي ما رأيك في هذا، مكتوب أن بعض الأفارقة رفضوا بيع فيلتهم إلى حاكم من اليونان كان في مصر".

"هل هذه هي مصر نفسها التي فيها النيل؟" في اللحظة التي سألت فيها السؤال، ندمت، لأنني كنت أعلم أنه ما أن يبدأ الحديث في الموضوع حتى يستفيض أكثر وأكثر عن هيرودوتس هذا وهيرودوتس ذاك، لذا اضفت بسرعة: "وماذا عرض مقابل هذه الفيلة؟"

قال بوانا داودي: "بعض الأواني النحاسية".

قلت: "إذًا كانوا محقين في رفضهم".

ضحك بوانا داودي: "بالفعل. ها أنت ترين الأمر على نحو صائب. فقد ظلوا شهورًا يجهدون للإمساك بالفيلة وترويضها، أما زوجاتهم فكان باستطاعتهنّ صنع أي عدد من أواني الطبخ لوجه الله".

كانت هناك لحظات كثيرة كهذه مع بوانا داودي، ورغم أنها كانت مزعجة جدًا حينها، لأنه ببساطة لم يكن يدعني أتابع عملي، لكنني لا بد أن أعترف أنني بدأت سريعًا أفتقد حديثه الفارغ. بدأ يمرض من جديد. كان المرض يجعله يرفض الطعام، ويجعل عظامه تبرز من تحت جلده.

وكانت في تلك الأيام، في يونيانيمبي، أن شغّل آمودا تاويكا غاسلة للثياب. وما أن تعافى بوانا داودي حتى قال لها إن عليها أن تختار واحدًا من رجاله. وعندئذ ارتبطت بمبروكي.

بعد هذا الانتظار، شعرنا جميعًا بالارتياح عندما انضم إلينا فتيان ناسيك. يا لهم من موكب! كانت فرقتهم كبيرة بقدر الفرقة التي رافقت بوانا ستانلي. سار العساكر المتقدمون بأناقة وتوقفوا أمام البوانا. وضع كل منهم سلاحه على أحد جانبيه في بداية، ثم على الجانب الآخر، قبل أن

يطلقوا جميعًا النار في الهواء ليحيوه.

خلف العساكر، جاء فتية ناسيك السبعة، يرتدون جميعهم لباسًا أوروبيًا. استطعت أن أرى تاويكا تغمز وتتبسم وهي تنقّل عينيها بينهم واحدا تلو الآخر. وخلف فتيان ناسيك، كان هناك خمسون باغازيًا أقوياء البنية، وبعد أن سمعناهم يتحدثون عن الأشهر الثلاثة التي قضوها سائرين من باغامويو نزولًا للقائنا في يوجيجي، عرفنا أنها لم تكن تجربة ممتعة، على الأقل بالنسبة للباغازي، فقد عرفنا بعد مدة وجيزة أن فتيان ناسيك كانوا مدللين وغير معتادين على العمل الجدّي.

أكثر ما كان مبهجًا هو أنه انضمت إلينا ثلاث نساء أخريات، وقد جلبن معهن أولادهنّ. خديجة، زوجة شوبيره، معها طفلان، وأيضًا لايده، زوجة مونياسير، وبنت سومري، زوجة باغازي يدعى آديامبري، معها طفل واحد. وهكذا أصبحنا عشر نساء، مع باهاتي، التي كانت امرأة شيرانغو قبل أن تموت، وتاويكا، وميسوزي امرأة سوزي.

كنت سعيدة لرؤية الأطفال، إذ سيصيرون رفاق لعب للوسي الصغيرة. وكنت سعيدة لرؤية المزيد من النساء، رغم أنه - الحق يقال - حيثما كانت نساء فسيكون هناك ثرثرة.

وسرعان ما بدأت الثرثرة بالفعل. فمنذ أن سمعت ميسوزي وتاويكا عن وعد بوانا داودي لي، كانتا تحاولان مجادلتي بخصوصه. قال لي البوانا: "عندما نصل إلى هناك، يا حليمة، سأحررك من خدمتي وأشتري لك بيتا في زنجبار وحديقة صغيرة جميلة، بعيدًا من سوق العبيد".

قالت ميسوزي: "هل سمعت يومًا عن أَمَة تملك بيتًا؟ لا أعرف أي جاكازي يملك بيتًا".

وأعادت تاويكا: "هل سمعت عن شيء كهذا؟ صحيح أن الرقيق

يمكن أن يشتروا حريتهم ويصبحوا واهاديمو، ثم يستطيعون بعد أن يصبحوا هاديمو أن يشتروا حرية زوجاتهم وأولادهم، لكن ليس هناك امرأة من الرقيق تملك بيتًا".

ربما لن أحظى بذلك البيت، لكنني أعلم أنه سيعتقني في زنجبار. كان يقول إنه يكره تجار العبيد، كما تكره تاويكا النمل القرّاص. تحدثا كثيرا، هو وبوانا ستانلي، كيف يمكن إيقاف عمل تجار العبيد. لكنني أحيانًا لا أفهم الفرق. كان البوانا الاثنان يتحدثان كما لو أنهما كلاهما يعتقدان أنه يجب أن يكون للعبودية نهاية، لكن بومباي أخبرنا أن بوانا ستانلي كان أحيانًا يهدد رجاله بعصا العبيد.

ورغم أنه تكلم كثيرًا ضد تجار العبيد وبكى على نساء مانيوما، فقد حصل بوانا داودي على مساعدة كبيرة من تجار العبيد. لقد تناول الطعام مع تيبو تيب نفسه ذات مرة، ومع أخيه كومباكومبا أيضًا، وقبل هدايا كانت بارودًا ومسدسات. قال إنهم كانوا أعز أصدقائه عندما لم يكن لديه أي صديق.

وقد اشتراني، نعم فعلًا، اشتراني البوانا بماله الخاص، اشتراني لآمودا بعد أن خلبت لبّه، ولكن بعدها أثقل عليّ آمودا وأتعبني بما فيه الكفاية حتى هربت مرة. بعد ذلك دار في رأس تاويكا أن تلفّق كلامًا عني وعن سوزي.

عندما عدت، أعطاني البوانا قماشًا دافئًا كبيرًا، هذا الذي أحيط به كتفيّ، وهو تمامًا ما يحتاجه المرء في الليالي الباردة في هذه المستنقعات المريعة. لكن القماش والبيت ليسا كبعضهما، وتاويكا وميسوزي ربما كانتا محقتين، إذ لم يسمع أحد يومًا عن امرأة من الرقيق تملك بيتًا. كانت أمي في أي مناسبة تقول على الدوام، إن المرء لا يمكن أن يعرف كم عدد

البذور في ثمرة الرمان إلا بعد فتحها.

إذًا لن يكون لحليمة بيت، ولا حتى حديقة، جميلة أو غيرها، وليس هناك سوى ذلك المجنون آمودا بن محمود، الذي ينظر إليّ مثل ثعلب غاضب، خصوصًا عندما يكون سوزي في الأرجاء.

9

إنه مجرد تفصيل صغير لا يذكر، ولن يفهمه
سوى من لديهم أطفال من لحمهم ودمهم،
لكن صيحات الصغار، في همومهم الطفولية،
لها نغمة واحدة، في مختلف الأعمار، هنا كما في جميع
أنحاء العالم. كان النواح، الذي تألفه آذان الآباء وقلوبهم،
يذكرنا على الدوام بالبيت والعائلة،
وشعرت بالامتنان لأن أطفالنا لن
يضيفوا إلى همومهم الطفولية
بلاء سوق العبيد الذي يمزق الفؤاد.

ديفيد ليفينغستون، (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

حتى الظلام الذي ظلل المخيم صبيحة موت بوانا داودي لم يمنع ضحكات الأطفال. فكانوا جميعهم مستيقظين مع طلوع الشمس. كانت أصواتهم عالية وهم يطاردون بعضهم بعضًا ويطاردون الدجاج. كانوا مجموعة صغيرة من ستة أطفال، دومًا معًا، إلا عندما يعملون أو يفرّقهم شجار مفاجئ.

كانت لوسي الصغيرة على ما يرام. تتكلم بمرح وهي تلعب، مرة بلغة، وأخرى بلسان آخر. لا أحد يلتقط اللغات أسرع من الأطفال، إنها موهبة بالفعل، تلك. البالغون الوحيدون الذين أعرفهم ممن يمتلكون الموهبة نفسها هم سوزي، وبومباي، ورجل بنت سومري آديامبري، فهم الثلاثة يعرفون لغات لا أملك ما يكفي من أصابع اليدين والقدمين لعدّها. جاكوب وينرايت موهوب أيضًا، فقد التقط مختلف اللغات في مدرسته في الهند.

كانوا فرحين للاستراحة هذه الأيام، العش الصغيرة، لأن المسير كان يجهد أرجلهم النحيلة. في العادة نكون مستيقظين قبل الفجر بوقت طويل. "سنسير عند الرابعة فجرًا"، هكذا كان يقول البوانا، وبذلك يعني أننا كنا نحن من سيوقظ الديكة.

إنه لعمل حار، المسير عمل حار. الأفضل أن نفعله عندما تكون الأرض باردة وما يزال هناك قطرات ندى على العشب والأوراق. كانت أيام المسير تبدأ بما يدعوه البوانا النداء، أي أن ماجوارا يدق طبله من خيمة لخيمة أو من كوخ لكوخ لإيقاظ الرجال، ثم تنضم إليّ تاويكا وميسوزي وبنت سومري ولايده والنساء الأخريات لإشعال النار، ثم نقطع صيام الليل بوجبة، ثم نذهب في طريقنا حتى يصيح البوانا: "الساعة الثامنة!" وهذا يعني أننا سنستريح لنأكل قبل أن نتابع مسيرنا ونستريح مجددًا عندما ترتفع الشمس وسط السماء.

كان الأطفال أثناء سفرنا يتخطوننا ليسيروا مع ماجوارا، فقد كانوا يحبونه. وكانوا ليركضون ويتخطون الركب لولا توبيخ القادة لهم باستمرار. كان آمودا يهددهم كي يحسنوا التصرف؛ قال لهم إذا تخطيتم **الكيرانغوزي** سيمسك بكم تجار العبيد ويأخذونكم إلى الساحل، وسوف تضطرون

للسير كثيرًا إلا إذا سقطتم على الأرض أمواتًا، ولن يراكم أحد بعدها.

كان ذلك توبيخًا صارمًا. في الواقع، كانوا يحبون أن يلعبوا لعبة يسمونها كومباكومبا، إذ يتظاهرون أنهم كومباكومبا وتيبو تيب، أكثر تجار العبيد الذين نخافهم. يقسمون أنفسهم إلى مجموعتين، إحداهما تشكل القراصنة، والأخرى تؤلف الذين تعرضوا للهجوم. يهجم القراصنة على المجموعة الأخرى ويقلدون أصوات المسدسات وهم يقولون: "تيبو تيب، تيبو تيب، تيبو تيب". ثم يصيحون: "كومباكومبا!" ويتقدمون ليمسكوا أفراد المجموعة. ثم يسير المقبوض عليهم وتنتهي الجولة بصيحة "كومباكومبا!" وكثير من الضحك والصياح. كانت شجاراتهم في معظمها حول من يريد أن يكون من القراصنة. لا أحد منهم يرغب في أن يكون من المجموعة التي يُقبض عليها، ولا يقبلون بذلك على مضض إلا عندما يكون دورهم في الإغارة في الجولة القادمة.

لا بد أن هذا ما كان يعنيه بوانا داودي عندما قال لي في يويانيمبي إن الأطفال لا يلعبون لعب الأطفال، بل يلعبون كما لو أنهم كبار. تيبو تيب وكومباكومبا وُلدا عبدين، فعلًا. يقال إنهما أخوان أيضًا، من الأم نفسها. والآن انظر إليهم. كالأطفال تمامًا، يؤثرون القبض على الآخرين على أن يُقبض عليهم.

كنت على وشك أن أنادي على لايده لتساعدني في تعبئة الماء عندما جاء شيرانغو إليّ. ألقى عليّ تحية مفعمة. نظرت إليه دون أن أنطق بكلمة. فحتى قبل أن يجلده آمودا، وهو ما يلومني عليه، كان رجلًا مثيرًا للمتاعب، دائم الإقدام على أمر سيئ. بعد أن ماتت امرأته الأولى، باهاتي، لم يظهر أي اهتمام، وحظي بامرأة أخرى تُدعى كانيكي بدلًا منها. اشترى أيضًا بنتًا وصبيًا مقابل ثلاث سلاسل من الخرز عندما توقفنا في نياموِيزي. قال إن

الفتاة ستكون محظيته عندما ينمو ثدياها، والصبي سيكون خادمه. كانت امرأته كانيكي تتحقق من أنهما لا يشاركان بقية الأطفال اللعب.

كان الأمر مختلفًا مع بومباي، رجل بوانا ستانلي، والصبي ناسيبو. عندما وصل مع بوانا ستانلي، كان ناسيبو يحمل مسدس بومباي له. لم يكن أطول قامة من لوسي. اعتقدت أنه ابن بومباي في البداية، فالعث المسكين لم يكن يبتعد عنه، وغالبًا ما يغط في النوم ورأسه على ركبة بومباي. كان يقول: "ابن! لديَّ ما يكفي من الأولاد، لكنهم مع أمهاتهم. ناسيبو هو عبدي". اكفهرّ وجه جاكوب وينرايت الذي كان يصغي آنذاك، وقال: "عبد؟ لماذا تحتاج عبدًا؟"

ضحك بومباي: "لا أحتاجه إطلاقًا، لو لم يكن عبدي لكان مع آخر من رجال بوانا ستانلي، وسيكون سيدًا قاسيًا عليه. باعته أمه مقابل قطعة من القماش وبعض النباتات. قالت إنها تريده أن يكون في أمان، لأن القرية كانت تتضور جوعًا وأحد أولادها كان قد مات حينها، لكن الرجل الذي باعته له كان قاسيًا على الصبي لذا قال بوانا ستانلي إنني يمكن أن أشتريه. لقد دفعت ثمنًا غاليًا مقابل شرائه، ثلاث سلاسل طويلة من الخرز الأحمر".

رأى وجه جاكوب وقال: "انظر، ماذا عساي أفعل معه، كان يجب أن يأتي معي حتى نعود إلى الساحل. عندها سأتركه مع إحدى نسائي ويمكن أن تصبح أمًا له حتى يكبر".

لم يتخذ شيرانغو الأطفال كما اتخذ بومباي ناسيبو. بل أخذهم لنفسه. وحالفه الحظ في سرقة غير مكشوفة، في البداية، لأن بوانا داودي كان قد مرض حينها مجددًا، ولم يرَ ماذا يحدث. وحالما استعاد عافيته واكتشف ما فعله شيرانغو، كان غضبه شديدًا.

كان غاضبًا غضبًا شديدًا، البوانا، خصوصًا حين زاد شيرانغو الطين بلة بالقول إن بوانا داودي يتخذ عبدًا له، وأشار إلى ماجوارا.

قال البوانا: "أنا أدفع للصبي، أدفع له لقاء خدماته، بيد أن ما ترغب في فعله أنت هو استعباد الأطفال". حاول شيرانغو أن يجادل في أن الأطفال سيحصلون على الطعام بالمقابل وإلا لكانوا تضوروا جوعًا، لكن بوانا داودي أوقف الركب لخمسة أيام ليستطيع غاردنر وشوبيره أن يعيدا الأطفال إلى قريتهم في نيامويزي.

لا يأبه إلا لما يعود عليه بالمنفعة، شيرانغو هكذا. لذلك عندما رأيته يقترب مني، أخذت حذري على الفور. كان يلعق شفتيه كعادته.

هو واحد من أولئك الذين يمضغون أوراق المستنقع القذرة التي يسميها بعض **الباغازي القات**. يقارب عدد من يمضغون القات من **الباغازي** الخمسة عشر نفرًا، لكنه أسوأهم. إنها عادة قذرة، يمضغون ويمضغون وبالتالي يظلون يبصقون ما يمضغونه باستمرار، طوال اليوم يبصقون.

لا يوجد قات هنا في هذه البلاد البعيدة لتشتريه، وهذا ما أشكر عليه النبي، صلوات الله عليه. كان شيرانغو على الدوام يلعق شفتيه مثل رجل جائع يسيل لعابه على وليمة أمامه. وعندما لم يكن يمضغ القات، كانت أصابعه تتحرك دومًا كما لو أنه يعزف على آلته الموسيقية، رغم أنها ليست بين يديه.

كان يسميها جاري. رأيت الكثير من الآلات الموسيقية في دار الوالي، بيد أنني لم أر مثل آلة شيرانغو. كانت آلته مدورة من خشب الكالاباش وعليها من الخارج أشكال بطلاء أبيض وأسود. ومن الداخل الآلة نفسها؛ خشبة صغيرة وعلى أحد طرفيها مربوط أصابع معدنية طويلة بارزة مثل أسنان بوانا داودي الضعيفة. كان يعزف على تلك الأسنان المعدنية والتي بدورها

تصدر تلك الأصوات الشجية والتي تجعل القلب ينفطر، وتذهب بالمرء بعيدًا في عالم الذكريات والمآسي.

وفوق أنه كان يلعق شفتيه ويحرك أصابعه، كانت عينه ترمش بطريقة توحي إليك أنها تريد أن ترى كل ما لا تستطيع العين الأخرى أن تراه.

وبسبب حركة عينه تلك، كنت أجد النظر إلى وجهه مباشرة أمرًا صعبًا. فكلما كنت أضطر للتحدث إليه، وحمدا لله كان ذلك قليل الحدوث، كنت أنظر إلى شيء ما فوق مستوى كتفه. وعلى ما يبدو كان هو كذلك يجد صعوبة في النظر إلي إذ كان يتحدث وكأنه يتحدث مع شخص ورائي. كنا لا ريب أشبه بسرطانين كسيحين.

قال: "سمع شيرانغو أنهم سيدفنون بوانا هنا".

قلت له: "إذن تسمع أكثر مما أسمع".

قال: "شيرانغو متأكد من أن لجثته مكافأة".

قلت: "ماذا تعني؟"

"لا بد أن يكون هناك مكافأة إن أعدناه إلى الساحل. لقد كان رجلا مهمًا في بلده. انظري كيف أن كل رجال مملكته قد كتبوا لمملكة أخرى ليرسلوا بوانا ستانلي ليبحث عنه. كان ذا شأن في بلده. شيرانغو متأكد من أن من يعيدونه إلى الساحل سينالون مكافأة كبيرة".

قلت: "هل هذا صحيح؟" وبحلقت فيه غير أنه لم ينظر إليَّ واكتفى بلعق شفته.

"بالتأكيد. رغم أن شيرانغو لا يتمتع بكل حقوقه، إلا أنه قد رافق الرجال البيض ويعلم أنهم سيمتنون لأولئك الذين يعيدون بوانا إليهم".

كانت تلك طريقته في التحدث، كما لو كان شخصًا آخر كليًا، كما لو كان من مرتبة وزير أو حتى الوالي نفسه وليس شيرانغو الذي يلعق شفته

أمامي، شيرانغو اللص قاطع الطريق. وكنت قد نسيت تقريبًا كل ادعاءاته.

وبما أنه اختار البقاء بعد عودة بوانا ستانلي إلى الساحل، أخبر شيرانغو كل من وصله الخبر أنه سلطان بلد يقع في الجنوب، بلد بين نهرين عظيمين. وأن اسمه الحقيقي هو شيرانغو كيرانغو ميوتابا أو شيء من هذا القبيل. وأنه ليس بوسعه المطالبة بكل حقوقه لأن شعب بلد مجاور لبلد بوانا، شعب يدعى البرتغاليين ويدّعون كذلك أنهم سكنوا زنجبار قبل شعب شيرازي، قد طردوا عائلته من أرضهم قرب زامبيزي، قرب شوبانغا التي ينحدر منها سوزي.

يقول إن ما حدث لموينوي مكوو، وهو أمير عظيم من أمراء الشعب السواحيلي في زنجبار، حدث مثله لعائلته. طُردوا من أرضهم وبلدهم، وإن سلطانهم ميوتابا، انحطّ إلى مجرد زعيم صغير، أصغر حتى من موينوي مكوو الذي كان أمير الشعب السواحيلي، ولم يتركوا له أرضًا ليحكمها.

أعرف موينوي مكوو وكل زنجبار تعرفه. كانت أمي تطبخ له، أليس كذلك؟ كان رجلًا باسمًا وداكن البشرة وأحيانًا يصير بينه وبين الوالي القليل من العمل. وشيرانغو محق في هذا. يقولون إنه هو من ينبغي أن يكون سلطان زنجبار الحقيقي، غير أن قدوم الشيرازي ومن بعدهم البرتغاليين وثم العُمانيين قد جعل سلطنته تتضاءل شيئًا فشيئًا كما يقولون. نعم قد يكون صحيحًا أن سلطنته كانت صغيرة، غير أن شهيته لم تكن أقل من شهية أي شخص رأيته. كان يأكل دجاجة كاملة بمفرده، وقد أكل واحدة في تلك الليلة التي طبخت أمي له عندما تعشى مع الوالي. وفوقها استطاع أن يأكل من لحم الضأن الشهي الذي طبخته أمي بالمرق على مهل مع الزيزفون والزبيب والهال، وأتبعه بالكثير الكثير من شراب التمر هندي.

ضحك كل من آمودا وسوزي عندما أخبرهم شيرانغو بادعاءاته تلك.

ذكر لي سوزي فيما بعد أنه بالفعل كان هناك حديث عن بلد كتلك التي وصفها شيرانغو، وأنها كانت تدعى موينيميوتابا أو شيئًا من هذا القبيل، وأن أهلها قد بنوا مدينة عظيمة أصبحت الآن آثارًا مع أن لا أحد في بلده قد رآها. إلا أنه لا يصدق أن واحدًا حقيرًا مثل شيرانغو يمكن أن ينتمي إليها.

عندما علم شيرانغو أن زوجة بوانا دُفنت على ضفة نهر يدعى زمبيزي، تمتم أن ليس من حقها أن تُدفن في أرضه دون إذنه. ومنذ ذلك الحين والناس يدعونه موينِي مدوغو أو الأمير الباغازي.

"كم سيحمل موينِي مدوغو اليوم؟"

"أيمكن أن يناولني الأمير الباغازي الخشب؟"

"افسح الطريق لموينِي مدوغو".

"لو أنّ الأمير الباغازي يتكرم علينا ويساعدنا نحن البشر الأقل شأنًا".

لم أقل شيئًا عندما وقف شيرانغو أمامي وقد ظل صامتًا إلى أن غادر. وحالما ابتعد آمودا عن البقية، أسرعت لأعرف القرار الذي اتخذوه.

قال: "سنطلب إذن شيتامبو لنتمكن من دفنه اليوم. أنا وسوزي وكل من هم على ديننا نتفق على أنه من الأنسب وفق شرع الله دفنه قبل المغيب، وبالطريقة المعتادة".

قلت: "ماذا؟ وهل ستدفنونه ورأسه جهة مكة أيضًا؟ هل ستفعلونها؟"

"ماذا تعرفين بخصوص هذه الأمور؟" سأل آمودا.

قلت: "لم يكن على دين محمد، وهذا تعرفه كما أعرفه يا آمودا. لماذا إذن يدفن وفق شريعة ليست شريعته؟ قد أكون أمَة، نعم، لكنني أعرف تمام المعرفة أنه لم يكن محمديًا. بل كان، كما تعلم وأعلم، مسيحيًا".

"وماذا تعرفين عن المسيحيين؟"

"لا شيء إطلاقا. أعلم فحسب أن لهم إلهًا مختلفًا، شأنهم شأن أولئك الجنود الهنود الذين كانوا يسيرون مع بوانا وكان لهم آلهة هندوسية. أخبرني بومباي بكل ذلك. كل الآلهة لديها الكثير من الأرجل والايدي في كل موضع، ولديها رؤوس تشبه رؤوس الفيلة والقرود. ليس صحيحًا أن تدفن شخصًا وفق تعاليم ديانة ليست ديانته. يمكنك أيضًا أن تحرقه حتى يصبح رمادًا مثلما يفعل الهندوس".

قبض آمودا يديه وقال: "عرفتِ هذا من بومباي، أليس كذلك؟ كنت أعلم بذلك. طوال الوقت كنت أعلم ذلك. سأضربك إن لم تنتبهي لنفسك، سأضربك حتى لا يتبقى لديك أسنان تتحدثي بها عن آلهة الهنود والهندوس. هل تنامين معه؟ هل نمتِ معه كما تودين أن تنامي مع سوزي؟ أم هل نمتِ معه وانتهى الأمر؟"

قلت: "كما لو أنني أود أن أنام مع بومباي! كل ما قلته هو كيف تدفنون رجلًا خارج أرضه وليس وفق دينه، وكيف يوافق شيتامبو أصلًا على دفن رجل غريب عنه، ليس غريبًا فحسب، بل غريبًا أبيض أيضًا، من العرق الأبيض الذي لا أحد يعلم أي أرواح سيجلب من وراء البحار".

"هذا هو المكان الذي مات فيه". قال آمودا.

عرفت من هيئة فمه أنه لم يعد يرغب في المزيد من النقاش. وللتأكيد على هذا أضاف: "أنت مجرد أَمَة لا غير، ومع ذلك، ماذا تعرفين عن الدفن؟ هذا ليس من شأن الجاكازي. هذا شأن الرجال الأحرار".

عندما يقول لي آمودا إنني مجرد امرأة وأَمَة، فهذه إشارة أكيدة على ارتباكه. إن وضعت ذلك في الحسبان، فيمكن أن أكون عنيدة إلى أبعد الحدود. إلا أن آمودا محظوظ أنني لطيفة، رائقة ولست من ذلك الصنف الذي يحب النكد والخصام ويظل يثرثر ويثرثر إلى أن يصيبك الصداع.

حقيقة لو أردت، لكنت جعلت حياته جحيمًا.

"لن ترقد روحه بسلام، أؤكد لك ذلك". قلت له.

استدار آمودا ليذهب فأردفت: "وهناك المال أيضًا"، أوقفته هذه الجملة وقال: "أي مال؟"

أوقعت به. ليس هناك على الأرض رجل يحب المال أكثر من آمودا. ذكرت له ما قاله شيرانغو: "إن أعيد إلى الساحل، فلا بد من أنه سيكون هناك مكافأة كبيرة لمن يعيدونه. بالأمس قلت لميسوزي إنه ربما كان يتجول لأنه قد حرق منزله ولم يعد بوسعه العودة. لا، فهو رجل ذو شأن بين أهله وفي بلده. هو كانفا أمهر من معظم الأطباء. انظر إلى بوانا ستانلي وكيف قطع كل تلك المسافة من بلد آخر وهو يحمل حوض استحمامه ومشروبه وطعامه الغريب وخزانته معه ليعيده. وإلى كل تلك الرسائل من علية قومه التي أحضرها معه. إن أعيد مع كل تلك الأوراق، بالتأكيد سيكون هناك مكافأة كبيرة.

وبداية النهر تلك التي يريد أن يجدها، بداية نهر النيل، لا بد من وجود آخرين يريدون إيجادها مثله. لقد ذكر مونياسير أن رجالًا آخرين من بلده يبحثون عن المكان نفسه. لا شك أنهم يريدون معرفة المعلومات التي ذكرها في أوراقه".

كنت على وشك أن أذكر بوانا ستانلي وبوانا الآخر الذي كان يعمل بومباي لصالحه، ليس ذلك صاحب الطبع السيء الذي لا أذكر اسمه، بل بوانا سبيك الذي كان بومبي يتحدث عنه طوال الوقت. قال أكثر من مرة أنه قبل أن يموت سيذهب إلى إنكلترا لرؤية قبر بوانا سبيك.

ولكوني كنت أعرف أن ذكر اسم بومبي أكثر من ذلك لن يفيد سوى في إثارة غضب آمودا اكتفيت بالقول: "كما تقول دومًا، فأنا مجرد أمَة وماذا

عساي أن أعرف عن هذه الأمور، فهذا شأن الرجال الأحرار..."

نظرت إلى الأسفل متظاهرة أنني لم أرَ آمودا وهو يتمعنني قبل أن يغادر دون أن ينطق بكلمة. ذهبت لأرى تاويكا، وميسوزي، ولايده والنساء الأخريات اللواتي كن متجمعات حول النار. في طريقي إلى هناك، قابلت لوسي التي سارعت واحتضنتني. رحت ألاعبها بقذفها في الهواء، وظلت صرخاتها وضحكاتها ترافقني إلى أن وصلت إلى النسوة.

10

حين آثرت تاويكا أن تمضي معنا إلى الساحل،
لم أكن أحبذ أن تكون بيننا امرأة حسناء
دون أن تكون مرتبطة، واقترحت عليها أن تتزوج
واحدًا من رجالي البارزين... لكنها ابتسمت للفكرة.
كان واضح أن شوما أكسل من أن يتخذ زوجة،
والآخرَين أدنى مظهرًا، وهي ناهدة وتتمتع بحضور جميل...
قادت الظروف النساء الأخريات إلى أن يتمنين
أن تتزوج تاوكيا، وعند حديثي إليها ثانية وافقت.
كنت قد لاحظت أنها تعمل بجدّ
من الصباح حتى المساء: أول من ينهض في الصباحات الباردة،
تشعل النار وتسخن الماء، وتدق الطحين،
وتحمل الماء، وتكنس، وتطبخ.

ديفيد ليفينغستون، (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

عندما وصلت إلى النساء، كانت الأخبار حول أن البوانا سيدفن في ذلك اليوم قد انتشرت في المخيم. وعندما انضممت إليهن، كانت تاويكا وميسوزي تناقشان الأخبار مع الأخريات.

قالت تاويكا: "أليس من الغريب أنهم يريدون أن يدفنوه هنا؟ وأن أولاده لن يروا قبره البتة؟"

قالت ميسوزي: "لن يرتاح في قبره"، وانطلقت بإحدى حكاياتها الوحشية عن أشباح شيتاني. قالت: "الذين يدفنون خارج أوطانهم يخرجون من قبورهم ويسيرون. لا يعرفون السكينة، ويشكون بؤسهم بالزعيق والهمس من بين الأشجار والأجمات، يصيحون من التربة نفسها. يتعرضون إلى الرحالة ويتوسلون لأن يأخذوهم إلى أوطنهم".

وأضافت: "لهذا السبب زنجبار مليئة بأرواح شيتاني. أولئك العبيد الموتى جميعهم دفنوا بعيدًا من أوطانهم. وعندما يموتون في البحر يصبحون فيمبويغو وشونوسي، أشباح البحر التي تطارد البحارة وتبحر في أطياف سفن".

عندما تشرع ميسوزي في الحديث عن الأشباح والأرواح فلا شيء يمكنه إيقافها. عندما اجتمعنا في الليل لنحكي القصص كانت هذه هي القصص التي تستمتع بها أكثر من غيرها. كنتُ مضطرة إلى مقاطعتها قبل أن تغرق في حكاياتها، وقلت: "لقد تحدثت إلى آمودا، قلت له إننا لا نستطيع أن ندفنه هنا. وأنت يا ميسوزي، عليك أن تتحدثي إلى سوزي. وأنت تدبري أمر مبروكي يا تاويكا، ولايده سوف تكلم مونياسير. خديجة وبنت سومري ستكلمان رجليهما أيضًا. إذا استطعنا أن نحصل على موافقة قادة القافلة، فسوف يقتدي بهم الآخرون". ميسوزي، كالعادة، كانت بطيئة الاستيعاب، لكن تاويكا ولايده وأنا نظرنا إلى

بعضنا بعضًا في تفاهم كامل. هكذا ندبر أمورنا في العادة عندما نريد شيئًا. نتكلم في الأمر بيننا أولًا، ثم مع رجالنا كل بمفرده، حتى يظنوا أن تفكيرهم من رأسهم.

لقد نمت مع ثلاثة رجال قبل آمودا، نعم، جربت ذلك الأمر، وجميعهم كانوا أسيادي ما عداه، فرغم أن بوانا اشتراني، فهو لم يشترني لنفسه. ما أستطيع أن أقوله لكم هو أن عقل الرجل أكثر ما يكون منفتحًا هو في تلك اللحظات التي ينثر فيها بذوره. لا ينجح الأمر دائمًا، لكن عندما يحصل، تجدهم يقولون إنهم قرروا أن تكون الأمور على هذا النحو أو ذاك، ورغم أننا نحن من جعلهم يقررون ذلك، لكننا نعلم أنه من الأفضل أن نترك الأمور تسير هكذا.

كنت على وشك أن أقول إنني تحدثت إلى آمودا، لكن لم يكن هناك وقت للمواضيع المعتادة معه، عندما قاطعنا صوت طبل ماجوارا.

نظرنا إلى بعضنا في دهشة. كان ماجوارا عادة يدق الطبل ليجمع الرجال من أجل التكلم عن أي شيء هناك حاجة لفعله في رحلة كل يوم. منذ أن وصلنا إلى شيتامبو، لم يكن هناك اجتماعات لأن البوانا ببساطة كان شديد المرض ولم يقدر على إعطاء التعليمات. وبدلًا من ذلك، كان على قادة القافلة ببساطة أن يتوجهوا إلى الرجال الذين يحتاجونهم لأداء مهمة ما.

قال ماجوارا حالما أنهى الدق على الطبل: "سنجتمع تحت شجرة البوندو".

دون مزيد من الكلام، توجهت مع النساء الأخريات إلى الفسحة التي أشار إليها تحت الشجرة التي يدعوها بعض الرجال بوندو وآخرون مفولا، وفق اللغات التي يتحدثونها. كان الرجال آنذاك يهيئون أنفسهم في مجموعاتهم المعتادة. الأقرب إلى الشجرة، كان سوزي وشوما وآمودا يتفيؤون

بظلها ويجلسون مع قادة القافلة الآخرين، شوبيره ومونياسير. وجلس مبروكي بقربهم.

وإلى جانبهم كان فتية ناسيك. وإلى ورائهم، على بعد مسافة من فتية ناسيك، كان الباغازي الأدنى يؤلفون المجموعة الكبرى، إذ كانوا أكثر من خمسين رجلًا، يجلسون تحت الشمس خارج فيء الشجرة. استطعت أن أرى شيرانغو في الخلف. انضممنا أنا والنساء إلى الرجال وأخذنا مكاننا قرب الباغازي. أجلست لوسي بقربي، وركزت - بينما أصغي - في جدل شعرها.

وقف آمودا وقال: "تعلمون ما أصابنا هذا الصباح. علينا أن نقرر ما نفعل بجثته".

قال سوزي: "ولكننا قررنا وانتهى الأمر. ماذا بقي لنقرر بشأنه؟ يجب أن ندفنه بأسرع ما يمكن، ولهذا السبب علينا أن نستعجل في إبلاغ شيتامبو أننا قد ندفنه في هذه البلاد".

قال شوما: "ينبغي أن نكون حذرين في طريقة إبلاغ شيتامبو. قد يغضب لأننا جلبنا الموت إلى بلده".

وسط الهمس الذي تلا ذلك، أبعدت يديّ عن رأس لوسي وأشرت لهم برغبتي في الحديث، وقلت: "كلام شوما كلام حكيم. لن يشكركم شيتامبو لجلب جثة رجل غريب إلى أرضه. سيسألكم عن الأرواح التي سيجلبها إلى هنا. الأمر الوحيد الذي عليكم فعله هو حمل جثة بوانا داودي إلى الساحل ووضعها في قارب يحمله إلى بلده".

سرعان ما تحول الهمس الذي دار مع بداية حديثي إلى قرقرة، إذ بدأ الرجال يتحدثون فيما بينهم. نظر إليّ آمودا دون أن يبدي لي أي إشارة بالتوقف، وعليه تابعت حديثي. استدرت إلى فتية الناسيك وتحدثت إليهم مباشرة. قلت: "يجب أن يدفن وفق ديانته. بوسعي أن أخبركم أنه لن ينام

أي منكم قرير العين ليلًا إن لم يدفن وفقًا لطريقة جماعته وعاداتهم".

"يكفي يا حليمة" قال آمودا. وبالفعل رأيت أنني قلت ما يكفي، فجلست.

بدأ الناسيك يهمسون فيما بينهم. وبدا كذلك أن جاكوب غارق في التفكير. كان شوبيره يتحدث بصوت منخفض مع سوزي بينما كان، من بين الباغازي، علي ووادي سافينه يتحدثان بغضب. بدا لي أن شيرانغو كان الهادئ الوحيد. كان يبتسم ابتسامة فضولية وهو ينظر في الأفق وكأن الأمر لا يعنيه.

طلب آمودا من وادي سافينه أن يتكلم فقال إنه ينبغي دفنه حالًا: "يتحدث جاكوب وينرايت بلسانه، فهو يعلم ديانته. لِمَ لا ندفنه وفق تعاليم ديانته هنا في قرية شيتامبو؟"

قال جاكوب: "لست رجل دين، بيد إنني أتطلع لذلك اليوم المجيد الذي أتشرف فيه بخدمة الرب. بالطبع أتمنى أن يأتي اليوم الذي أرتدي فيه الطوق، لكن ذلك غير ملائم حاليًا. كما يمكن أن يؤكد لكم أخوتي في الدين المسيحي، أنتم الذين لستم على ديانة المسيح، وكما قد أوضح لكم الدكتور بنفسه فإن الدفن هو طقس وسر ديني وأنا لم أرسَّم بعد. وفوق ذلك، لن يكون دفنًا مناسبًا إذا لم يُدفن على أرض ليست مكرّسة".

"ما معنى ذلك؟" سألت تاويكا.

"وما ذلك الطوق الذي تتحدث عنه؟" سألت ميسوزي. "بالطبع لا يمكن أنك ترغب في أن تكون عبدا ثانية وتضع شارة العبودية!"

قال جاكوب بنبرة توحي بفقد صبره: "لقد أوضحت ذلك من قبل يا ميسوزي. أوضحت أن رجال الدين يضعون على أعنقاهم طوقًا قماشيًا غير ذلك الذي يدل على العبودية".

وبودّ أكثر نظر إلى تاويكا وقال: "أن يتم دفنه في أرض مكرسة لهذه

الغاية يعني أن يُدفن في أرض مباركة، في أرض كنيسة مثلًا".

قالت تاويكا: "انتهى الأمر إذًا. جاكوب محق. لا يمكننا دفنه هنا".

قالت اسمه وهي تبتسم متظاهرة بالخجل ما جعلني أنظر إليها بحدة. تقابلت عيناها وعينا جاكوب فنظرت إلى الأسفل وهي ترمش بدلال. نظر جاكوب إلى الأسفل ثم رفع بصره إليها ثانية. وتحركت عقدة حنجرته عندما بلع ريقه. لعلي لا أعرف بأمور الخرائط والكتب والنجوم، إلا أنني أعرف معنى أن ينظر رجل إلى امرأة تلك النظرات. استرقت النظر إلى مبروكي لأرى ردة فعله، لكنه لم يرَ شيئًا.

قال ماثيو ويلنفتون: "لكن الكاهن وينرايت قال لنا إن الأرض التي يُدفن فيها رجل صالح تصبح كلها مكرسة. فكروا في تلك الأرواح المسكينة التي دُفنت في البحر".

قال شوما: "كان يقول دومًا إنه يريد أن يُدفن في المكان الذي يموت فيه. لا شك أن افريقيا ستحتضن روحه كما احتضنت زوجته. إنها ترقد في شوبانغا عند منبع نهر زمبيزي".

صدر من آخر مجموعة الباغازي صوت سعال شيرانغو وأشار بيده، إلا أن آمودا تجاهله. وقبل أن يطلب من أي أحد آخر الحديث قلت: " كان يريد أن يُدفن في أرض سبخة مثل هذه، أليس كذلك؟ وأنتم أنفسكم تودون أن تُدفنوا في أرض سبخة مثل هذه ومن دون مراسم دفن، صحيح؟ كم استغرق منا حتى قطعنا كل تلك المسافة من يونيانيمبي؟ وماذا عن أولاده؟"

قِال شوبيره: "تتحدث النساء دومًا عن الأولاد".

قال سوزي: "كما قال شوما فإن امرأته مدفونة في شوبانغا". لكن لم يبدُ الارتياح على وجهه ولاحظت أن سوزي وشوما كانا ينظران إلى بعضهما.

قلت: "هذا سبب وجيه لعدم دفنه هنا. تاويكا محقة، فكروا في أولاده. كيف سيكون بوسعهم زيارة قبر والدهم؟"

قالت تاويكا بصوت مرتجف وهي تتنفس وتلهث بصوت عالٍ: "هذا كثير. نعم هذا كثير. لم يروا قبر أمهم والآن لن يروا قبر أبيهم".

وبدأت تنوح بصوت عالٍ.

كانت تاويكا تبكي على أبسط الأشياء، حتى على آنية ماء انسكبت أو نار لم تشتعل جيدًا. كانت تلك طريقتها في تفادي اللوم حتى عندما تكون هي من سبب ذلك. في ذلك اليوم الذي وبخني فيه البوانا في يونيانيمبي وهربت، ألقيت باللائمة عليها وضربتها لأنها كانت تنظر إلى آمودا نظرات إعجاب. لكنها سرعان ما انفجرت بالبكاء فتعاطف معها البوانا وحوّل غضبه نحوي بدلًا منها. هربت لأنني لم أحتمل رؤيتها تنال كل تلك المواساة بينما كانت في الواقع سبب كل شيء.

إلا أن دموعها هذه المرة كانت موضع ترحيب. رفعت صوتي تأييدًا لها ووكزت ميسوزي لتؤيد كذلك. نظرت إليَّ دون أي اهتمام. بسرعة رفعت كل من لايده وخديجة وابنتي سوماري أصواتهن تأييدًا كذلك. وانضمت بعد ذلك ميسوزي أيضًا. دُهشت صغيرتي المسكينة لوسي ببكائي المفاجئ ووضعت يديها على وجهي تواسيني فضممتها إليَّ. توقف الكلام وساد الصمت إلى أن كسره شيرانغو بسعاله من جديد.

قال له آمودا: "ألديك ما تضيفه؟"

فقال: "ليس لدى شيرانغو أي شيء ليقوله لكم. ماذا يمكن لشيرانغو أن يقول لكم، أنتم المتنورون والحكيمون، أنتم الذين نهلتم من معرفة الرجل الأبيض وعلمه دون أن تختنقوا بها، أنتم الذين تلبسون مثله وتتحدثون لغته؟ أما شيرانغو فهو ذو عين واحدة رغم أن آخرين يعرفونه

باسم شيرانغو كيرانغو، أمير زيمباويه، ومن سلالة نياتسيمبا جامع الملح لبيوت الحجر العظيمة، وأب النبية العظيمة نياميتا نيهاندا.

رغم أن ادعاءات شيرانغو أكبر من ادعاءات الجميع تقريبًا، لا ترى منه غير تلك العين الواحدة وجميعنا يعلم قصتها التي من الأفضل عدم ذكرها. إن كل ما بوسعه قوله في هذا الموقف الصعب أن بوانا داودي كان رجلًا عظيمًا في بلده وفي بلدنا كذلك. لقد كان يرفع السوط على أولئك الذين دارت بهم الأيام وخسروا مثل شيرانغو. نعم لا بد أن يرقد هذا الرجل العظيم حامل السوط مع الرجال العظام الآخرين رغم أن نحن البسطاء من نأخذه إليهم.

وإن أخذناه إلى هناك، من يعلم أي لوم سينالنا إن تركنا هذه البلاد من دونه. من يعلم الاتهامات أو الكلام القذر الذي سيطالنا بدءًا من الإهمال وربما وصولًا إلى تهمة القتل. عندما يخبر الرجال بحادثة موت حدثت في أرض بعيدة، دومًا يعقبها كثير من اللغط. إن كان لا بد أن تنالوا جميعكم مكافأة كبيرة لقاء إعادته إلى وطنه، يقول شيرانغو إنكم جميعًا تستحقون ذلك لقاء هذه الخدمة المخلصة".

بدأ الرجال يتحدثون بحماس عندما ذكر أمر المكافأة. "مكافأة؟" قال شوبيره وأضاف وهو ينظر إلى آمودا وليس إلى شيرانغو: "ماذا يعني بالمكافأة؟" لم يجب آمودا واكتفى بالنظر إلى شيرانغو الذي بدوره لعق شفتيه.

قال آمودا الذي لم يبدِ أي معارضة: "يقصد شيرانغو أنك قد تنال شيئًا ما لقاء عنائك، ولِمَ لا؟ بعد كل هذا العمل الذي بذلته في خدمة رجل عظيم".

قال جاكوب وينرايت: "لا علاقة لهذا بذلك. لا ينبغي أن يكون هناك سبب إطلاقًا. ما نفعله يجب أن يكون نابعًا من شرفنا، لأننا رجال الله،

نفعل ما يرضي الله وحسب".

أراد شوما حينئذ أن يدلي بدلوه، وهو الذي قلما كان يتفق مع جاكوب، لكنه هذه المرة قال: "جاكوب محق. خدمناه حتى آخر أيامه، وسنخدمه حتى النهاية".

نهض ما جوارا. كان المسكين يرتجف مثل ورقة تتلاعب بها الرياح ولا عجب في ذلك إذ لا أذكر أنه سبق وتحدث في لقاءات كهذه؛ إذ كان كبرانفوزي؛ عمله الضرب على الطبل ليناديهم وليس ليتحدث إليهم. لم يكن صوته صوت رجل ولا صوت طفل، منخفضًا لكن يقول كل كلمة بوضوح. قال: "سآخذه بنفسي إلى الساحل إن لم تفعلوا. لقد افتداني وحررني من العبودية وكان يعالجني عندما أمرض. سآخذه بنفسي إن لم تفعلوا".

ساد الصمت بعد كلماته ووضع شوما يديه على كتفي الصبي المرتجفتين.

قال آمودا: "لكن كيف سنحمله؟ ستبدأ رائحة جثته بالانبعاث عند نهاية اليوم. سيكون الأمر أسوأ من حمل سمكة".

علمت حينها أني قد نجحت.

عرفت أيضًا مقصد آمودا. ففي غضون ساعات، سيكون شأن الدكتور مثل شأن أولئك المساكين الذين ماتوا في سوق العبيد في زنجبار. سينتفخ ويخرج كل الهواء والماء اللذين بداخله ويبدأ جسده يتشقق وتخرج منه الديدان وتصبح رائحته نتنة. لو أن جثته كانت لواحد من أولئك العبيد الذين ماتوا في السوق، أؤكد لكم أن ما كان لأحد أن يجرؤ ليقترب منها بسبب الرائحة القوية النتنة، هذا غير الكلاب التي ستنهش لحمه.

كانت كلمة "سمكة" هي التي جعلت الفكرة تخطر في بالي. فأنا لست طباخة من لا شيء. قلت: "سوف ندخنه"، فقال جاكوب مرعوبًا:

"ندخنه؟" ونظر إلي الرجال كما لو أنني مجنونة.

"نعم ندخنه" قلتها عمدا وأضفت: "كما نفعل مع السمكة. كان بإمكاننا حفظه بالزيت لو كان لدينا لكنه سيصبح ثقيلًا للغاية. بإمكاننا أيضًا أن نملحه، لو كان لدينا ما يكفي من الملح. أو يمكن أن تضعوه في الشمس ممدًا حتى يجف. نعم هذه أفضل طريقة. نشقه ونستخرج أحشاءه ثم نجففه تحت الشمس. كما نجفف التوابل على سطح دار الوالي، وسيكون بعدها خفيفًا فيمكن حمله. أعرف كل شيء عن حفظ اللحم، أليس كذلك؟ فأنا ابنة..."

قالت تاويكا وهي تضحك: "...طباخة الوالي..."

أضافت ميسوزي: "...من كانت كذلك سريّة الوالي ولكنها لم تلد له ولدًا لتصبح أم الولد".

"...وكانت الأحب إليه رغم أنها كانت سوداء سواد الليل".

صفقت ميسوزي وتاويكا يديهما وضحكتا. كانت تلك مشكلتهما. كلما فكرت أننا على قلب واحد، تفعلان ذلك. كنت أفكر إن كان ينبغي أن أقول شيئًا لأقطع عليهما الطريق وإذ يقول آمودا: "هل جننتما؟ هل هذا وقت ذلك؟"

نظر إليّ سوزي مبتسمًا وقال: "حليمة على حق. التجفيف صعب، لكنه ليس مستحيلًا".

أما كاروس فرار فقال: "وماذا نفعل بالأحشاء، بقلبه وأعضائه الداخلية؟ بالتأكيد لا يمكننا تجفيفه كله".

قالِ سوزي وهو يبتسم: "ندفن قلبه هنا".

"هذا هو الحل الأمثل. نجهّز جثته للنقل، لكننا سندفن قلبه وأحشاءه هنا. وإن زارنا وسألنا لِمَ حملناه بعيدا، نقول له تركناك حيث مت".

”وإن زارنا وسألنا لِمَ تركناه هناك، نقول له أعدناك إلى موطنك“. أضاف وادي سافينه.

ابتسم سوزي قائلًا: ”نعم من الصواب أن ندفن قلبه هنا ونحمل عظامه إلى بلده. حليمة قدمت لنا الحل الأمثل“.

ابتسمت لسماع موافقته، غير أنني مسحت ابتسامتي بسرعة عندما رأيت آمودا ينظر إليَّ نظرة غضب. تظاهرت أنني أعجبت بالجديلة التي صنعتها بشعر لوسي، فأبعد نظره عني. لا أخفيكم أنني كنت خائفة من فكرة ترك أي شيء من جسد بوانا داودي في هذه الأرض السبخة، لكنني رأيت أن الأنسب متابعة ذلك. وهكذا قرر الرجال أن يحملوا جثته إلى زنجبار.

11

تجمعات متتالية من الناس أتت لتنظر. مظهري
وتصرفاتي غالبًا ما يسببان موجة من الضحك.
وقوف مفاجئ لي يتسبب في هرب النساء والأطفال.
لأمنع التلصص على الكوخ الذي أعيش فيه، ولأجعل
المكان داكنًا قدر الإمكان، أمارس الكتابة في الشرفة.
شيتاني، الكلب البودل، والجاموس، وحمارنا الوحيد المتبقي
يستقبلهم القدر ذاته من الفضول والتعليقات المضحكة
الذي يستقبلوني به.

ديفيد ليفينغستون، (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

متأكدة تمامًا، من أن تلك الطاسة الفارغة ميسوزي هي السبب في الكارثة التي كادت أن تصيبنا. عندما فهمت أخيرًا ماذا سنفعل، هاجت وماجت قائلة إن ذلك مستحيل، إننا جميعًا مجانين لمجرد أن فكرنا في هذا، وإننا سوف نندم على ذلك.

قالت: "بربكم! أسمعتم برجال يسيرون من مكان لآخر يحملون

جثة معهم؟"

انفض الاجتماع بعد أن تم الاتفاق. لكن وقبل أن ينفضّ بقليل، وزع قادة القافلة العمل على مجموعاتنا. قال شوبيره إنه لا يمكن تحضير بوانا داودي في المكان الذي كان ممددًا فيه. وقال آمودا إنه ينبغي أن نبني له كوخًا جديدًا. كما واتفق الجميع على ألا يعلم شيتامبو بموت بوانا داودي. وسبب ذلك بحسب سوزي "إن علم شيتامبو بموت بوانا داودي، فسيفرض علينا غرامة باهظة تجفف مواردنا، وعليه لن نتمكن من دفع تكاليف رحلتنا إلى الساحل".

لا بد أن سوزي قد أخبر امرأته بذلك. انطلق قادة القافلة ليجدوا المكان الأنسب لبناء كوخ يجهزون فيه جثة بوانا داودي بينما أرسلوا مجموعة من عامة الباغازي مع الفؤوس لقطع الخشب. أرسلوا كذلك مجموعة أخرى لجمع الأغصان والشتلات.

قال سوزي: "حليمة، بالنسبة لكنَّ أيتها النساء، نحتاج المزيد من الملح". وقال إن وادي سافينه قد اشترى ملحًا من منطقة كالونغانجو، لكنه لا يكفي. كان عليّ أنا والنساء الذهاب إلى القرية ومقايضة القماش والخرز بأكبر كمية نستطيع الحصول عليها من الملح.

أخبرنا سوزي أن نكون حذرين وألا نثير الشبهات. ولهذا طلبت من كانيكي ولايده أن تبقيا مع لوسي والأولاد الآخرين في حال لحقوا بنا. كانت كانيكي امرأة شيرانغو، وعلى ما يبدو كان عملها الوحيد خدمته إذ قلما كانت تختلط مع النساء الأخريات. تعيش في كنفه وتحمل عنه وتخفف عنه تمامًا مثل الولدين العبدين اللذين كانا عنده وأجبره البوانا على إعادتهما.

كعادتهم، أراد الأولاد أن يذهبوا معنا، لكني كنت أخشى أن يفتضح الأمر بسبب كلمة تصدر منهم. آهٍ من الأولاد!

حقيقةً، كان يجب أن أخشى من ميسوزي وليس من الأولاد. إذ ورغم أنها كانت امرأة بالغة، لم تكن قادرة على حفظ سر في صدرها.

ذهبت أنا والنساء إلى زوجة الزعيم الأساسية لنعبر عن احترامنا. كانت محاطة بحاشيتها من النساء اللواتي كن يضفرن شعرهن ويتحدثن ويضحكن. كنّ يضفرن شعرهن بطريقة رائعة. رأيت أن تسريحة أو اثنتين ستناسبان لوسي وقررت في قرارة نفسي أن أجربهما عليها حالما تحل تسريحتها الحالية.

كان أهل شيتامبو يتحدثون لغة مختلفة تشترك مع لغتنا في بعض الكلمات فحسب، لكننا قابلنا أول من قابلنا هناك امرأة شابة، عندما كانت فتاة تعرضت للأسر على يد المازيتو الذين باعوها لرجال كومباكومبا. هربت من تابورا وعادت بعد ثلاث سنوات. كانت تتحدث لغتنا بطلاقة، ولهذا كنا نتواصل ونتاجر بمساعدتها مع نساء شيتامبو.

سألت زوجة الزعيم بمساعدة تلك المرأة الشابة: "كيف ينام سيدك؟"

قلت: "ينام جيدًا".

ترجمت لها المرأة الشابة جوابي.

كنت على وشك أن أضيف إلى جوابي، غير أنني لمحت شخصًا أعرفه. كان شيرانغو يتحدث مع طبيب شيتامبو. كنت متأكدة أنه هو، إذ رأيناه جميعًا يوم وصولنا وكان من السهل تمييزه فقد كان يلبس أنواعًا مختلفة من جلد الحيوان. تساءلت عما كان يفعل معه لكن سرعان ما تذكرت أنه يجب الانتباه إلى ميسوزي التي قالت: "على نحو جيد، نعم". وضحكت ضحكة مدوية.

نظرت إليها بغضب لكنها ظلت تضحك بصوت عالٍ. وكذلك نظرت إليها المرأة الشابة بغضب، ما دفعني للقول: "ينام نومًا هنيئًا".

رددت ميسوزي: "هنيئًا، هنيئًا".

وأضافت: "ينام بعمق حتى إنه لن يستيقظ اليوم".

"ماذا تقصدين بقولك إنه لن يستيقظ اليوم؟ أمريض هو؟"

"هو بخير"، قلت بلهفة ومن دون تفكير حتى أغطي على كلمات ميسوزي. "أعني ليس على ما يرام، لكنه ينام بعمق نومًا هنيئًا".

كانت عينا ميسوزي حينها تمشطان المكان، مثل مستعمرة نمل أسود تفرقت بعد أن رفعت الصخرة التي كانوا تحتها. "كما قالت حليمة. ينام مثل الميت آه!" وحالما نطقت كلمة الميت، وضعت يدها على فمها على الفور.

"هل مات سيدكم في بلدنا؟" قالت المرأة بصوت عالٍ وهي تخاطب زوجة شيتامبو. تحدثن بسرعة بلغتهن فيما بينهن. قالت زوجة شيتامبو شيئًا للمرأة الشابة وقبل أن نتمكن من إيقافها، هرعت صوب كوخ الزعيم تاركة زوجته تحدق فينا كما لو كنا نحن جثة البوانا.

غادرناهنّ أنا وتاويكا على عجل رغم محاولتهن إيقافنا. عدنا مسرعين لنحذر الآخرين، وطوال الطريق وأنا وتاويكا نؤنب ميسوزي. كانت صامتة صمت القبور، يا ليتها صمتت قبل قليل، لكن لا، ليست ميسوزي التي تبقى صامتة في حالات كهذه. وفي عجلتنا، نسيت كليًا أمر رؤية شيرانغو وهو يتحدث مع طبيب شيتامبو.

كان رجال الزعيم يلاحقوننا كظلنا، إذ حالما أخبرنا الآخرين بالخبر المفزع بمعرفة شيتامبو بموت بوانا داودي حتى رأينا حاشيته بيننا. وما هي إلا لحظات وكان شيتامبو بيننا بلحمه ودمه.

12

ضحك النساء مليء بالبهجة. ليس تبسمًا
متكلفًا، ولا قهقهة فارغة؛ بل ضحكًا بهيجًا رنانًا،
صوت يبهج القلب. يبدًا بـ"ها، هي"، ثم تأتي
اللازمة التي يشترك فيها الجميع "هايي!"
ويختمونها بصفق أكفّهنّ معًا،
ويجعلن الناظر إليهنّ يشعر بغبطة عظيمة.
لو أننا كلما قابلنا زعيمًا رأينا غمزة مرحة
من عينيه وهو يضحك، لقلنا إنه رجل طيب
ولم يخب ظننا به.

ديفيد ليفينغستون، (قصة البعثة إلى زمبيزي وروافده).

لا بد أن أقول إنه فاجأنا مفاجأة كبرى، شيتامبو الضخم ذاك. أول ما فعله عندما وصل إلى جماعتنا هو أنه أزاح رأسه الضخم إلى الوراء بصيحة عالية، ورددت جماعته النحيب. ثم استدار نحو شوما وقال وهو يحاول جاهدًا التكلم بلساننا: "لمَ أنتم لم تخبروني الحقيقة؟ أعلم أن سيّدكم،

هو يموت هذه الليلة. لماذا أنتم لم تدعوني أعلم؟ لماذا أنتم تخافون مني؟ أنا صديق طيب، نعم، صديق طيب ومخلص للبوانا، وصديق طيب لكم".

انحنى سوزي وشوما أمام الزعيم، وركع الرجال جميعهم على ركبة واحدة على النحو الذي رأوا فيه جماعة شيتامبو يحيونه ويتوسلون رحمته. أشار شيتامبو إليهم لينهضوا وتنهّد قائلًا: "لا تخافوا بعد الآن، أنا أيضًا، أنا أسافر. أنا أسافر وأكثر من مرة أذهب إلى الساحل، قبل أن يدمر المازيتو الطريق. أنا أذهب إلى الساحل وأنا أعلم أنكم لا تنوون شر، لأن الموت، هو سيء، نعم، وكثيرًا يلاحق الرحالة في الرحلات".

صفق الرجال أكفّهم امتنانًا. لقد أحسنوا التصرف، أستطيع أن أقول ذلك عنهم. أخبروه عن نيتهم في تحضير جثته لأخذها معهم. قالوا إنهم لن يزعجوه بجثة بوانا داودي، فهم يحترمونه إلى الحد الذي لا يقبلون فيه أن يجنوا عليه وعلى جماعته، وعلى أرواح هذا المكان، بسبب جثة رجل غريب. وبينما كان شيتامبو يصغي، ظهرت على وجهه أمارات الدهشة. استشار رجاله، ثم تبع ذلك حديث محتدّ بينهم بلغتهم.

بعد بضع دقائق قاسية، التفت إلى جماعتنا وقال: "نحن تكلمنا، نحن تكلمنا ونحن نوافق ونقول إننا نريد أن تدفنوه هنا. أنتم تخافون ألا أقول نعم، لكن لا تقلقوا، لا أقول لا. أنا أذهب إلى الساحل قبل مازيتو يدمروا الطريق. أنا أرى رجالًا كثيرًا. أنا أيضًا، أنا أسافر. أنا أعلم أنه ليس كل الرجال مثل بعض".

شعرت بالفزع عند سماعي ذلك. ألم أقل، هذا الصباح، إن شيتامبو لن يسمح بدفن الطبيب في أرضه؟ والآن ها هو يكاد يوافق! لكن يجب ألا أقلق. فقد حسم الرجال أمرهم، ورغم أن شيتامبو حاول أن يقنعهم، إلا أنهم كانوا حازمين في قرارهم.

وبما أن الأمر كان على هذا النحو، قاد الرجال إلى أرض أعلى حيث يمكن تحضير جسد بوانا داودي. بعد ذلك عاد شيتامبو إلى قريته، لكنه قال إنه سيعود قريبًا مع جماعته كلهم. إذ كان عليهم أن يتجهزوا لطقوس الندب.

كانت ميسوزي حينها توزع الابتسامات حولها. قالت: "لا شيء لنخشاه، أترون كيف هو؟" ولو سمعتموها تتكلم، لبدا لكم أنها هي ولا أحد غيرها من أمّن لنا جميعًا فضل شيتامبو ومعروفه. لكنني لا بد أن أقول إن العمل كان أسهل دون الخوف من أن يعلم الزعيم أو يسمع بشيء. استطعنا أن نتصرف على طبيعتنا من جديد، ونتكلم بينما نعمل، وندع الأطفال يركضون أينما أرادوا.

ومع ذلك الشعور بالحرية، لم يستغرق الباغازي وقتًا طويلًا في بناء كوخ جديد في المكان الذي اقترحه شيتامبو. لا بد أن أقول هذا عن رجلي آمودا، فهو لا يخشى العمل الشاق. ثمة قادة من أمثال مونياسير وشوبيره ممن لا يفعلون شيئًا سوى الوقوف وإعطاء الأوامر، لكن آمودا هناك مع الرجال، يعمل ويعطي الأوامر في الوقت ذاته. وتحت إشرافه أنهى الرجال قسمًا كبيرًا من بناء الكوخ، رغم أنه كان أقرب إلى الحوش منه إلى الكوخ. كان مفتوحًا من الأعلى ليسمح للشمس والهواء بالدخول، لكنه مغلق ومحميّ من الجوانب بحيث لا تستطيع الحيوانات المتوحشة دخوله.

بعد مدة في ذلك الصباح، ذهب سوزي مع توفيق علي وآديامبري ووادي سافينه وبعض الباغازي الآخرين لزيارة شيتامبو ليطلبوا منه قطع بعض الأشجار. عندما عادوا، كان ذلك ليبلغونا بأن شيتامبو قرر أن تكون بقية النهار مخصصة لجماعته للندب على بوانا داودي. لن تكون هناك زراعة في ذلك اليوم أو أي عمل آخر. وبدلًا من ذلك، فإن جماعته، كما وعد، سيأتون لندبه رسميًا. وصلوا بعد مدة وجيزة. رغم أن شيتامبو

لم يكن واليا لكن مظهره كان مهيبًا، أستطيع أن أقول ذلك عنه. كان يرتدي قماشًا أحمر يغطيه من الكتف حتى الكاحل، وكان يتقدم وجماعته يسيرون خلفه.

ورجاله! كان يبدو كأنهم ذاهبون إلى الحرب، بأقواسهم وسهامهم ورماحهم. كانت تعلو وجوههم وصدورهم علامات بيضاء مفزعة. أطلقت نساؤهم صيحات حادة عالية كانت بين العويل والولولة جعلت دمي يتجمد في عروقي. ثم أتى قارعو الطبل، يضربون طبولهم، بينما كانت النساء تندب، ثم تندب الجماعة بأكملها.

ولئلا يتفوق أولئك عليهم، أطلق الباغازي النار في الهواء، وراحوا يطلقونها مرات ومرات. ولولا إشارة من ذراع آمودا ليكفّوا عن ذلك، لظلوا يطلقون النار من مسدساتهم حتى يفرغ بارودها.

جلس القوم بعد إطلاق النار، ونهض من بينهم رجل يرتدي تنورة من جلد وريش، وعلى طول ساقيه خلاخل من خشخيشات. كان النادب الرسمي. استدار نحو سوزي وسأله أين وُلد بوانا، كم موسم زراعة عاش، وكم ولدًا ترك وما أسماء أسلافه. وأجاب سوزي على أسئلته قدر معرفته.

ضرب الرجل رجليه ببعضهما وأطلق ولولة عالية بينما يدور في مكانه. ضرب رجليه من جديد وغنى شيئًا شبيهًا بهذا: "**ليلو كوا إنجيريسيه موانا سيسي وا كوندا. تو تام تام إنجيريسيه، موانا سيسي وا كوندا**".

كان الأولاد مفتونين به. قال سوزي لفرقتنا إن معنى ذلك هو "مات اليوم الرجل الإنكليزي. كان له شعر مختلف عن شعرنا. تعالوا يا من سترثون الرجل الإنكليزي. كان له شعر مختلف عن شعرنا".

رقص النادب بعض الوقت، هز خلخاله، كرر أنشودته وطلب أجره فأعطاه شوما سلسلتين من الخرز.

سلسلتان مقابل ذلك! لم أرَ مثل ذلك في حياتي. ولا أعلم لِمَ سأل عن مسقط رأسه وعمره وأسلافه وأولاده وغيرها إذا كان كل ما تحدث عنه هو شعره فحسب. كان لدى الوالي شعراء يقومون بما هو أفضل من ذلك بكثير. قلت لميسوزي وتاويكا إذا كانوا في هذه الأرض السبخة يندبون موتاهم هكذا، فإننا لن نغادر عما قريب، أؤكد لكم ذلك.

كانت الفائدة الوحيدة من ذلك أن الأولاد تعلموا لعبة جديدة. "تام تام إنجيريسيه" ظلوا يغنونها بقية ذلك اليوم. "موانا سيسي وا كوندا" كانوا ينشدونها وهم يتخيلون أنهم يهزون خلخالًا على سيقانهم.

قال جاكوب وينرايت لو كان بوانا داودي حيًا لما أحب أن يُدعى بـ"الإنكليزي" لأنه كان اسكتلنديًا. لكنني لم أفهم مقصده من ذلك فقد كان كلاهما، بوانا ستانلي وبوانا داودي، يتحدثان اللغة الإنكليزية نفسها. قلت له ذلك فأجابني إن بوانا الثاني كان أمريكانيًا وليس إنكليزيًا.

كدت أقول إنني أعلم إنه كان أمريكانيًا، مثل القماش، وأن أسأل ما معنى "اسكتلندي"، لكن تاويكا سبقتني وقالت: "كيف سنخرج من الأرض السبخة إذًا؟ فما قالته ميسوزي صحيح. من الصعب السفر برفقة جثة. سيظن الناس أننا ساحرات نأكل الأموات. سيقولون إننا ساحرات. تخيلوا ذلك، أن يقولوا عنا ساحرات".

كانت تتنفس بسرعة وصوتها عالٍ. وأنا أهز رأسي موافقة لها، لاحظت أن جاكوب وينرايت ينظر إليها وكأن ألمًا يعتمل في صدره. قال سوزي: "هذا ما يقوله بعض الرجال، لا يُستحسن أن يرانا سكان القرى الغريبة بينما نحمل جثة".

قلت وقد نسيت للحظة نظرات جاكوب وينرايت إلى امرأة رجل غيره: "كل ما في الأمر أن نخفي الجثة. فكروا بطريقة تجعلونه يبدو وكأنه صرّة سفر".

نظر إليّ سوزي من رأسي حتى قدميّ وقال: "بمخك هذا، خسارة إنك امرأة وأَمَة".

ابتسمت لكنني سرعان ما مسحتها عندما رأيت تاويكا تنظر إليّ نظرة من عرف الأمر. أردت أن أقول لسوزي إن الأمر لن يطول بي وأنا أمَة، فقد مات سيدي وما من وارث يطالب بي، بيد أنني أمسكت لساني إذ لم أضمن ما قد يقول لآمودا في لحظة غفلة.

13

التقليد الليلي للاجتماع حول نار المخيم
والاستمتاع بالقصص، قد بدأ...
بعد أن أبهر سابودو، في صفحة من كتاب الملك سيبا،
سامعيه بأسطورة "القس الطاهر". كانت دائرتنا
مفتوحة للجميع، وكان يحضرها الكثير على نحو متكرر؛
إذ عندما يظهر أن الرواة المحترفين يتلقون مكافآت مرضية،
وأن هناك الكثير من التسلية التي يمكن الحصول عليها،
فإن قلة هم من يستطيعون مقاومة إغراء
الاقتراب والإصغاء، إلا إذا منعهم التعب أو المرض.

هنري مورتون ستانلي، (رفاق السود وحكاياتهم الغريبة).

وإن كنتم تصدقون! حتى بعد كل ذلك، تجدهم لا يصغون. أخبرتهم، أليس كذلك، أنه من الأفضل أن نفتحه ونترك الشمس تتولى الباقي، لكن لا، الرجال يريدون أن يتكلموا ويتجادلوا ويتكلموا ويتجادلوا. بداية، قالوا إنهم سيغمرونه بالبراندي التي تركها له بوانا ستانلي. قال فرج الله كريستي

إن البراندي ستعالجه وتحلله، وكانوا جميعهم جاهزين لفعل ذلك حتى قال سوزي، لا، يجب ألا يستخدموا الكثير من البراندي لأنه يمكن أن نحتاج إليه لاحقًا كدواء.

دواء، أي دواء؟ لا تجعلوني أضحك. لو أردتم رأيي... إن عينه عليه. سوزي يحب البومبي، فعلًا، كانت الشيء الوحيد الذي يقف بينه وبين البوانا، وهو ما سبب له المتاعب أكثر من مرة.

قال بوانا داودي له: "المسيحي لا يتصرف بهذه الطريقة"، وهو ما رد عليه سوزي بالقول: "إذًا تصرفي مقبول، لأنني لست مسيحيًا وليس هناك واجب يدعوني لأتصرف كمسيحي".

هذا ما أثار غضب البوانا إلى أبعد حد. فتلاسنا في يونيانيمبي، إذ غادر سوزي بعد ذلك، وتبعه شوما.

كان بوانا مريضًا. عندما عادا بعد أربعة أيام، سامحهم بوانا داودي. ومع ذلك لم يكن من كل قلبه، أستطيع أن أؤكد ذلك. كان مضطرًا، أليس كذلك، لأنه لو لم يسامحهما، لأصبحنا فرقة بائسة مع آمودا وشيرانغو ومبروكي، والباغازي السبعة الذين تركهم بوانا ستانلي، وميسوزي وأنا.

كان ذلك في الفترة التي قال فيها لتاويكا أن تختار أحد الرجال. حين كانت على وشك أن تختار شوما، غادر هو وسوزي، تاركًا إياها لتختار مبروكي. شعرت أنها حمقاء للغاية، عندما عاد شوما ليجدها مع مبروكي. بكت دلاءً، تاويكا، لكن لو أردتم رأيي... بكاؤها ذاك لم يكن يفطر القلب، مجرد انفعال. والآن إما كاروس فرار أو جاكوب واينرايت هو من تضع عينيها عليهِ، أو ربما كليهما. رأيت كيف ينظر كلاهما إليها، مثل جائع يسيل لعابه على قطعة لحم مشوية.

فعل سوزي ما أراد في النهاية، أليس كذلك؟ بعد أن رش بضع قطرات

فوق جثة بوانا المسكين، أعلن أنه لا توجد كمية كافية من البراندي لأداء العمل، الكلب اللعين. عندها تذكر فرج الله كريستي أن وادي سافينه لديه بعض الملح عندما مررنا عبر أرض كاليومانجوفي، وكان جميع الرجال متفقون على تمليحه. لقد طلب ثمنًا عاليًا مقابل الملح أيضًا، وادي سافينه، أراد ست عشرة سلسلة من الخرز وحزمتان من القماش، الأمريكانو والكاليكو، النذل الجشع. كل ذلك مقابل جرّة من الملح بحجم رأس لوسي. لم تكن الكمية تكفي لتمليح سبع سمكات كبيرة، لا.

البراندي والملح بالفعل. قلت لهم وقلت لهم. كل ما يحتاجون فعله هو أن يفتحوه ويضعوه على الأرض ويتركوا الشمس تتولى الأمر. بعد أن وافقوا أخيرًا أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن فعله، كان عليهم أن يتكلموا ويتكلموا، هذه المرة حول أجزائه الداخلية وأحشائه التي يسميها فرج الله كريستي قلبه، ورئتيه، وكليتيه، وأشياء أخرى.

مضت عدة ساعات قبل أن يوافقوا أخيرًا على استئصالها ودفنها هنا. كنت أرغب في أن أرى أحدًا يحاول أن يجفف الرئتين والقلب والكبد، فعلًا. لهذا كنا كلما ذُبح حيوان في بيت الوالي، كانت فضلة الذبيحة - كما نسميها - هي أول ما نطبخه. كنا نصنع منها جميع أنواع الأطايب وطبقًا خاصًا من بنكرياس العجل.

بعد كل هذا الكلام، أخيرًا، في عصر اليوم الذي ندب فيه شيتامبو، بنى الرجال الكوخ الجديد في المكان الذي أشار إليه شيتامبو، وفيه صنعوا منصة صغيرة ومددوا البوانا عليها بحيث يكون جسده على مستوى صدورهم.

طلبوا مني القماش لتغطيته، وأعطيتهم بعضه، واطمأننت إلى أنهم استخدموا قطعة أمريكانو قديمة، صحيح أنه البوانا، لكن سواء كان سيدًا أم لم يكن، لا داع لتبذير القماش الجيد.

هيّأ فرج الله كريستي وكاروس فرار نفسيهما لفتح جثته داخل الكوخ. كانا خبيرين في أجسام البشر والبهائم، فكلاهما كانا خادمين لأطباء: فرج الله كريستي في زنجبار، وكاروس فرار في بومباي.

كان هيكل بوانا داودي لا يزيد عن العظم والجلد. لم يكن عملًا سهلًا أن تفتح الجثة من السرّة. من تلك الفتحة وصل كاروس فرار إلى داخل الجسم وسحب الأحشاء. خرجت أحشاؤه جميعها معًا، وآه، الرائحة! كان عليّ أن أبتعد إلى الخلف خوفًا من أن أتقيأ، وجاكوب وينرايت، الذي كان يقرأ كلامًا مقدسًا من كتابه الأسود الكبير، توقف عن القراءة وذهب بعيدًا ليستنشق الهواء. وآسماني، أفلت القماش الذي كان يمسكه واستدار راكضًا، واضطررنا للاستعانة برجلين آخرين لحمل القماش.

كنت أتوق لأغادر، وأخبرت الرجال أنني ذاهبة إلى المخيم الرئيسي لأبحث عن وعاء لأجزاء بوانا داودي الداخلية. كان المخيم قد بني فوق أكثر أرض جافة وجدناها في هذه المستنقعات. كان هناك مساحة لبناء خمسة أكواخ بسيطة وكبيرة تشاركتها النسوة والأولاد، وفتيان ناسيك، وكوخ أصغر منفصل لبوانا داودي. بقية الرجال كانوا يتناوبون على النوم في العراء ومراقبة المخيم.

والآن، لا أعلم من المفسد الذي أخبر الأولاد أنه سيُفتح في ذلك اليوم، لكنني وأنا أسير خلف آسماني، رأيتهم متجهين في جماعة نحو الكوخ، متشوقين ليروا أعضاء بوانا داودي الداخلية، تلك المخلوقات المريعة! قدتهم إلى المخيم الرئيسي، وفي الطريق، كان عليّ أن أفض بعض الشجارات بين الأولاد وهم يتجادلون حول ما إذا كانت أعضاؤه الداخلية بيضاء بقدر بياض أعضائه الخارجية.

بعد أن استنشقت ما يكفي من الهواء، عدت أحمل تنكة قديمة

للطحين اعتقدت أنها ستكون كبيرة بما يفي بالغرض. وضع كاروس فرار وفرج الله كريستي القلب في صندوق من التنك إلى جانب الأعضاء الداخلية الأخرى. وبينما كان الذباب يحوم حول كومة اللحم الداكن، أشار كاروس فرار إلى كتلة من الدم، بحجم قبضة آمودا الغاضبة، كانت موضوعة بجانب رئته اليمنى. قال كاروس فرار إن من الواضح أنه كان مريضًا جدًا، لأن رئتيه كانتا ذابلتين ومغطاتين ببقع بيضاء وسوداء.

بينما كانوا يفتحونه، كان بعض الباغازي يحفرون قبرًا لأعضائه الداخلية. كان هناك جدل حول دفن السكين التي فتحوه بها. قلت إنني سأغسل السكين بالقدر الكافي، لأنها كانت أجود سكين لدينا. لكن الرجال نظروا إليّ مذعورين واتفقوا على دفنها.

ثم دق ماجوارا على الطبل لنداء الفرقة. قرأ جاكوب صلاة الجنازة، وفي حضرة الجميع، وارينا قلبه في التراب. وعلى شجرة بوندو فوق قبر قلبه، حفر جاكوب وينرايت اسم بوانا داودي وتاريخ موته.

بعد ذلك، لم يكن هناك شيء لفعله سوى ترك جسده معرضًا للشمس. ظل الرجال يراقبونه ليلًا ونهارًا لئلا يلحق به أذى. رغم أن الرائحة التي فاحت منه كانت تتغلب عليهم، والذباب يحوم، ظلوا يراقبونه، وقفوا يقظين يحرسون لحمه وعظامه في مجموعات مؤلفة من أربعة أو خمسة. كانوا يغيرون وضعية جسده مرتين في اليوم، بحيث تتعرض جميع أجزائه للشمس بالتساوي.

ظل الرجال وقتًا يتجادلون حول الأجزاء التي تتدلى منه دون عظام ترتبط بها. لم يظنوا أنني سمعتهم، لكن آه، العناء الذي تجشموه ليقرروا ماذا يفعلون بهذه الأجزاء، الاستشارات العابسة، والتهامس فيما بينهم! قد تعتقدون أنها أهم جزء من الرجل، لو سمعتموهم يتكلمون. وبالطبع، لم

يريدوا أن تعلم النساء عمّا يتكلمون.

سرعان ما قاطعت همسهم المكروب.

قلت: "فيما لو قطعتم تلك الأجزاء الآن، أو انتظرتم حتى تجف وتقع أو تنكمش، فإنها ستسقط منه لا محالة، سيحدث هذا، كيفما اعتبرتم الأمر. ربما عليكم أن تقطعوها الآن، وتدفنوها مع البقية، وينتهي الأمر".

نظروا إليّ بفزع يكاد لا يخفى.

قلت: "إذا أعطيتموني سكين فرج الله، فسأقطعها بنفسي، نعم سأفعل. لقد قطعت تيسًا أو اثنين في حياتي، نعم فعلت، وبسرعة. كان هناك تيس مرة في بيت الوالي..."

قال آمودا: "حليمة!"

نظرت نظرة سريعة إلى وجهه وأسرعت ذاهبة. أمضيت بقية وقت العصر أعمل مع النساء بعيدًا عن الرجال. لذا لا أعلم ماذا قرروا أن يفعلوا بشأن تلك الأجزاء، لكن ما أعرفه هو أنه كان هناك مزيد من الحفر حول شجرة مفولا، في الليل هذه المرة. ضحكنا أنا والأخريات حتى شبعنا عند التفكير بالرجال يجتمعون بجدية في الليل ليدفنوا الأشياء التي تجعل بوانا داودي رجلًا. لكننا بذلنا ما في وسعنا حتى نضمن أن الرجال لم يعرفوا لماذا كنا نضحك.

14

والآن وأنا أبدأ رحلة جديدة في إفريقيا
أشعر بالبهجة؛ فعندما يسافر المرء بهدف محدد
لتحسين أوضاع السكان الأصليين
يصبح أي عمل عملًا نبيلًا...
لذة السفر البحتة في بلاد متوحشة
غير مكتشفة هي لذة عظيمة. عندما تكون على أرض
بارتفاع عدة آلاف من الأقدام، فإن التمرين السريع يمنح
العضلات مرونة، ويدور دم صحي وجديد عبر الدماغ،
يعمل العقل جيدًا، وتكون الرؤية واضحة، والخطوة ثابتة،
ويجعل جهد النهار من راحة المساء متعة كبيرة.

ديفيد ليفينغستون، (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

عرفت أن التجفيف لن يستغرق أكثر من أسبوعين، وكنت محقة. كلما كان الرجال يذبحون تيسًا، كان يستغرق أمر تجفيفه عشرة أيام، أو حتى أقل، إذا جعلنا اللحم شرائط. لم نستطِع جعل بوانا داودي شرائط،

المسكين! ورغم أنني شبهته بتيس، لكنه بالتأكيد ليس تيسًا، ذلك صحيح، ولكن مع ذلك، فقد انكمشت جميع أجزائه ذات اللحم ولم يتبق منه سوى الجلد والعظم، لذا عرفنا أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا.

لم تكن تلك المدة لانتظار مضي الأسبوعين فحسب، بل تاجرنا بقدر ما نستطيع مع قوم شيتامبو وحضرنا المؤونة للطريق. كانت الأيام مليئة بصخب التجارة، وسلخ التيوس من أجل اللحم، وطحن الدقيق لإعداد الخبز، وتصنيف أغراض البوانا الطبيب واختيار ما يمكن مقايضته.

شيرانغو فاجأني، لا بد أن أقول ذلك. شيرانغو ذاك نفسه الذي كان كسولًا إلى حد أنه اشترى ولدين من الرقيق لحمل أغراضه، الآن لا يدع أحدًا يقترب من حمولته. كلما لعب الأطفال قرب حمولته صاح فيهم لكي يبتعدوا.

كان بعد أن صرخ في وجه لوسي عندما أخبرته أنني رأيته يتحدث إلى الطبيب في قرية شيتامبو. تلوّن وجهه فجأة، وقال: "حسنًا، يا حليمة، ليس شيرانغو من يقول إنك لم تري ما رأيته أو إنك رأيت ما اعتقدت أنك رأيته، لأن شيرانغو لا يعرف قدرتك على النظر من مسافة بعيدة، لكن كل ما سيقوله شيرانغو هو أنك، إذا لزم، رأيت ما تعتقدين أنك رأيته، يستطيع شيرانغو أن يقول فحسب إنه يطلب العون من كل من يقدر على مساعدته في معرفة ما إذا كانت أحواله ستتحسن".

كانت لوسي حينذاك تسحبني من يدي، بينما كان شيرانغو يتكلم ويتكلم عن مزاعمه حول هذا وحول ذاك. عندما يشرع في التحدث عن مزاعمه، ما من شيء يمكنه من إيقافه. ابتعدت في الاتجاه الذي سحبتني إليه لوسي، تاركة إياه يتحدث إلى الهواء.

في الليالي القليلة التالية التي كنا ننتظر أن تجف جثة بوانا داودي، وبعد أن أنهينا العمل، كنا نجتمع كما اعتدنا أن نجتمع قبل أن يصيبه

المرض. فعندما كان بوانا داودي مريضًا، وفي اليومين اللذين تليا موته، لم نجلس كالمعتاد. أما الآن، فمع أيام الراحة التي أمامنا، تابعنا أيامنا القديمة.

اجتمعنا حول النار لنحكي القصص. الذين يتذكرون منا، رووا قصصًا عن الأماكن التي جاؤوا منها والقصص التي سمعوها عندما كانوا أطفالًا. كانت هناك متعة في سماع تلك القصص، وفي الانسجام معها والشعور بالترقب والقلق عندما تشير السيدة المقنعة بإصبعها الفاتن، وباللهفة عندما تُكشف طبيعتها المرعبة. الكثيرون منا ضحوا بالنوم مقابل هذا. كانت ميسوزي أكثر ما تحب القصص المخيفة من بين تلك القصص، جميعها حول أشباح شيتاني والأرواح التي عاشت في البر والبحر. لكننا عندما ذهبنا للنوم وحدنا، كان يرافقنا شعور بالخوف. كان القلب يدق أسرع بقليل، وظللنا قرب النار مزيدًا من الوقت، لكننا نجحنا في إقناع أنفسنا بأنها مجرد قصص، وحتى لو كانت حقيقية، فقد حدثت مع أناس في أماكن بعيدة منا، وليس هناك ما يخيف على الإطلاق.

في معظم الأوقات كانت تتخلل القصص بعض الأغنيات، ولم يكن من غير الشائع أن تثير الأغنيات الحماس أكثر من القصص، وأن تجعل ماجوارا يتناول طبله، والأطفال، وبعض الرجال أيضًا، يرقصون.

عندما كان شيرانغو يروي قصصه، كان يعزف على آلته الموسيقية جاري. كان صوته جميلًا عندما يغني، أستطيع أن أقول عنه ذلك. لكن أغانيه وقصصه دومًا تقع ثقيلة على القلب لأن جميعها حول مملكته الضائعة، والناس الذين كانوا فيها، مثل نياسيمبا جامع الملح، الذي ترك بيته في مدينة الحجارة العظيمة وسافر شمالًا ليؤسس مملكة جديدة، وابنه نابنهيوي ماتوبي، الذي عاقبه أسلافه لخداع أخته نياميتا نيهاندا ومضاجعتها، وشيوكو، الذي خدعه البرتغاليون وأخرجوه من مملكته. عندما كان يعزف

على الجاري وهو يتكلم عن تلك الأماكن البعيدة، كان ماجوارا غالبًا ما يرافقه على الطبل.

عندما كان بوانا داودي حيًا، كان يحب الاستماع إلى القصص والأغاني، لكن ليس بقدر بوانا ستانلي عندما كان معنا. كم كانت مفاجأة أن يقطع بوانا ستانلي كل تلك المسافة من بلاده، أمريكا، ويسير نزولًا من الساحل إلى يوجيجي لإنقاذ بوانا داودي. كان يحب قصصنا، بوانا ستانلي. رجله بومباي قال إن بوانا ستانلي قد عزم على أن يكتب كتابًا عن كل تلك القصص التي نرويها، ومن سيرغب في قراءته؟ لا أعرف...

لكل واحد منا أسلوبه الخاص في رواية القصص. كان سوزي يحب أن يحكي القصص التي كان والده يرويها له، القصص التي كانت متشابكة مثل شباك الصيادين في شوبانغا. أحب أن أسمع صوته. لا أحد يعلم أكثر منه عن أمزجة البحر وكيف يستجيب للقمر والشمس فوقه، الزّبد الذي يشكله عندما تتربع الشمس وسط السماء، والوميض الذهبي عندما تغوص في الأفق. يألف حركة المد والجزر كما يألف حركة أطراف جسده. من المدهش أن يمضي إنسان مولع بأمزجة البحر وتغيرات المحيط جل حياته بعيدًا عنه، لكنه يبرر ذلك بالقول إنه يريد أن يجني المال الكافي لصنع مركبه الخاص الذي سيبنيه بنفسه من الخشب والحبال.

كنا نعرف كيف أصبح كل واحد منا برفقة البوانا: فتيان ناسيك الذين أرسلهم بوانا ستانلي جميعًا أنقذوا عندما كانوا أطفالًا. ورغم أن شوما لم يكن من ناسيك، إلا أنه أنقذ أيضًا. انضم إلى البوانا في عمر خمس عشرة ربيعًا. بيع من والده الذي كان زعيمًا بين الياو، إلى جانب أمه وأختيه. كان سوزي وآمودا رجلين حرّين. لم يستعبدوا من قبل. انضموا إلى بوانا داودي في شوبانغا، ثم سافرا معه إلى الهند، وعادا.

ثم كان هناك الرحالة مثل مبروكي وبوليدي مونياسير. وبالطبع كان هناك الباغازي الأدنى، ومعظمهم إما جاء من ناسيك أو وظفوا على الطريق من يوبانيمبي، وليس لديهم تاريخ مشترك مع البوانا.

أما الآن، فبدلًا من رواية القصص المعتادة، والقصص التي تحكي عن الأماكن التي جئنا منها، أو حتى القصص التي يحبها الأطفال، تحدث الرجال عن ذكرياتهم عن البوانا بينما كنا ننتظر جثة بوانا داودي لتجف.

كانت تلك مساءات مرحة. كان الرجال حينها ثملين من شرب البومبي التي كان شيتامبو يرسلها يوميًا لتبعد روح بوانا داودي. جميعنا تحدثنا بأمور من هنا وهناك عنه، وبالطبع كنا نتكلم عنه عندما كان بيننا، لكن المرء لا يستطيع أن يتكلم بحرية عن رجل عندما يمكنه أن يسمعه يتحرك في كوخ على بعد بضعة أمتار. وكان بوانا داودي يفهم ألسنتنا جيدًا فكان الكلام عنه آنذاك مستحيلًا.

لكنه الآن ممدد ليجف في كوخ من الطين، غير قادر على سماعنا، المسكين، وكان بإمكاننا أن نتكلم عنه بحرية كما نتمنى. سوزي وشوما، اللذان ظلا معه أطول مدة، هما من تكلما عنه بأكبر قدر. حتى شوما، الذي يفضل عادة الاستماع، كان راغبًا في الكلام. تحدثوا عن كل ردود الفعل التي استجاب بها الناس عندما كانوا يرون بوانا داودي، الضحك، والدهشة، والسخرية، والإشارة. عدد ليس بقليل من الأطفال الذين قابلوهم في رحلاتهم انفجروا بالبكاء عند رؤيته واضطرت أمهاتهم إلى مواساتهم.

قال سوزي إن أحدًا لم يفاجأ بقدر مفاجأة رجل في بيت سوزي في شوبانغا، الذي رأى البوانا يستحم في نهر. فقد أخبر الآخرين أن كل موضع في جسده كان بالفعل أبيض تمامًا، لكن دماغه خرج عندما كان يغسل شعره، ثم عاد إلى داخل رأسه.

ظل البوانا بعض الوقت حتى استطاع أن يقنع القرية أنه ليس هناك سحر، وأن الصابون الذي كان يستخدمه هو الذي شكل تلك الرغوة البيضاء التي بدت لكما لو أنها تخرج من جلده.

قال سوزي: "وتستطيعون أن تتخيلوا ماذا شعر بوانا داودي عندما دخلنا بعض القرى واقترب من الأطفال، صرخوا فزعين عندما رأوه".

ضحك شوما: "نعم، حتى إن بعض الأمهات استخدمنه لإخافة الأولاد وجعلهم يحسنون التصرف. كن صالحًا، أو سأنادي الرجل الأبيض ليأتي ويأكلك".

حتى إنهم ضحكوا أكثر عندما تحدثوا عن بعثته إلى نهر زمبيزي، ووصف شوما كيف لم يستطِع القارب التحرك.

"إنه بالفعل أغبى ما سمعت في حياتي. ربما كان كانغا متمرسًا في الطب وهذه الأمور، لكن من سمع بقارب يبحر عكس تيار النهر وليس معه؟"

"كان هناك جزء من النهر كانت مياهه أسرع، يسميها السكان المحليون تيارات كيبراباسا السريعة، واعتقد بوانا داودي أن مركبه يستطيع ببساطة أن يبحر عكس تلك التيارات السريعة".

قال سوزي إن بوانا داودي كان فقيرًا عندما كان طفلًا، وبالفعل إذا سمعه المرء يتكلم، فسيشعر أنه أقرب إلى أن يكون عبدًا، يعمل ويعمل ويعمل مثل عبد في النهار، ثم يتعلم ويتعلم ويتعلم من كتبه في الليل لكي يصبح كانغا. لا عجب في أنه لم يرغب في العودة إلى بلاده، لأن الحياة هناك تبدو بلا طعم، كل ذلك التعلم والعمل والعمل والتعلم. قال سوزي إن بلاده شديدة البرودة والظلمة، لا ترى الشمس إلا لمامًا. عجِبت للتفكير في أنه قد ترك أولاده يعيشون تلك الحياة.

قال آمودا: "لا تحزني عليهم. هم على ما يرام".

قال سوزي: "أرادنا جميعًا أن نتبع دينه المسيحي، لكنه فشل معي، أستطيع أن أقول لكم ذلك. لا آبه لكل ذلك. حتى شوما، جعلوه مسيحيًا في الهند، ولم يكن هناك ما يفعله البوانا. لم يكن ذلك من فعل البوانا".

عندما انفجر سوزي ضاحكًا، اكفهر وجه جاكوب وينرايت.

قال مونياسير: "وسمعت من بوانا سبيك أنه كان يتشاجر طوال الوقت مع البيض الآخرين، ولهذا السبب كان يسافر وحيدًا".

"وهل تتذكر ويكوتاني يا شوما؟" قال سوزي بصوت عالٍ عندها وهو مسرور "لم يكن خطأ ويكوتاني، بل كان ينفذ أوامر شخصٍ آخر. وعندما كنا نريد أن نخرج معه، كان بوانا يقول إنه سيبيعنا إن ذهبنا معه".

بدأوا يتحدثون معًا وكان من الصعب معرفة كل من ذكروهم. من بين كلامهم قول ماريكو: "وكان هناك سيشيلي"، فما كان منهم إلا أن ضحكوا ملء أفواههم. قلت مشددة: "لقد تحدثتم عن سيشيلي هذا من قبل".

قال الرجال وهم يضحكون: "من هذا، ولِم تسمون مبروكي سيشيلي؟"

قال سوزي: "كان سيشيلي سلطانًا في بلاد ماكولولو، في الجنوب. تحوّل إلى المسيحية على يد البوانا. فقد عالج البوانا ابنه من الملاريا وشفي. وعرفانًا بذلك من سيشيلي، وافق أن يتنصّر. وبعد أن حوله إلى المسيحية، جعله البوانا يهجر زوجاته".

سألت تاويكا: "زوجاته؟ وماذا فعلن ليهجرهنّ؟"

قال شوما: "ليس لأنهن أخطأن، لكن لا يجوز أن يكون للمسيحي أكثر من زوجة. لذا طلب منه البوانا أن يختار واحدة فقط ويرسل البقية إلى أهلهن".

قال شوما: "وتركن أولادهن أيضًا. قال البوانا إنهم ولدوا في الخطيئة، لكنهم في ظل سيشيلي، سيعتنقون الدين الجديد".

قلت بفزع: "أعادوهم كلهما"

قال سوزي: "لا تقلقي بشأنهم يا حليمة. عندما عاد بوانا داودي إلى بلد سيشيلي وجد أن كل زوجاته قد عدن إليه، وبعضهن كن حوامل كذلك".

اقترب الرجال من مبروكي وربتوا على ظهره وضحكوا ثانية وهم ينادونه سيشيلي.

قال جاكوب وينرايت بصوت متزن رنان: "كانت نقطة ضعف البوانا أنه لم ينثر البذور أبدًا".

قال سوزي: "ونثرهم سيشيلي بدلًا منه. تمامًا مثل رجلك مبروكي يا تاويكا. سيظل ينثرهم فيك إن لم يكن قد نثرهم من قبل".

"لقد أسرفت في الشرب يا سوزي" قال جاكوب وينرايت والشريان في جانب عنقه يختلج. رأيته ينظر إلى تاويكا بينما يتحدث، لكنها كانت غارقة في أفكارها وغير مبالية به.

قال سوزي: "لا ليس كثير لأنك تعلم من أسرف في الشرب وشرب الكثير، أليس كذلك؟ زوجة البوانا. معروفة بشربها الكثير".

قال إن زوجة البوانا ظلت تشرب حتى ماتت. وإنها راكمت الديون على نفسها لدى من كانوا يبيعونها مشروب البومبي. آلمني التفكير في أولئك الأطفال المساكين في تلك البلاد البعيدة الباردة والمظلمة والفقيرة، مع أم ماتت من كثرة الشرب، وأب مات يبحث عن الأنهار ويتجول وكأنه لا يملك بيتًا أو وطنًا. ولهذا سألت شوما إن كان يذكر أسماءهم.

"أكثر ما كنت أعرف من أولاده ابنته أغنس التي كان يتحدث عنها كثيرًا وكان يسميها ناني الصغيرة". وعندما بدأ يعدد أسماءهم، بدأ سوزي يعد على أصابعه. "روبرت، واحد. أغنس، اثنان. توماس، ثلاثة. ويليام، أربعة. أوزويل، خمسة. زوغا، ستة. آنا، سبعة. ماري، ثمانية".

قال شوما: "والرضيع، عشرة".

"هل كل هؤلاء أولاد ماما روبرت وحدها؟" قالت تاويكا وهي تعد معهم.

"لا عجب أنها ظلت تشرب حتى ماتت". قالت ميسوزي.

"عشرة أولاد تعتني بهم وحدها ولا أحد يساعدها في العمل".

قلت: "ربما كان الأكبر يعتنون بالأصغر. من يعلم أن الأمر لم يكن كذلك؟ كان للوالي حرمة كان لها أخت أنجبت الكثير من الأولاد ولم يتزوج زوجها غيرها مع أنهم كانوا يلحون عليه بذلك. كان الولد الأكبر يعتني بالأصغر وهكذا".

قال شوما: "لكنك لم تعد على نحو صحيح يا سوزي".

رفع سوزي صوته. كانت هذه عادته الدائمة عندما يسرف في الشراب. رفع صوته وكأنه يشاجر مع أنه لا أحد قد أساء له. كان صوته عاليًا وكان بوسعه أن يتشاجر مع شجرة حتى.

قال جاكوب وينرايت: "ألم يكن لديه ستة أولاد وخمسة منهم أحياء؟ شوما على حق. لقد أخطأت في عدهم".

عبس شوما. لم يكن يحبذ أن ينجده أحد حتى جاكوب وينرايت. لذا أضاف بسرعة: "كان اسم ابنه الأصغر زوغا. وهو ذاته ويليام الذي هو نفسه أوزويل".

قلت: "إذا لابنه الثالث ثلاثة أسماء. هل تقصد أن كان له ثلاثة أسماء مثل المحمديين الذين يذهبون إلى مكة؟"

قال جاكوب وينرايت: "بل اسمان. كان زوغا اسمه الثاني لأنه وُلد بقرب نهر يحمل الاسم ذاته. كان هذا الاسم للدلال. وآنا هي ذاتها ماري. لقد عددت خمسة أسماء وفي الحقيقة هم اثنان. واحد بثلاثة أسماء والآخر باسمين".

قالت تاويكا: "ولم لذلك الولد بالتحديد اسمان؟ ولم ليس لباقي الأولاد أكثر من اسم؟"

قالت ميسوزي: "ربما من وُلد بقرب النهر له ثلاثة أسماء، أليس كذلك؟ من ولدوا بجانب النهر فحسب لهم ثلاثة أسماء".

تجاهل جاكوب وينرايت السؤال. أمسك قطعة خشب وانحنى ليضعها في النار، فكشف لهب النار عن الغضب الذي ارتسم على وجهه. لطالما كان يتظاهر بأنه يعلم أحوال الوازنغو أفضل من شوما وسوزي، ولا يحتمل أن يسأله أحد كثيرًا. كان البوانا بالنسبة لكثير منا هو الوحيد من الوازنغو الذي عرفناه، لكن جاكوب التقى بغيره وقرأ كتبهم وهو يتحدث لغتهم وكأنه كان واحدًا منهم.

كان دائمًا يقول لنا إنه التقى بأكثر من واحد منهم. كان من بينهم كابتن السفينة التي أنقذته وبحارتها الذين كانوا يساعدون الكابتن. ثم قابل مدرسي الوازنغو في الهند الذين علموه الإنكليزية، وذاك الذي منحه اسمه هذا وأهداه بزته وكتبه، ثم بوانا ستانلي الذي جلبه إلى هنا ومن بعده بوانا داودي.

عندما كان يتحدث مع بوانا داودي، كانا يتحدثان بسرعة، أسرع من حديث البوانا مع سوزي وشوما. لكنه لم يكن يجيب دومًا على الأسئلة التي نسألها. وعندما نسمعه يتحدث عن الوازنغو، أجد أن لا معنى كان للأشياء التي كانوا يفعلونها أحيانًا.

والمحمديون أيضًا ليسوا أفضل منهم. لكنهم على الأقل لا يحاولون أن يكونوا منطقيين. هم يخبرونك ما هي عليه الأشياء، وأنت حر إن أخذت بها أم لم تأخذ، وإن لم تأخذ بها، فسيجعلونك تأخذ بها. لكن جاكوب وينرايت يريد أن يقنعنا أن هذا الإله كلي القدرة لكنه غير قادر على إيقاف

القتل بسبب الفيضانات أو منع الحيوانات من أن تهاجم البشر.

عرفت من خلال اهتمامه المفاجئ بالنار أنه لم يكن يعرف معنى تلك الأسماء بلغة الوازنغو. فاسمي حليمة يعني "تلك التي تتمتع بسجية لطيفة متسامحة". سمتني أمي بهذا الاسم لأنها عرفت أي نوع من البشر سأكون. وليس مثل سرية الوالي الثالثة، تلك التي من سيركاسيا والتي سمت ابنها نسيم، نسيم الذي يعني "الريح اللطيفة"، لكن الصبي لم يجلب لأهله سوى المتاعب. كان الرياح التي تهب من الساحل في فصل الأمطار، الرياح التي تقلب القوارب وتقلع الأشجار المزروعة حديثًا ولا تقدم خيرًا لأي أحد. عندما طلبت من جاكوب وينرايت أن يشرح معنى أسماء الوازنغو تلك، انتابته مشاعر كهذه. لا يحتمل الاستجواب صراحة.

عاد سوزي من الشجرة التي كان قد ذهب إليها ليرتاح قليلًا. قال وهو يتناول مشروبه: "هل عددتم الرضيعة الذي كان في الصحراء؟" شرب كثيرا ثم قال: "ما كان يجب أن تموت". فقال شوما: "سوزي، لا ينبغي أن تتحدث هكذا". قال سوزي متجاهلًا إياه: "لكن ما صار صار".

سألته عن الأمر وعن أي رضيعة يتحدث وفي أي صحراء ماتت. قال سوزي: "خرج الطبيب بعيدًا في أرض ماكولولو مع ماما روبرت التي ولدت هناك في الصحراء ومات المولود، وبدا عليه عدم التأثر لذلك".

قال ماجوارا بغضب: "لكنه كان رجلًا طيبًا. أعطاني هذا المعطف، أنقذ حياتي، افتداني وعالجني وشفاني من الحمى".

عرفت أن قلب ماجوارا متعب ولهذا أخذته وذهبنا. قلت له: "اسمعني الآن، قد يفعل المرء الخير وهو سيء، ويفعل السوء وهو خيّر. تذكر أفعاله التي تشعرك بالراحة فحسب".

لكنني في الحقيقة لم أكن مرتاحة. نظرت إلى الكوخ حيث كان الدخان

يرتفع فوق جثته. أي نوع من الرجال كان؟ ضحك الرجال من أمر سيشيلي، لكنني بقيت أفكر في تلك الزوجات المسكينات اللواتي طُلب منهن العودة إلى أهلهن لا لشيء إلا لأن زوجهن قد وجد إلهًا جديدًا. كيف سيشرحن ذلك لأهلهن؟ ماذا يمكن أن يقلن لهم؟ من كان بوانا داودي هذا ليخزي تلك النسوة بتلك الطريقة، ليخزيهنّ أمام أهلهن وجماعتهن، ليتصرف بتلك الطريقة ويذهب ويعود بعد سنوات؟

لم يكن كثير الفضول عندما أتحدث إليه، ولم يبدُ أنه يبالي بكونه محاطًا بالمحمديين والناسيكيين ومن مثلي، ممن كانوا لا يبالون بالإثنين.

سألني مرة بماذا أؤمن. أجبته بالقصص التي كانت أمي تخبرني إياها والتي كنت أرويها عند الاجتماع حول النار. كانت قصصًا سمعتها من عبيد آخرين، قصصًا عن كل مكان. كانت عن خلق الكون والإنسان الأول، كينتو، والمرأة الأولى، وامبوي. قال لي إن تلك مجرد قصص وإنه يسأل عما أؤمن به، فأخبرته أنني لم يسبق وأن أزعجت نفسي بأسئلة وأمور كهذه، في حين عليّ أن أعد الطعام وأن بوسعه الذهاب إن كان يريد أي شيء لأنه بالفعل يؤخرني عن عملي.

أي صنف من الرجال كان ذاك الذي كان يظن أن أشياء تافهة مثل تدفق نهر أهم من حياة طفل؟ كيف استطاع أن يعالج ماجوارا ويشفيه ويعطي معطفه لغريب، وفي الوقت ذاته يحرم أولاده الذين من دمه ولحمه من الطعام؟ وهبني ابنتي لوسي التي أحبها وكان يعتني بها عندما تصاب بالحمى والأمراض الأخرى، ولكنه في الوقت ذاته لم يستطِع أن ينقذ أولاده.

تذكرت حزنه على غرق الكلب شيتاني عندما كانوا يعبرون نهرًا. ومن شدة حزنه سمى ذلك المكان مياه شيتاني. كل ذلك الحزن والتذكار لكلب. كيف يمكن لرجل حزن كل ذلك الحزن على كلب أن يترك ولده يموت؟

بحثت عن كلمة فظّة قالها البوانا داودي لي، غير التوبيخ الذي نلته منه بعد أن هربت بسبب تاويكا، فلم أجد. نعم كان يأمر بضرب شيرانغو ورجال آخرين عندما يستحقون ذلك. إلا أنه عفا عن سوزي وشوما عندما هربا، وعني عندما هربت. من يدري ربما عفا عنا لأنه كان بحاجة إلينا جميعًا.

فكرت في طيبته معي. لقد اشتراني لآمودا ووعدني بمنزل في زنجبار. وكذلك فكرت بما حدث مع نساء مانويما في نيانغوي، وكيف انفطر قلبه على تلك النسوة المسكينات ووعده أن يكتب عما حدث بحروف من نار ليخبر العالم بما رأى. كان ذلك كثير من الطيبة منه.

أكان ذلك يستحق كل هذا العناء؟ أكان هو يستحق؟ ماذا كنا نفعل؟ نعيد أبًا إلى أبنائه؟ ابنه الصغير المسكين عاش بضع سنوات فحسب، ربما كان سبب ذلك أن بوانا داودي نفسه لم تكن حالته في بلده أفضل من حال العبيد.

أخبرتني أمي، ظافرين، مرة، إنّ الخير الذي ينمو على الأرض ما هو إلا الأفكار الطيبة للناس الطيبين المدفونين فيها، والشر هو الأفكار السيئة. ولهذا يوجد الخير والشر في العالم. لا أعلم إن كانت تؤمن بذلك أم كانت مجرد حكاية من الحكايات التي ترويها للأولاد. إلا أنه وفي ذلك المساء ومع مروري بجانب الشجرة التي دفن فيها قلبه وأحشاؤه، شعرت بالسرور من فعلتنا بالذهاب لدفن معظم جثته في بلده. ولتكن ما تكن شروره التي ستنمو في أرضه. فكرت في المجهول الذي ينتظرنا، وللمرة الأولى منذ أن أقنعت الرجال بإعادة بوانا داودي إلى بلده، شعرت بالخوف.

II

موِيلي وا داودي[3]

مدينون لذكاء وتعليم جاكوب واينرايت العالي
على الوصف الأول
للأشهر الثمانية عشر الحافلة التي رافق فيها الفرقة.

هوراس والر، في (مذكرات ديفيد ليفينغستون الأخيرة).

بعد تلك الفاجعة، شرع جاكوب واينرايت
في كتابة يوميات، وظل يكتب لتسعة أشهر مضنية
كانوا فيها يشقون طريقهم إلى الساحل، حاملين
بقايا جسد سيدهم الفانية.
إنها أهم سجل لرحلاتهم.

رسالة من الموقّر ويليام برايس،
صحيفة *Times* 18 نيسان/إبريل 1874

3 جثمان ديفيد Mwili Wa Daudi (المترجمة).

كان الموقّر ويليام برايس - الذي درب في محطة التبشير في ناسيك قرب بومباي "فتيان ناسيك"

الذين أعادوا بكل نبل جثمان ليفينغستون إلى موطنه - قد نقل إلى مومباسا مؤخرًا

مجموعة كبيرة من العبيد المحررين الذين وُجدوا في سفن العبيد التي قبضت عليها طرّاداتنا،

وانكبّ على متابعة تعليمهم في ناسيك. حرص على تدريب الأطفال على يديه في فنون صناعية متنوعة إلى جانب الديانة المسيحية.

تقرير معتمد من المجلس الكنسي

الذي عقد في بليموث في 3، و4، 5، و6 تشرين الأول/أكتوبر 1876

1

4 أيار/مايو 1873

المدخل الأول من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يورد المزيد من التفاصيل عن آلام الطبيب الأخيرة، ويروي كيف اكتشف الصبي ماجوارا الفاجعة، ويصلي من أجل العيش في ظل من رحمة الله وغفرانه.

الحمد لله رب موسى ويعقوب، الذي خلق العالم ونفخ الحياة في جميع الكائنات كبيرها وصغيرها، إله الرحمة والمغفرة الذي أحب العالم حتى إنه ضحّى بابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل لتكون له الحياة الأبدية، الله الذي أقام الميثاق مع شعبه المختار، ووهب خادمه الكلمة.

بعد معاناة طويلة مع ألم جسده، عرف الطبيب الراحة الأبدية. لقد عبر إلى الضفة الأخرى، لينضم إلى الجمع الكثير الذي لا يستطيع أحد أن يعدّه، رجاؤهم الأبدي في الكلمة التي صار جسدًا. ناديتك وقلت لك: إنك عبدي وأنا اجتبيتك، ولم أستر ذلك فلا تخف. ليرحمنا الله ويهبنا نعمة العيش في كنف رحمته الإلهية، ويحشد الصالحين والصدّيقين في يوم الدينونة.

كان الفتى ماجوارا هو الذي وجد الطبيب، ميتًا على ركبتيه، ويداه متشابكتان تحت رأسه المحني. وكان عندما دخلت أخيرًا مع الآخرين أن وجدت مذكراته بجانبه، وقلمه على الأرض. من الواضح أنه حاول كتابة رسالة وداع مؤثرة ربما، أو ليقوي عزيمة أولئك الذين تركهم خلفه ليحافظوا على رباطة جأشهم، غير أني بدل أن أرى كلمات مفهومة، لم أجد سوى خربشات غير واضحة يليها خط طويل مذيّل. كان آخر ما كتب في مذكراته في 27 نيسان/إبريل، قبل أربعة أيام، اليوم الذي وصلنا فيه إلى قرية شيتامبو، إذ يقول: "وصلنا أخيرًا، سنبقى... نتعافى... أرسلت لشراء ماعز حلوب. نحن على ضفاف نهر موليلامو".

كنت من أوائل من رأى الطبيب. كان ذلك بعد أن تشاور قادة البعثة مع بعضهم وأيقظوني أنا وبقية الباغازي. هكذا هي الأمور معهم، ماثيو ويلينغتون وكاروس فرار هما من يعتبرونهما قادتنا نحن السبعة من مدرسة ناسيك. وكل ذلك لأنهم يضحكون ويبتسمون معهم، كل ذلك لأنهم يشربون البومبي ويمضغون ورق القات كما لو أنهم باغازي صرف. ومع ذلك فإنني أنا، المهمل والمهمش، من هو القائد الحقيقي للرجال، وذلك لأنني لا أتردد في قول ما يدور في خلدي وأخبرهم حين يرتكبون خطأ. أنا لا أخشى أحدًا، ولم أتردد يومًا في الإشارة إلى الخطأ حتى وإن كان الطبيب نفسه هو من ارتكبه.

كان يدعوني "جاكوب المتعصب" لأنني كنت - كما يقول - أجدّ من يوحنا الإنجيلي. هكذا سخر من رسول الله! لكنني سامحته. نعم، سامحته. لا ريب عندي أنه تكلم هكذا لأنه لم يكن قادرا على مجابهة الحقيقة في كلامي، فقد كانت كلماتي مثل قضيب مشتعل في غلاية ملتهبة، وأنا فخور بموهبتي في الإقناع.

في المدرسة في ناسيك، كلما أردت أن أناقش مسألة في اللاهوت، كنت غالبًا ما أجد أنه ليس هناك حولي من أستطيع أن أناقشه في الأمر، لأن مجموعات صغيرة من كل من الأساتذة والطلاب الآخرين قد تفرقت مقابل مقاربتي، غير قادرة على مواجهة قوة يقيني.

لكن لست أنا من يقدّم خيباته الشخصية على الأمور الأخرى. وبدلًا من ذلك، اتجهت عيناي إلى عرش السماء. لأنني أعلم يقينًا أنه بفضل جهودي وصلواتي المتواصلة نهض الطبيب ليصلي. أعلم أن ما فعلته هو السبب في أن الطبيب قد يعرف الراحة الأبدية في نعمة مطلقة.

رغم أن قلبي كان منكسرًا غير أني لم أستطِع إلا أن أشعر بالغبطة. فقد كنت لشهور آنذاك أحاول أن أصرف اهتمام الطبيب نحو يوجيجي، ومن هناك إلى الساحل ثم إلى سفينة متجهة إلى موطنه إنكلترا.

وكنت أتخيل نفسي برفقته على ظهر تلك السفينة، أقاسي تقلب الأمواج إلى أن أُرسَّم في نهاية الرحلة كاهنًا وأغدو أخيرًا المبشر الذي لطالما حلمت أن أكونه. إذ ليس أعز إليّ من أمنية غير ذلك. هي الأمنية التي تشغل عينيّ في ساعات يقظتي، والحلم الذي أسند رأسي إليه في الليل. لا شيء يثير عاطفتي أكثر من أن أتصور نفسي عائدًا إلى موطني، لأجلب الخلاص لأولئك الذين باعوني للعبودية. لكن لا، لا لأكون مخلّصهم، فالمسيح وحده هو القادر على ذلك، وحده يسوع لديه تلك النعمة. بل كي أكون وسيلة للخلاص فحسب، ذاك ما أرجوه، أن أجلب محبة الرب وخشيته.

كنت سأتحدث مع الطبيب عن حلمي بالتبشير، لكن كل ما أراد الحديث عنه هو حلمه الخاص. فقد كان لا ينفك يتحدث عن شلالات هيردوتس. كان يأمل في أنه بإيجاده تلك الشلالات التي تكلم عنها

الإغريقي القديم، فسيجد منبع النيل.

كان يقول مرارًا: "سأبلي أحسن من سبيك وبورتون، كان عليهما أن يتبعا هيرودوتس". كنت أتشكك في الأمر وقد عبرت له عن شكوكي. لم أفهم كيف استطاع أن يضع ثقته، ناهيك عن إيمانه، في كلمات رجل مات وشبع موتًا وكان لا يعلم عن تلك الشلالات سوى ما وصله من تقارير!

ذكرته بأنه أخبرني أن هيرودوتس هذا لم يرَ الشلالات بنفسه، بل كان يكتب ما يسمع فحسب. فقلت له: "لا أستطيع أن أدّعي أنني أعرف هذه الأماكن التي كتب عنها هيرودوتس، لأنني لا أحيط من العلم بقدر ما تحيط أنت، لكنني أخشى أن هذا الرجل يضللك".

نظر حينها إليّ نظرة فيها مزيج من الدهشة والانزعاج.

سألني: "ماذا يكون عساك أن تعرف عن الأمر؟" وكان يتكلم مصدومًا كما لو أنه يتلقى النصيحة من العصافير التي كانت تطير فوقنا.

قلت له: "أعطيتني هذا الكتاب لأقرأه"، ورفعت بيدي الكتاب الذي يدعوه كتاب بطليموس، "وأنظر كيف يصف فرس النهر. يقول عنه إنه حيوان بحجم الثور وله أربعة قوائم ذوات ظلف، وله لبدة وذيل كالحصان، وأنياب بارزة، وجلد قاسٍ إلى درجة أنه إن جفّ يمكن أن تصنع منه رؤوس الرماح. لكن كما يعلم كلانا - إذ رأيناه - فإن المخلوق أبعد ما يكون في الحقيقة عن وصفه. دعنا بدلًا من ذلك نقرأ الكتاب المقدس معًا ونصلّي".

قال بنزق: "لقد قرأت الكتاب المقدس بتمعن أربع مرات في السنوات الثلاثِ الأخيرة. لن أجد منبع النيل هنا. هيرودوتس هو من يجب أن أعتمد عليه".

آلمني أن أسمعه يناقش بتلك الطريقة المتعجرفة سيد الكتب، كما

لو أنه يمكن أن يُقارن بكتابات إغريقي لا شك أنه عاش حياة مليئة بالمعصية. فالإغريق كانوا يؤمنون بآلهة عديدة، بآلهة تتصرف كالبشر وتشتهي النساء وتغير هيئتها للحصول عليهنّ. كانت تلك الآلهة تعشون حياة مليئة بالفجور والغيرة وأنجبوا أولادًا خارج رباط الزواج، كما لو أنهم كانوا مجرد كائنات فانية، بل أسوأ من ذلك، فليس هناك مسيحي يتصرف كتلك الآلهة الوثنية.

قلت مشددًا: "ليس من العدل أن يضع المرء إيمانه في أولئك الحكماء الذين كانوا يعتقدون أن الأرض مسطحة، أليس كذلك؟"

قال: "لست جغرافيًا، يا جاكوب. ثم ماذا تعرف عن الأرض المسطحة؟"

عرفت أنني أدهشته عندما تفوهت ببعض معارفي التي اكتسبتها في مدرسة ناسيك. وفي تلك المواقف، كان ينظر إلي نظرة متشككة وفكهة نوعًا ما، تلك نفسها التي كان قد نظرها إليّ عندما ذكرت هيرودوتس وفرس النهر. لشدّ ما أحزنني أنه بدا ذا عقلية شبيهة بعقلية أساتذتي العجائز الذين كانوا يعتقدون أن من ينتمون إلى العرق الأسود ليسوا في حاجة لمعرفة غير قابلة للتطبيق مباشرة، وأن علينا أن ينحصر تعليمنا في المهارات التي يمكن أن نستخدمها في مساعدة المستكشفين والمبشرين عندما يذهبون إلى أرضنا الولادة، وأن معرفتنا يجب أن تقتصر على ما يمكن أن نعمله بأيدينا.

ورغم أنني تكلمت هكذا، إلا أنني لم أكن قادرًا على إقناعه بصرف تفكيره نحو موطنه. وهكذا نذرت نفسي لإعداد روحه لموطنها الحقيقي. فلأنه ليس لنا موطن دائم في الأرض، نتوق دومًا إلى موطن بعيد. عندما أدركت أن النهاية باتت وشيكة، صليت لروحه كل ليلة طوال الشهر الفائت. قلت للرب: "ما حياتنا؟ إنها بخار، وهذه الليلة ربما تستدعى

روحه. احفظه يا رب واجعله حاضرا لساعته الأخيرة". وهكذا استجاب لي المسيح الذي يمحو كل الذنوب.

وبينما كان الرجال يتحدثون حول النار، ناقشوا فيما بينهم ماذا كان يفعل وهو جاثٍ على ركبتيه، وقال فرج الله كريستي: "يبدو أنه كان يصلي".

قال سوزي: "لكنك تعرف بوانا داودي، ربما كان في نوبة هذيان، خطرت في باله فكرة أو ملاحظة أراد أن يكتبها في مذكراته".

رغم أني بقيت صامتًا، فقد كنت أعرف أكثر منهم. من نعم الله أنه اختارني لأكون الوسيلة الإلهية لأظهر قدرته، أن يموت الطبيب على ركبتيه، في ظل عناية الله ورحمته. ففي الساعة التي سبقت وفاته، نهضت من خيمتي وقد انتابني هاجس، فتوجهت إلى كوخه. كان الرجال في الخارج نيامًا، وكان ماجوارا في الداخل. كان الطبيب مستلقيًا على ظهره، عيناه مغمضتان، تنفسه سطحيًا ومنتظمًا.

وبينما كنت أراقب صدره يعلو ويهبط، تملكتني القناعة بأنني أستطيع أن أكون وسيلة شفائه. فدعوت وأنا أرفع عينيَّ إلى السماء قدرة الروح القدس. وضعت يدي على كتفيه. فانفتحت عيناه. كان واهنًا بين ذراعي وهو يقاومني. قلت متحاشيًا إيقاظ الصبي دعاءً حارًا أخيرًا لروحه الخالدة. غادرت الكوخ وعدت إلى مكاني.

كلي يقين أن قوة إيماني جعلته ينهض بعد أن تركته، وجعلته يكمل الصلاة التي بدأتها له. وها هو الآن نائم لا علم له بشيء، ولن يستيقظ قبل نفخة البوق الأخيرة. عندها سيزن أعماله في الميزان ويشهد يوم القيامة. وأنا أعلم أن روحه آمنة. فلو لم أدخل لأصلي للطبيب، لما نهض على ركبتيه، وختم بذلك حياته في الدنيا في بركة من الله.

2

6 أيار/مايو 1873

المدخل الثاني من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يقيم واينرايت صلوات الشكر على نعم العناية الإلهية الوافرة أثناء تأمله كيف انتقل من الظلام إلى نور الله ونعمته.

عندما تنشر هذه المذكرات، وهو ما آمل أن يحصل، سيكون قراء هذه الحكاية، بلا ريب، على معرفة بمدرسة ناسيك التابعة للمجتمع التبشيري، الذي أتيت على ذكره أكثر من مرة. وهي المدرسة الفريدة من نوعها، لأنها تأسست لتعليم الفتيان الذين قبض عليهم عبيدًا ثم حررتهم الزوارق الحربية البريطانية. لقد تجاوزت شهرة هذه المدرسة حدود إمارة بومباي في الهند، حيث تقع في ساهارينبور، مدينة الملاذ.

ولتنوير من لم يتعرفوا إليها حتى الآن، لعله يكون من الجيد أن أشرح أنها تأسست على يد الموقر ويليام برايس، في سنة 1854 من سنوات الرب، والآن تقع تحت إدارة الموقّر تشارلز ويليام إيزينبيرغ، الذي تميز بمنشورات عديدة، أبرزها معجم اللغة الأمهرية التي يتكلمها أهل الحبشة في القرن الإفريقي.

حتى أولئك القراء الذي يمكن أن يكونوا على معرفة بمدرسة ناسيك، مع ذلك ربما يتساءلون من هو جاكوب وايترايت الذي يخاطبهم باعتباره مؤلف هذه الصفحات. ما أصله؟ وكيف أصبح الأكثر تعليمًا والأعظم إنجازًا والألمع من بين خريجي تلك المدرسة الممتازة؟ وكيف حصل أن كان على ارتباط وثيق بالدكتور ليفينغستون في آخر أيامه، حتى إنه أنقذ روحه من جحيم اللعنة الأبدية؟

لا بد أن أعترف أنني بطبيعتي منكفئ على نفسي، ولست في العادة من النوع الذي يرغب في أن يفرض نفسه. بل إني أميل في الواقع إلى تجنب اهتمام العامة قدر المستطاع، لأن ذلك من أبغض أنواع الانتباه بالنسبة إليّ. لكن الإجابة عن هذه الأسئلة المهمة يتطلب مني، في هذا المدخل، أن أفعل ما كان يجب فعله في البداية، وهو تقديم وصف عني، وأن أشرح للقارئ من هو جاكوب وايترايت هذا الذي يتحدث عن نفسه باعتباره مألوفًا للقارئ.

عندما أتأمل في حياتي المبكرة، فإني أصلي شاكرًا لخروجي من ظلام العبودية. فقد ولدت - شأني في ذلك شأن شوما رجل الطبيب - بين شعب الياو، حيث كنت أدعى ثينغا، الابن الوحيد لمابيرا، وهو صياد، وغوندا، زوجته الثانية. كانت لي أخت، تدعى جميله، بالإضافة إلى أخوة وأخوات من زوجتَي أبي الأولى والثانية. غير أن أسماءهم غابت عن بالي اليوم، فقد مضى عمر منذ أن أخذوني من موطني.

جنى شعب الياو - وهو من أكثر الأعراق مهابة ورهبة - ثروة عظيمة من الاتجار بالبشر. فقد كانوا متمرسين في بيع العبيد، على أنه لم يكن معروفًا عنهم أنهم يبيعون مَن مِن لحمهم ودمهم. فكان سوء حظي نتيجة للعداوة الطويلة بين أبي مابيرا وأخيه، وهو زعيم شعر بضعف في سلطته

واستشعر تهديدًا في كل من له قرابة دم معه، فاتّهم إخوته بالشعوذة - وهو اتهام خطير في تلك الأنحاء - وحكم عليهم وعلى زوجاتهم بالموت.

ثم باع أولاده وزوّج بناته للغرباء. بيعت أختي لتكون محظية، وبعت أنا إلى جانب أقرباء آخرين إلى تجار عرب، ساروا بنا إلى الساحل.

لم أكن حينها قد بلغت الثامنة من عمري. أذكر من تلك الرحلة أني كنت مع رجال ضخام ومرعبين بدوا لي كأنهم مخلوقون من شعر فحسب. لست أذكر سوى الخوف والمسير، والمزيد من الخوف والمسير، المسير لعدة أميال حتى وصلنا إلى الساحل. وهناك سلمونا إلى مجموعة من الرجال، الذين علمت لاحقًا أنهم كانوا عربًا سواحليين. أما الذكرى الأخرى التي ما تزال في مخيلتي فهي المياه، الكثير من المياه، مياه تمتد أمامي مثل حقل لا نهاية له. ثم الإحساس بأنني أتخبط على متن سفينة شراعية في المياه، والإبحار مع الآخرين - كما عرفت لاحقًا - إلى زنجبار، حيث كنا سنُباع في سوق العبيد.

كنا في عرض البحر لمدة بدت كما لو أنها الأبدية عندما سمعنا صيحة تقول: "**موزونغو! موزونغو!**" كان خاطفونا العرب قد صاروا في حالة هلع إثر هذه الكلمة. استداروا نحونا، نحن أسراهم، ليعطونا أوامر مرعبة: علينا جميعا أن نقفز إلى البحر! وقالوا إننا إذا لم نفعل، فسيأتي الموزونغو ليقبضوا علينا ويأكلونا.

كثر ممن كانوا في السفينة الشراعية كانوا، مثلي، من بلاد الياو. كان وقع كلمة "موزونغو" على أسماعنا شبيهًا بكلمة "مازيتو"، وهم جماعة من لصوص غوني من الجنوب وهم الوحيدون الذين كان الياو يعتبرونهم أكثر إخافة منهم. حتى عمي، الذي كان يسيطر على قومه بقبضة من حديد، يرتجف من فكرة احتلال المازيتو لأرضه. لو كان أولئك الموزونغو بذلك

العنف، فستكون تلك بالتأكيد نهايتنا.

تلا ذلك فوضى وكثير من الارتياع، وقفز الناس من حولي رأسًا إلى الماء. تملكني الخوف، فمهما كان أولئك الموزونغوزيتو مرعبين، مياه البحر المظلمة والموحشة في الأسفل أخافتني أكثر. علقت مع مجموعة صغيرة من الأسرى الذين توجهوا إلى مقدم السفينة، وهناك، مرتجفًا مع الآخرين، اختبأت.

قبل مضي وقت طويل، جاءت نحونا سفينة أضخم، بدت كما لو أنها تتحرك بسرعة مخيفة. حينها قفز المزيد من الأسرى إلى الماء. وما بين الفزع من أن يأكلني الموزونغو أو أن أغرق في المحيط، ظللت متجمدًا في مكاني. كان هناك اثني عشر أو أكثر معي، وجميعهم صبيان. جثمنا محاولين أن نخفي أنفسنا بانتظار المجهول.

سرعان ما سمعت صوت وقع أقدام ثقيلة تخطو في سفينتنا. وخلال لحظات، أصبح خاطفونا أنفسهم أسرى. ومن مقدم السفينة حيث كنت جاثمًا، رأيت الموزونغو، رجال ببشرة غريبة يرتدون ثيابًا بيض وحول وجوههم من الشعر ما لدى العرب. وكان هناك آخرون أيضًا، رجال من عرقنا، لكنهم كانوا مخيفين مثل رفاقهم، فقد كانوا يرتدون أزياء شبيهة بأزياء الرجال ذوي البشرة والشعر الغريبين.

كلا المجموعتين من الرجال تحدثوا بلغة لم نفهمها، حتى قال لنا أحدهم بلغة الياو إنهم جاؤوا ليأخذونا. اقترب أحد الرجال السود مني، وحملني إلى صدره وأنا متيبّس من الخوف. آخرون فعلوا الشيء نفسه مع الصبيان الآخرين. كنا مع ذلك أكثر فزعًا وقاومنا ذلك الخطف الجديد، حتى فهمنا أخيرًا أنهم لم يريدوا أكلنا، بل إنقاذنا. إنقاذنا وأخذنا إلى أين؟

الوطن لم يكن واردًا: فقد كنا محاطين بالمحيط من كل جانب. وحتى

لو سألونا أين موطننا، فكيف سنستطيع أن نعرف؟ كل ما رأيناه حولنا كان المحيط اللامتناهي. لم يكن في مقدورنا أن نقول أين موطننا حتى لو أردنا ذلك.

لم أفهم ما حدث في ذلك اليوم إلا قبل دخولي المدرسة بسنتين.

كما قد يعلم قرائي، فإنه قبل الإمساك بنا بسنوات عديدة، ألغى البريطانيون تجارة العبيد على طول المحيط الهندي. وربما ما لا يعرفه القراء هو أن هذه التجارة البغيضة كانت مع ذلك تزدهر على طول ساحل المحيط الهندي. ولهذا السبب، أقامت القوات البحرية البريطانية حواجز على طول الساحل لمنع وصول العبيد إلى زنجبار، ولمنع وصول أولئك الذين بيعوا إلى بلاد فارس والجزيرة العربية والهند.

كانت السفينة التي أنقذتني، ***SS Daphne***، من بين أسطول صغير كان يطوف المياه ليستعيد العبيد من السفن الشراعية المتجهة شرقًا. وعند إنقاذهم يرسلون ليبدؤوا حياة جديدة في الهند، ويؤخذ أصغرهم سنًا إلى مدرسة ناسيك، وهي مأوى ومنزل للصبيان المساكين الذين قُبض عليهم ولا يستطيعون العودة إلى ديارهم.

إلى تلك المدرسة في ساهارينبور في محمية بومباي أُخذت مع الأسرى الآخرين. وهناك في تلك المدرسة هجرت اسم ثينغا وأصبحت جاكوب، وريث الخلاص الذي أُنقذ من الشقاء في ملكوت المسيح.

في الثلاثين من تشرين الثاني/نوفمبر من كل سنة تحل ذكرى ميلادي التي اخترتها بنفسي، وهي أيضًا ذكرى تعميدي، أصلي لله ولبركات من الله على أولئك الذين أنقذوني من مصير لا يعلمه سوى الله. كان يمكن أن أبقى في زنجبار أو في عمان، أو حتى في الهند، حيث سينتهي بي المطاف، لا رجلًا حرًا ابن المسيح الذي أنا عليه اليوم، لا، بل لن أكون أفضل من عبد

وثني، أبعد ما يكون عن الخلاص، غارقًا في الظلام.

كنت ممتنًا أشد الامتنان للذين أنقذوني، للبحارة على متن سفينة *SS Daphne*. وكانوا نصب عيني على الدوام، هؤلاء الرجال الذين أنقذوني. لكن لم يكن البيض منهم هم من أناروا طريقي، بل الآخرين، السود مثلي، الذين يدعون أنفسهم "كرومن"، هم من أعطوني لمحة رائعة عن الرجل الذي يمكن أن أكونه.

كانوا من فريتاون (المدينة الحرة) في بلاد سيرا ليون على الساحل الغربي لإفريقيا. كم بدا لي اسمًا رائعًا عندما فهمت أخيرًا أن هذه المدينة الحرة كانت مدينة أسسها عبيد مسيحيون عائدون من إنكلترا، مدينة يجاورها بلد يدعى ليبيريا أسسه عبيد مسيحيون من أمريكا! أرضان من الضياء، تعيشان في جوار ووفاق، يحكمهما أولئك الذين عرفوا ما يعني أن يكون الإنسان مقيدًا للآخرين بقيد العبودية، وما يعني أن يصير حرًا باسم يسوع!

كان عمل الكرومن من فريتاون هو عمل الحرية بالفعل، فقد كانت وظيفتهم التنقل على طول ساحل المحيط الهندي على متن سفن الحربية التي تبحر في عرض البحر. كانوا يصفون قواربهم على المياه المليئة بالمخاطر ويمدون مجاذيفهم لسحب الغرقى. كان أحد هؤلاء الرجال هو من رفعني وأنا أرتجف فزعًا من مقدم السفينة حيث كنت أختبئ.

في مدرسة ناسيك، صار لي اسم جديد. تلقيت أنا والأطفال الذين أنقذوا التعليم باللغة الإنكليزية، وتعلمت مهارات مثل النجارة، واللحام، وبناء السفن، ورسم الخرائط، والحدادة، والزراعة. لم تجذبني أي منها بقدر ما جذبتني خدمة الرب، المخلّص. انتهزت أول فرصة لأتلقن تعليم العقيدة المسيحية لكي يكون بمقدوري أن أُعمّد.

قدّم أسقف من إنكلترا يدعى وايزرايت المال لكي يتلقى عشرة صبيان

التعليم الداخلي في المدرسة. وتبرع أيضًا بنسخ من الكتاب المقدس وكتاب القدّاس كهدية عمادة. اقترح الموقر برايس - أو بالأحرى أمر - أن يتبنى العشرة الذين اختارهم الموقر واينرايت اسمه ليكون اسما لنا، مع أنه قال إننا أحرار في اختيار أسمائنا المسيحية. وهكذا شجعنا الموقر على اختيار أسمائنا بأنفسنا من الكتاب المقدس.

فكرت بداية في أن أتخذ الاسم المسيحي نفسه الذي يحمله الطبيب، أي "ديفيد"، مقابل جالوت الإثم والجهل! لكن "جون" كان الاسم الذي اجتذبني. فقد كان اسم كل من يوحنا المعمدان والرسول يوحنا الذي باركه الله وأنعم عليه بفتح عينيه لرؤياه المجيدة. ورغم أنني لم أفهم على الدوام ماذا رأى الرسول، أو الختم السابع أو الفرس الشاحب، أو الوحش الذي خرج من البحر والوحش الذي خرج من الأرض، بيد أن قراءة سفر الرؤيا تملؤني بقناعة مطلقة بمجد الرب.

جذبني في اسم جون أنه كان الاسم المسيحي للسيد بونيان، الحالم العظيم، الذي وهب الرؤى التي رآها ودوّنها بإخلاص في كتابه (**رحلة الحاج من هذا العالم إلى ما هو آت**). لقد تمعنت في تلك الصفحات، بل في الواقع لقد بكيت أثناء قراءتها، إذ إنني دائمًا ما كنت أجد فيها شيئًا جديدًا وصادقًا. لو أنعم الله عليّ برؤى كهذه، لعددتُ أن واجبًا عليّ تدوينها.

بهذا القدر كنت أتفكر في اسم جون. لكنني قبل أن أتمكن من إعلان تفضيلي إياه، كان الآخرون قد رأوا الموقر برايس وأبلغوه بالأسماء التي اختاروها لأنفسهم. كانوا يرغبون أن يعمدوا بأسماء، ماثيو، ولوك، وتيموثي، وجايمس، وجون. وهكذا كان اسم جون قد أخذ قبل أن أزمع أن أسمّى به، وقد أخذه بعد ذلك فتى أعرف أنه أبعد ما يكون عن استحقاقه.

قال الموقر برايس إنه من الصعب أن يكون هناك اثنان يحملان اسم

جون وايترايت في المدرسة، وبما أن الفتى غير المستأهل قد اختار أولًا، فإن عليّ أن أختار اسمًا آخر.

كانت صفعة مريرة. صليت للرب أن يكشف لي اسمًا جديدًا. ولم أصلّ لأمر لمدة يومين سوى ذلك، إلى أن فتحت الكتاب المقدس على سفر التكوين. فوقع بصري على الفور على المقطع الذي يسأل فيه ملاك فنيئيل: ما اسمك؟ وقفز الجواب جاكوب من الصفحة مثل شهادة.

بدا كأنه جواب الرب لي. لم أتمالك نفسي من التفكير في أن جاكوب كان يُدعى أيضًا إسرائيل. أي اسم سيكون ملائمًا أكثر من اسم أبي الأسباط الاثني عشر، وبينها سبط يهوذا التي ينتمي إليها الملك داود، جد المخلص يسوع المسيح؟

وفي ثقة كاملة باسمي الجديد، قرأت المقطع التالي بتمعن لم يسبق أن قرأت بذلك التمعن من قبل: "لا تخف لأني فديتك. إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تُلدغ، واللهيب لا يحرقك. لأني أنا الرب إلهك قُدّوس إسرائيل، مخلّصك".

وهكذا تركت خلفي اسمي الوثني ثينغا، وجئت إلى نور المسيح كخادمه الذي يحمل اسم جاكوب. وفي مدرسة ناسيك، وجدت سفينتي، وقواربي، ومجاذيفي. وكما استخدمها الكرومن لإنقاذ حياة الآخرين، سأستخدم نعمة ربنا يسوع المسيح وخلاصه. شعرت يقينًا بواجب التبشير. عليّ أن أصير راعيًا في قطيعه، أتعهد خلاص إخوتي وأخواتي الوثنيين وسموّهم الأخلاقي. عندما أخبرت الموقر إيزنبيرغ بذلك، قال لي فحسب: "حسنًا، حسنًا. دعنا لا نتسرع، لأنك، بالتأكيد، تنوء بحمل كونك أسود".

في الواقع قلت إنني لا أفترض أنني سأشرف على الخراف البيضاء، بل السوداء فحسب. ستكون مهمتي التبشيرية في إفريقيا، حيث ما يزال

الكثيرون يتمرغون في الجهل والشهوة، تواقين لخلاص الحياة الأبدية.

سأعمل لإنهاء العبودية الحقيقية في قارتي، العبودية للظلام والوثنية، التي ليست التجارة الخبيثة بالبشر سوى مثالًا مؤلمًا عنها.

وكبولس، الذي كان اسمه شاول، وولد كما ولدت في الظلام ثم رأى النور، أردت أن أنشر كلمة المسيح بين الوثنيين. تمامًا كما نشر بولس النور بين أهل كورنثوس وغلاطية، وأهل أفسُس وفيليبّي، وأهل كولوسّي وتسالونيكي والعبرانيين وأهل رومية، سأنشر نور المسيح بين الواغوغو، والوايامبا، والوابيسا، والواموييني. سأنشر نوره في بلاد مانويما وبيشوانا، وبين الباروتسي والماتابيلي.

نور المسيح سيشع فوق قوم الياو، القوم الذين باعوني للعبودية، الذين من عملهم جاء خلاصي. من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب سيسطع نور المسيح بجلاله، حتى أطراف الأرض. لأن النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه. فلتكن مشيئتك، آمين، يا رب.

3

8 أيار/مايو 1873

المدخل الثالث من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يتأمل واينرايت في مغادرته مدرسة ناسيك واللقاء الأول له مع الطبيب ليفينغستون.

كنت أعرف عن الطبيب ليفينغستون قبل أن تقع عيناي عليه في مدرسة ناسيك بمدة طويلة. ليس لأن أعماله وكلماته كانت تتصدر الجرائد التي كانت توزع علينا فحسب، بل إنني كنت، في اجتماعاتنا الأسبوعية كما في دروسنا، أعده منارة لكل ما هو ممكن.

كنت أبجّل تعهده أرضنا الولادة، الغارقة في الظلمة. في الخطابات التي كان يلقيها أمام الجمهور في إنكلترا، ويخاطب فيها خير وعظمة لندن، كان قد خاطبني أيضًا، أنا الصبي المحلي الصغير في الهند. أصغيت باهتمام شديد إلى كلماته التي كانت تلقى علينا في الاجتماع، انكببت أتأمل في رحلاته في صحيفة *Illustrated Times*. صلّيت له وللكثيرين الذين كان يهديهم إلى المسيح في أرضنا.

عندما جاء إلى المدرسة عندما كنت مجرد صبي في الرابع عشرة من

عمره، استطعت بجهد أن أتمالك نفسي. كان ذلك في سنة 1866 ميلادية. كان آنذاك في بداية هذه الرحلة التي لقي خاتمتها المأساوية في قرية شيتامبو. كانت زيارته إلى مدرستنا حدثًا عظيمًا، حدثًا عظيمًا لدرجة أنه قبل شهرين من وصوله، كنا نجتمع اجتماعًا خاصًا على شرفه.

كان علينا إلغاء الاجتماع عدة مرات. كانت ظروف الإبحار السيئة السبب في وصول الدكتور ليفينغستون إلى الهند بعد شهر من الوقت الذي بدأنا نتوقع قدومه. عندما وصل أخيرًا، كان يرافقه أسقف كالكوتا. بعد ذلك أبلغنا الموقر إيزينبيرغ أنباءً رفعت معنوياتي. فالطبيب لم يكن يمر مجرد مرور على مدرستنا، بل جاء ليوظف فتيانًا منا في بعثة. كان سيختار منا عشرة فتيان لمرافقته إلى إفريقيا.

تجرأت على الاستمتاع بفكرة أنني سأكون من بين الذي سيختارهم، أنني سأكون بين أولئك الذين سيتعلمون على خطا المبشر العظيم، وأن أمتلئ بالروح التي دفعته للسفر عبر البر والبحر. ومثله، سأعبر غابات أرضنا الولادة المظلمة وأدغالها وأنيرها بقوة جلاله الساطع.

وها هي فرصتي أخيرًا للعودة إلى بلادي مبشرًا. استحوذت تلك الفكرة عليّ؛ أن هذا الطريق يمتد أمامي ليعيدني إلى أهلي وإلى أمي، وأبي، وأختي من جديد، وربما أسامح عمي على خطيئته في بيعنا. ربما أجلب لشعبي الخلاص الذي وجدته وأودعهم رحمة إلهنا يسوع المسيح ومحبته.

في اليوم الذي تلا الاجتماع الكبير، طُلب من عشرين منا أن يقفوا أمامه. كان يرافقه رجلان من عرقنا. تمعنت عيناي في كل جانب من مظهرهما. كان الأصغر يرتدي زيًا إنكليزيًا، والأكبر يرتدي زيًا عربيًا من النوع السواحلي. قدموهما إلينا، جايمس شوما وعبد الله سوزي، مرافقيه الذين خدماه طويلًا.

عندما التقت أعيننا، غمزني سوزي. ونظرت بعيدًا.

أما بالنسبة للطبيب، فلا بد أن أعترف أنه كان مخيبًا. فقد كان يضم ذراعه اليسرى متصلبة إلى جسده، قال لنا إن ذلك نتيجة لهجوم أسد شرس عليه وكاد فيه أن يفقد ذراعه وحياته معًا. كان من الصعب عليّ أن أوازن بين هذا الرجل الضئيل الهرم أمامي، بشعره الرمادي وذراعه اليسرى المتصلبة، مع الصورة التي رسمتها له في عقلي لرجل ضخم فارع الطول يفتح قارة للمسيح. لماذا؟ طوله يكاد لا يزيد على طولي، وأنا في الرابع عشرة سنة من عمري فقط. ففي معطفه الرمادي الطويل، وبنطاله الأسود، يمكن أن يكون أيًا من معلميَّ في المدرسة. كان رأسه مجردًا من القلنسوة التي يظهر مرتديًا إياها في جميع الرسوم. كان بالمجمل رجلًا أكثر ضآلة وأقل جاذبية مما كنت أتوقع.

أعتقد أنني تركت انطباعًا عني لدى الطبيب أفضل من الانطباع الذي تركه لديَّ، فقد قدموني إليه كفتى واعد من أفضل الفتيان. كنت أتدرب من أجل هذه اللحظة. في البداية اعتقدت أنني سأبهره بقوة ذاكرتي في حفظ آيات الكتاب المقدس. لكنني في النهاية اخترت أن أؤثر فيه بكلماته هو، الكلمات التي حفظتها من خطاب ألقاه في الأشهر التي سبقت إبحاره إلى الهند. فقد نشرت في مجلة *Illustrated Times* اللندنية. والآن وأنا أتذكر الكلمات التي اقتبستها منه، وبعد الأسى الذي مر فيه، تبدو نبوءة على نحو غريب.

قلت له: "أتوسل إليكم أن تلفتوا انتباهكم إلى إفريقيا. أنا أعلم أنني بعد بضع سنوات سأعلق في تلك البلاد، المفتوحة الآن، فلا تجعلوها تغلق ثانية. أنا عائد إلى إفريقيا لأشق الطريق أمام التجارة والديانة المسيحية".

ضحك الطبيب وربّت على كتفي. وعندما ضحك بدا وجهه حيويًا،

وبرقت عيناه للظرافة. قال إنني فتى يافع لماح، لكني كنت صغير السن، أصغر من تولي العمل.

أصابتني خيبة أمل. وبشعور بالحسد والحنق، راقبت الذين جرى اختيارهم يمضون: أبراهام بيريرا، وريتشارد ايزنبرغ، وآندرو بويل، وجايمس براون، وسايمون برايس. لم أستطِع أن أفهم لماذا أخذ الطبيب هؤلاء الفتيان غير الجديرين بدلًا من أخذي، أو، حتى لو لم أكن أنا، فعلى الأقل ويليام جونز الذي كان على الرغم من أنه ليس بجدارتي لكنه على الأقل أكثر موهبة من الآخرين.

كظمت شعوري بالحرقة ونذرت بدلًا من ذلك أن أعمل بجد أكثر مما مضى. قرأت الكتاب المقدس بتمعن، وقرأت أيضًا الكومة الصغيرة من الكتب الموجودة في مكتبتنا المتواضعة. وصليت لأنضج روحيًا وجسديًا، إلى حين تحين فرصة مشابهة، وعندها لا يجدونني صغير السن أو غير أهل للمهمة.

لم أتوقع أن أرى الطبيب ثانية.

استجيبت صلواتي بعد سبع سنوات من لقائي الطبيب. كان ذلك عندما جاءت فرصة أخرى. وكنت آنذاك قد شارفت على العشرين من عمري. ما تنبأ به الطبيب في لندن صار حقيقة: فقد علق في أفريقيا، وفقده العالم. خمسة منا أرسلوا، كان علينا أن ننضم إلى الملازم داوسون وابن الطبيب السيد أوزويل ليفينغستون، فيما أطلقوا عليه بعثة إنقاذ ليفينغستون. كانت مهمتنا الوحيدة هي أن نتتبع المشاهدات الواردة عن الطبيب في داخل إفريقيا حتى نجده، لو كان في هذا العالم أو في العالم الآخر.

الخمسة الذين جرى اختيارهم هم نفسهم فتيان ناسيك في هذه البعثة الحالية: ماثيو ويلينغستون، وجون روتون، وبنيامين روتون، وجون

واينرايت، وأنا. غادرنا بومباي على متن سفينة *SS Livinia* في شباط/فبراير من عام 1872 ميلادية. كان إبحارنا في معظمه في طقس جيد، لكن كان هناك عاصفة مرعبة في أسبوعنا الثاني.

هاجت المياه حولنا واضطرب القارب، وكنت كما لو أنني عدت صبيًا على تلك السفينة الشراعية الرهيبة التي كانت تأخذني إلى العبودية. وفي غمرة خوفي، رددت دعاء التائب إلى الله الذي بيده البحار واليابسة حولها والسماوات فوقها، وفي غضون لحظات، هدأ البحر مجددًا، وكان كل شيء ساكنًا. لطالما كنت مفضلًا في عين الرب.

بعد واحد وعشرين يومًا، رسونا في زنجبار. وأقبلنا على البشارة بأن مهمتنا لم تعد ضرورية، فبنعمة الله، وجد الدكتور ليفينغستون في يوجيجي قرب تابورا. سيد يدعى هنري مورتون ستانلي، وهو صحفي يُقال إنه من بلاد أمريكا، كان وسيلة خلاص الرب ورحمته.

هذا ما دعا إلى تغيير فوري في الخطة. فلم يعد علينا أن نتوجه إلى الملازم داوسون كجزء من بعثة إنقاذ ليفينغستون. وبدلًا من ذلك، كان علينا أن نتوجه إلى الداخل وفق تعليمات السيد ستانلي، إلى جانب مزيد من الإمدادات لإغاثة الطبيب، ومع **عسكر وباغازي** وظفهم السيد ستانلي. وكان أن سينضم إلينا كاروس فرار وفرج الله كريستي، وهما اثنان من ناسيك كانا قد غادرا المدرسة قبل بضع سنوات لإيجاد عمل في بومباي وزنجبار. كان كلاهما يعيشان في زنجبار عندما عينهما السيد ستانلي.

وصلنا نحن السبعة، برفقة **العسكر والباغازي**، إلى الدكتور ليفينغستون في الرابع عشر من آب/أغسطس 1872 ميلادية، بعد ثلاثة أشهر من المسير. وهأنذا هنا منذ تسعة أشهر.

سبع سنوات منذ أن رأيته أول مرة، لكنها بدت كما لو أنها سبع عشرة.

كان أشبه بهيكل عظمي. وفي الحقيقة، لو كان قد أعطى لعيني الطفولية انطباعًا سيئًا، فإنه الآن يبدو بائسًا جدًا. كانت بشرته شاحبة وخشنة، والشعر الخفيف على رأسه صار الآن رماديًا بالكامل، وأسنانه المتبقية تبرز باصفرارها من بين شفتيه. يبدو واضحًا أنه عانى كثيرًا، وكان منظره مؤلمًا.

ما أشعرني بالرضا هو أنني وجدت أن فتيان ناسيك الذين اختيروا في البداية أثبتوا جميعًا أنهم غير مخلصين وغدروا به وتخلوا عنه. وها هي الفرصة لافتداء مدرستنا! ها هي الفرصة ليظهر أنني أنا من كان يجب أن يختاروه من البداية. ها هي الفرصة لإعادة الخروف الضائع إلى الحظيرة، فقد كان بإمكاني أن أرى كيف أن ما مر به في السنة الفائتة قد أوهن روحه وتركه للكآبة.

لم تعرف بهجتي حدودًا، إذ رأيت ذلك من عمل الله. أعلم الآن أن هذه مهمتي منذ البداية. خصوصًا بعد أن بدأت أراقبه، وأرى أنه لا يصلي بقدر ما أفعل، وعندما يفعل، لا يبدو أن في قلبه العرفان الذي يملأ قلبي أحيانًا. رأيت أنني قبل أن أبدأ مهمتي الكبرى في تخليص شعبي، عليَّ أن أؤدي هذه المهمة الموكلة إليَّ، أن أرعى هذا الخروف الضائع إلى ذراعي الراعي المُحبة. ولذلك، بنعمة من العناية الإلهية، أنا ثابت على الطريق الذي اختاره لي الرب.

4

9 أيار 1873

المدخل الرابع من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يبلغ واينرايت عن القرار الحاسم الذي اتخذته الفرقة كاملة، ويستعيد ذكرى دفن قلب الطبيب، ويصلي أن يتحسن الجميع من خلال ما تعلموه من آلام المسيح.

يسرني أن أبلغ أن الفرقة، بعد بعض الخلاف، اتفقت أخيرًا على رأي واحد: نحن حازمون في قرارنا في أخذ جسد الطبيب إلى الساحل ليُدفن لاحقًا في إنكلترا. لقد دفنّا قلبه في قرية شيتامبو. كانت حليمة، وهي أكثر امرأة فارغة الرأس بين النساء اللواتي معنا، تحث الآخرين على الضحك حول الأجزاء الأخرى التي سندفنها من جسده. غير أني مسرور لرؤيتي تاوكيا، وهي المرأة الوحيدة العاقلة بينهن، ترفض أن تنضم إلى مساعي حليمة الفارغة، فعقلها حازم، وتأكدت إلى أنني قلت لها ما قلت للآخرين، أن ما كنا ندفنه، وما سنقول دومًا إننا دفناه، هو قلبه، قلبه فحسب.

تلوت صلاة الجنازة ونحن ندفن عضوه المقدس. الشخص الذي أنعم عليه الله بالموهبة يجب بالضرورة أن يكافح على الدوام في وجه

الخطيئتين المتلازمتين، الغرور والكبرياء. لقد كافحت -وآمل أن كفاحي لم يكن عبثًا - في أن أتجاوز، منذ عمر صغير، خطيئة الكبرياء. لكنني لا بد أن أعترف أن قلبي امتلأ بالفخر لسماع تأوهات وشهقات جماعة المصلين التي أمامي، لو كان لي أن أتجرأ وأسمي هذه الجماعة الصغيرة من الرعاع حجاجًا.

بدا لي أن كل حياتي كانت تتهيأ لهذه المهمة. وأنا أقف أمامهم، شعرت كأنني عدت في الزمن إلى حين كنت في مدرسة ناسيك، أعاهد نفسي على خدمة الرب.

وكنت كذلك عندما وقفت أمام الجماعة أثناء دفن قلب الطبيب، عددت أن هذه ربما بداية عملي الكهنوتي. ورغم أن الظروف كان كئيبة، فقد سرّني أنني كنت وسيلة الله المختارة التي عاد من خلالها الخروف الضائع إلى المسيح، وأنني اخترت للعمل في حديقة المسيح. لأنه مع الله، لا شيء مستحيل. فقد قال المسيح، اطلب باسمي ما تشاء، وسأستجيب.

أحتاج إلى أن أُرسَّم كاهنًا في إنكلترا، بالطبع، لكن هنا، في قرية شيتامبو، كانت البداية. ورغم أنني لم أرسَّم بعد، فإن لديَّ السلطة التي تأتي من الله، فسلطانه أكبر من أي كنيسة. وفي قلبي، حمدت الرب على نعمه وسخائه.

تلوت صلاة الجنازة من كتاب الصلوات العامة الخاص بالطبيب: "الإنسان ولد المرأة ناقص الأيام هو وقابل الأفزاع. مثل النبات يخرج ثم ييبس ويحترق ويذهب مثل الظل ولا يبقى. فيما بين الحياة نحن في الممات. فممن نستعين إلا منك يا رب وأنت متسخط حقًا من أجل خطايانا".

حتى عندما تكلمت، تبادر إليَّ أن كلماتي ستذهب سدى أمام هؤلاء الرجال والنساء الذين لا يعرفون الإنكليزية. فباستثناء الناسيكيين، كما

يسمينا الطبيب، فمن بين من كان في الفرقة، شوما وسوزي وآمودا ومبروكي وحدهم يتكلمون هذه اللغة، على الرغم من أن الأخير يتكلمها على نحو سيئ، ككل ما يفعل.

مع أن بقية الفرقة بكت، لم يكن ذلك بسبب كلماتي. لذا أضفت بعض الكلمات من اللغة السواحلية، مترجمًا الكتاب أمامي، ومضيفًا من عندي زينة. وبينما كنت أتكلم، شعرت بالامتنان مجددًا للكتب الثلاثة التي سافرت برفقتها، وجميعها من الموقر واينرايت.

سيكون قرائي بلا شك على معرفة بأن مدرسة ناسيك هي مركز من مراكز المجتمع التبشيري اللندني، وبناء على ذلك، فهي تعمل وفق النظام الكنسي. ومن رسائل الموقر واينرايت التي أرسلنا إلينا نحن الذين نحمل اسمه، يبدو أنه معجب على وجه الخصوص بالآباء المهاجرين، الذين - حسب قوله - أقاموا بتقواهم الإيمان في الأرض الجديدة. وهو يريدنا أن نصبح الآباء المهاجرين لأرضنا، وأننا بنفس الطريقة سنساهم في تكريس الإيمان الحقيقي عبر إفريقيا بأسرها.

عندما أخبرته أن تلك هي رغبتي الأحب، أرسل إلي ثلاث هدايا من الكتب التي قال إنها ستكون مرشدي. الأول كان هدية تعميدي، وهو الكتاب المقدس متعدد اللغات الذي أقرأه كل صباح، ومجددًا في المساء، وكلما كان لديَّ وقت فراغ. ثم هناك الكتاب الذي تحدثت عنه من قبل وهو (رحلة الحاج) للسيد بونيان، صديقي الدائم في رحلتي. في كثير من الأيام، وأثناء عبوري من الهند إلى زنجبار، وحدها الراحة كنت أستمدها من هذه الصفحات هي ما كانت عوني في تحمل هيجان البحر، اضطراب شعرت فيه بقسوة كما شعرت فيه عندما كنت صبيًا سُلب من أرضه متوجهًا إلى حيث لا يدري. حتى في لحظات السلام، وجدتها أعظم بهجاتي أن أستسلم

لتلك الصفحات التي أثبت أنها في كل الفصول الغذاء الغني لروحي النهمة.

لعلي سأُمنح الرؤيا لكتابة بحث كهذا! لكن لا، فالمقدرات المتواضعة التي وهبها الله لي تجعل من الأفضل لي أن أحاكي الموقر بين بدلًا من الحالم العظيم. وبالموقر بين، أعني الكتاب (كتاب العبادة العائلية). هذا هو الكتاب الثالث الي يرافقني على الدوام.

ليس لديَّ حتى اللحظة عائلة لأتعبد معها، بما أنني خرجت للعالم بحياة العزوبية، لكن (كتاب العبادة العائلية) هذا كان بمنزلة راحة عظيمة بالنسبة لي، فقد كان الموقر بين معي مخلصًا بقدر الرب يسوع. الموقر بين واساني عندما كانت سفينتنا تقطع البحار. وعبر المناطق الموحشة من إفريقيا، منحني السكينة والعون، ووهبني العزاء في الليالي المضنية.

من المذهل كيف أن الموقر بين قد وجد صلاة لكل مناسبة. فهناك صلاة تقول إن من نعمة الله علينا أن نتبع خطا الرجال القديسين، وأننا قد نصير أفضل بعد ما نراه من آلام المسيح، وأننا دومًا نستطيع أن نرى الله أمامنا. هناك صلاة في أوقات الضيق العام، وصلاة في أوقات الجنايات، وصلاة في يوم تنفيذ حكم الإعدام على المجرمين.

هناك صلاة لتغير الطقس، وحتى أن هناك صلاة يبدو كأنها كتبت خصيصًا لتلك الطباخة الثرثارة حليمة، فقد فكر الموقر بين مليًّا ليكتب صلاة لحفظ اللسان لأولئك الذين يحتاجونها. وجدت أن صلوات الموقر بين شديدة البلاغة، ولكن ثمة أحيان نكون فيها في حاجة لتعديل الصلِوات وجعلها تتناسب مع ظروفنا. فالموقر بين استطاع بحكمته أن يتنبأ بمعظم المناسبات التي تكون فيها حاجة للصلوات. لكن لأنه لم يكن يومًا في مناخات شبيهة بمناخات إفريقيا والهند، فلربما لم يكن

يعلم أن صلاة للصقيع ربما لا تكون بأهمية الصلاة في الحرارة العالية.

وجدت أن الحرارة، في ناسيك وهنا، والحرارة العالية على وجه الخصوص، يمكن أن تترك أفظع أثر على العقل. فمن المعتاد أن تتسبب في الوهن، وليس أبغض إلى الله من عقل واهن.

إنه رجائي المتواضع أن أفعل ما فعله الموقر بين، وأن أبتدع صلواتي الخاصة. ومما يطربني أنني في ما أظهرته في دفن قلبه، فإنني جدير بأي مهمة، وأنني قادر على ابتداع أي صلاة تتناسب مع المناسبة. لكنني في اللحظات التي تخذلني فيها قواي، وتهجرني موهبة الروح، يعزيني أن أعود لتلك الكلمات المألوفة لدي.

5

10 أيار/مايو 1873

المدخل الخامس من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يتولى واينرايت جرد ممتلكات الطبيب، ويقدم ملاحظات عن قادة البعثة مع إبداء رأيه في شخصياتهم، ويأسف لوجود النساء غير الضروري في البعثات.

سنبقى هنا أسبوعين على الأقل قبل أن نكون جاهزين للانطلاق نحو الساحل. كنت قد أحصيت عدد المسافرين ولاحظت أن عددهم الإجمالي سبعون، مع النساء والأطفال. وأرفقت إلى جانب هذا السجل قائمة بأسماء من سيسافرون برفقة جثمان الدكتور ليفينغستون، إذ إنني أعلم أنه سيطلب سجل بأسماء كل أولئك الذين ظهروا في الرحلة، بدءًا بقائمة كاملة بأسماء كل الذين سافر برفقتهم.

لا بد أن أذكر على حدة قادة البعثة. هناك ستة قادة للبعثة كل منهم مسؤول عن قسمه: فشوما مسؤول عن توجيه مسارنا، وآمودا مسؤول عن الباغازي، ويوليدي موناسير مسؤول عن المؤن. سوسي مسؤول عن جثمان الطبيب، وشوبيره، باعتباره سفيرًا سيقود جمع الرجال في المقدمة، بينما يكون مبروكي

مسؤولًا عن الجنود العشرين، **العسكر**، وعن مسدساتهم وذخيرتهم.

بعد إصراري، جعلت مسؤولًا عن أوراق الطبيب. ولذلك أنا أهيئ الآن، مع الناسيكيين الآخرين، أوراقه وأدواته وأغراضه الشخصية الأخرى. فبعد أن أثبت نفسي لأكون القائد الطبيعي للناسيكيين، فإنه أنا، وليس فرج الله كريستي، من سيتولى أمر الأوراق.

والحق أن يكون الأمر على هذا النحو.

من بين السبعة منا من مدرسة ناسيك، إنه أنا الأنسب لحمل هذه المسؤولية. صحيح أن فرج الله كريستي وكاروس فرار أكبر مني سنًا، لكنهما ليسا كاتبين. في الواقع، كان من المفاجئ رؤية أن السيد ستانلي قد وظفهما، فقد غادرا مدرسة ناسيك قبل عدة سنوات وعمل كلاهما مساعدين لطبيبين جراحين، فرج الله في زنجبار، وكاروس فرار في بومباي. هما من بضعا جسد الطبيب وفتحاه، وكانت تلك مهمة مناسبة لهما. ورغم أن كلًا من بنيامين روتن وماثيو ويلينغتون كاتبان يكافئانني جدارة، إلا أنهما لا يكافئانني في حس المسؤولية، وفوق ذلك، لا أحد منهما لديه خطط واضحة ومرسومة. جون روتن أصغر سنًا من أن يتولى مسؤولية أكبر من حمل الأحمال، و جون واينرايات، حسنًا، لعلنا نحمل الاسم الأخير للمحسن إلينا الموقر واينرايت، لكننا مختلفين كاختلاف الليل والنهار، لأنه أبعد ما يكون عن أن يكون قائدًا شأنه في ذلك شأن مبروكي.

أملك المؤهلات المطلوبة لتولي هذه المسؤولية، فقد عشت طوال حياتي - عدا السنوات السبع الأولى منها - برفقة الإنكليز، وقد تدربت وتعِلمت طريقتهم في كل شيء. ولذا أعلم كم يقدرون الإتقان. وبتلك الروح أقوم بإحصاء ممتلكاته.

كان الطبيب يسافر ومعه صندوقان من القصدير يضع فيهما أوراقه

وأدواته. وفي هذين الصندوقين كانت جميع دفاتره التي ملأها كتابة، العديد منها أخذه السيد ستانلي معه إلى لندن، لكن حتى بعدما ترك الرجل فرقتنا، استمر الطبيب في عادته في تسجيل أحداث كل يوم في مذكراته.

كان يكتب بغزارة. فنفدت أوراقه ولم يحصل على الورق إلا عندما وصلنا وفق أوامر السيد ستانلي، ما يعني أن الطبيب كان مضطرًا إلى اللجوء إلى المواد التي كانت في متناول يده، وهي بالدرجة الأولى كتبه وجرائده القديمة المصفرة والرطبة التي كتب عليها فوق الكتابة الموجودة. وعندما نفد الحبر الذي كان لديه، لجأ إلى استخدام مادة شبيهة بالحبر صنعها من عصير التوت الأسود.

الكتب الوحيدة التي لم يكتب عليها كانت كتابًا لبطليموس، والكتاب المقدس، وكتاب الخدمات الكنسية، و(**كتاب الصلوات العامة**). وضبت الكتاب المقدس بيد مبجلة. قال إنه في هذه الرحلة كان قد قرأ الكتاب المقدس بعناية أربع مرات، لكن ما آلمني هو أن أعلم أن ذلك كان أساسًا لأغراض أخرى. أخذت كتابه الصلوات واحتفظت به، إلى جانب آخر دفاتره.

كان يملك ثلاث دفاتر يكتب فيها. الأول كان دفتره الصغير المخصص لما كان يسميه الملاحظات الميدانية. كان فيه من الداخل أوراق للكتابة عليها، بيد أن غلافه الخارجي مصنوع من المعدن، ولهذا كان يستطيع مقاومة تقلب الطقس. كان غالبًا يمازح قائلًا إنه لو تلقى رصاصة فإنه يفضل أن تخترق الجيب الذي يضع فيه هذا الدفتر، لأنه كان يحمله على الدوام. كان يكتب حتى وهو يمشي، إذ يتوقف لبرهة ليدون شيئًا ما خطر في باله أو شاهده في تلك اللحظة.

كان لديه أيضًا دفتر يسجل عليه مواقع النجوم. أما الدفتر الثالث فحوى

مذكراته. وقد أخبرنا أن هذه هي المذكرات التي حولها في أوقات فراغه في إنكلترا إلى كتب جلبت له الشهرة في بلاده. في هذه الدفاتر، كان يكتب بإسهاب مشاهداته التي كان قد دونها في دفتر ملاحظاته الميدانية. وهنا كان يكتب كل ما رآه وجال في رأسه.

لقد ضممت إليّ بعض هذه الدفاتر التي أعطاه إياها السيد ستانلي مما لا يزال بالإمكان استخدامه. وفي هذه الدفاتر أكتب هذا السرد عن رحلتنا. أنا متيقن بأنه لا الطبيب - لو كان حيًا - ولا ورثته في إنكلترا سيجد مبررا للومي على اختياري أن أحذو حذوه في هذا، وعلى استخدامي لأغراضي الخاصة دفاتره وحبره الذي، وا أسفاه، لم يعد في حاجة إليها.

أشرفت أيضًا على حزم رسائله، مرتبًا إياها بعناية وفق التاريخ. وبالإضافة إلى هذه الكمية الغزيرة من الأوراق، كان لديه ساعة، ومنظاران في علبتيهما، وثلاث سدسيات[4]، وبوصلات. كما جمعنا أدويته في خزانة الأدوية. وجدنا بعض المال: شيلينغ ونصف، وثلاث دراخمة، ونصف سكروبل. وضعنا قبعته العزيزة في علبتها. يقول لي شوما إنها القبعة التي كان يرتديها في كل يوم من رحلاته الطويلة الثلاث، منذ اليوم الذي وطأت قدمه التراب الإفريقي إلى آخر يوم عاشه على الأرض.

كنت قد اطلعت على دفاتره ووجدت أن عقله جال في كثير من الأمور. ففي بعضها هناك مشاهدات عن أطوار تزايد القمر، وأسماء أنهار، وارتفاع الهضاب، وخرائط، وملاحظات عن النباتات. وهناك بعض المذكرات الشخصية أيضًا، عن بعض اللحظات من اليأس والرثاء، ومشاهدات للنساء معظمها غير لائقة. لو استطعت لاقتصصت هذه المقاطع جميعها، لأنها لا تضيف شيئًا. لكن انتهاك أي من هذه الصفحات يعد لعنة

---

4 السدس هو آلة فلكية قديمة، كانت تستخدم لقياس الزاوية بين نجمين أو جسمين في الفضاء. (المترجمة).

لي. ومع كونها آثمة، من المهم أن يتلقاها القراء كما كتبها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن اقتصاص مقطع سيؤثر على آخر.

والآن، إلى الرجال. كما أشرت للقارئ، فقد ألحقت إلى هذه المذكرات المشوقة قائمة كاملة بأسماء الرجال والنساء والأطفال الذين يؤلفون الفرقة الحالية. ومن الصادم كما يبدو للقراء، فبالفعل هناك نساء وأطفال بيننا، والكثير منهم يعيشون وولدوا في الخطيئة، وسأتحدث عنهم أكثر في المقام المناسب.

أعترف أني لا أعرف قادة البعثة بقدر ما هم مقربون بعضهم من بعض، لأنني حين رافقت الطبيب، بعدما أرسلنا السيد ستانلي بعد أن وجد الطبيب في يوجيجي، كنت قد وجدت آمودا وشوما وسوسي معه من قبل، إلى جانب آخرين.

شعرت بحزن عميق لأعرف حين وصلت أن هناك في الفرقة التي ترافق الطبيب وثنيون وكذلك رجال محمديون مثل عبد الله سوسي الذي رافقه لعشر سنوات أو أكثر. لقد وظف الطبيب هذا الرجل لمدة طويلة، ولم يخطر في باله مرة أن يهديه إلى المسيح!

سوسي رجل طويل لوّحته الشمس، رقيق البنية، وله بشرة دهنية. وهو نجار وباني سفن من شوبانغا، عند فم نهر زمبيزي، حيث يبني قومه السفن الشراعية التي تبحر صعودًا ونزولًا على الساحل، على حد قوله. هناك أيضًا حيث دفنت زوجة الطبيب السيدة ماري ليفينغستون. هو رجل دائم الضحك لا يأخذ أيًا من الأمور بجدية، حتى عقيدته.

هذا هو بالضبط ما يجعله كافرًا من النوع الذي يمكن تحويله إلى المسيحية بسهولة، فرغم أنه يعترف أن عقيدته محمدية، لكنه ليس بذلك الثبات والتمسك بالعقيدة كما هو معهود بأولئك المحمديين في الهند

وزنجبار، حيث أخشى أن مملكة المسيح لن تضرب جذورها وتنتشر يومًا.

لا يحترم سوى الأحكام التي تناسبه، إذ لم أقابل في حياتي مخلوقًا أكثر فسقًا ووضاعة منه. ليس هناك قرية مررنا منها لم يتغزل فيها بامرأة، وأحيانًا بأكثر من امرأة، وفي الحقيقة يُعتقد أنه ترك أبناء زنا متبعثرين بين موطنه في شوبانغا على نهر زمبيزي وزنجبار، وفي كل رحلة مضى فيها برفقة الطبيب.

ورغم أن لديه امرأته، ميسوزي، إلا أنني رأيته يضع عينه على الطباخة حليمة. ويبدو أنها تشجع نواياه الفاسقة رغم أنها مرتبطة بآمودا. أقول مرتبطة، لأنه مما سيصدم قرائي صدمة شديدة هو أن يعلموا أن لا أحد من هؤلاء متزوج، رغم أنني كنت أحث الطبيب على تزويجهم بنفسه، فهو مخول دينيًا.

عندما أصررت على التمسك بهذا الأمر، ضحك وقال: "هل سأعلن الزواج أثناء المسير، يا جاكوب؟ هل سيزفون في زورق ونحن نعبر نهرًا يفيض؟ على أي ورق سأصدر شهادة الزواج؟ هل ستفي أوراق الشجر بالغرض لو جففتها؟"

هكذا سخر مني، وظل رجاله يرتكبون المعصية.

أما في شرب المسكرات من كل صنف ونوع، فلا أحد يجاريه في ذلك سوى آديامبري ومبروكي وبعض الباغازي الأدنى. وإنه لطبيعته الفاسقة عينها يؤسفني فشل الطبيب، فأي بهجة لتكون في مملكة الآب، أي أصوات للأبواق، أي رنين لجوقة الملائكة سيرحب بخروف أسود ضال كهذا عندما يخطو عتبة مدينة السماء! ففي بيت الآب ثمة حجرات كثيرة، وليس أكثرها حفاوة إلا تلك التي تستقبل أكبر الآثمين.

الكثير من الباغازي الذين ينتمون لعقيدته موقفهم شبيه بموقفه. يظهر

أن المحمديين من هذه الفرقة يحترمون بعض الأحكام دون غيرها. واضح أنهم لا يجدون أي مشكلة في أن يحظوا بعدة نساء، لكنهم لا يطيعون دومًا القيود على شرب المسكرات والخمور الثقيلة.

أما شوما، الذي عمل معه الطبيب لأطول مدة، فهو بالمقابل أكثر عمقًا وهدوءًا. وكما أذكر عندما قابلته منذ سبع سنوات، فإن اسمه الأول هو جيمس، ورغم أنه يعترف بأنه مسيحي، إلا أنني لم أسمعه يوما يتكلم عن عقيدته باستفاضة. بل تراه أكثر حيوية عندما يتكلم عن الخرائط والرسوم والجبال والأنهار.

قادة البعثة الآخرون هم آمودا، وشوبيره، ومونيسير، ومبروكي. آمودا، وهو سواحلي من زنجبار، رجل ضخم وقوي ذو مزاج حاد وطبيعة نزقة. شوبيره أحمق ومتسرع، أما مونياسير فهو صياد يسعده أن يكون في يده مسدس. يدعونه يوليدي، أي "السيد الحِرَفي". أما مبروكي فهو أبعد ما يكون عن أن يكون رجلًا، فهو رجل ذو رغبات وضيعة، وحتى إنه فاسق وأكثر فسادًا من سوسي. والأفضل ألا أتكلم عنه.

اعتقدت أنه من الصواب أن أعين قائد بعثة، فلأنني أجدر الكتاب، يمكن أن أكون كاتب الفرقة. ضحك آمودا على هذا وقال: "عندما تصبح البعثة بعثة قراءة وكتابة، يا يوليدي، فسوف نستدعيك". عندما دعاني آمودا يوليدي لم يكن ذلك إطراء منه كما هو لمونياسير، بل قيل بطريقة تهكمية تدل على أنني أحطّ منه.

آمودا رجل جدير، هذا صحيح، لكنه ناظر مجتهد، ورغم أن الرجال يحترمون قدراته، إلا أنهم يغتاظون تحت نيره، فهو لا يحترم الرجال الذي لا يماثلونه قوة.

اعتقدت أنه لا شيء آخر يمكن قوله عن مبروكي، بيد أني أجد نفسي

أضيف تعليقًا حول هذا الرجل الأسوأ بين الرجال. فهو لا يأخذ بجدية أي مسؤولية، أقلها أن يكون زوجًا صالحًا. فهو لم يهجر امرأتين كليهما حاملًا فحسب، بل اتخذ أيضًا امرأة من فرقتنا تدعى تاويكا، أو لعلّي أقول إنه ارتبط بها، إذ ليس هناك قانون يعترف بزواج كهذا.

اسمه الكامل مبروكي سبيك لأنه سافر مرة مع الملازم سبيك، مستكشف النيل. وقد هجر تلك المهمة، وهذا طبيعي فهو من هذا النوع. لكن لولا مكره في إقناع السيد ستانلي أنه يعرف اللغة الإنكليزية أكثر مما يعرف في الواقع، وأن رفقته لبومباي، قائد بعثة السيد ستانلي، فلم يكن سيجد أي وظيفة. إنه رجل خداع وماكر. لحسن حظ الفرقة، لدينا راميان ماهران، أكثر جدارة بكثير مما يمكن أن يكون مبروكي.

تحت قيادة قادة البعثة هؤلاء هناك تسعة مسلحين، أو عسكر، بالإضافة إلى مبروكي وتسعة وثلاثين باغازي، الكثير منهم أرسلهم السيد ستانلي من زنجبار، وكانوا تواقين على نحو طبيعي للعودة إلى مواطنهم في زنجبار والجزر المجاورة لبيمبا ولامو.

وكما ذكرت سابقًا، هناك عشر نساء وأطفالهن الستة. قد يدهش ذلك قرائي كما أدهشني أنا أن أعلم أن هناك نساء وأطفالًا في بعثات الاستكشاف هذه. فواقع حياة الاستكشاف يفرض أن ينزل الرجال على نحو متكرر في القرى، ولمدة طويلة في بعض الأحيان، ما قد يطور كل أشكال الفساد في علاقتهم مع النساء المحليات.

عندما كان يحين موعد الرحيل، لم يكن من غير الشائع لامرأة أو اثنتين أن ترتبط بالفرقة، وتصبح بذلك جزءًا من المجموعة. ولم يكن كذلك من غير الشائع لهؤلاء النسوة أن يجدن أنفسهن حوامل بعد بضعة أشهر. هذه حياة داعرة، هذا الترحال، ووجود فرص كثيرة لارتكاب

المعصية، فالرجال جميعهم لديهم زوجات ينتظرنهم في ديارهم.

يبدو أن معظم القادة يقرون هذا النوع من الفسق بدافع إحساس خاطئ بضرورة ذلك، لأنه بدون درجة معينة من السماح، قد يجدون أنفسهم دون حمالين. لقد كنت منزعجًا عندما رأيت أن الطبيب لم يقر هذا السلوك فحسب، بل كان مهتمًا جدًا بالعلاقات الزوجية لرجاله، حتى إلى حد اقتناء النساء وإيجاد شركاء لهن.

وهذا ما حصل مع إحدى النساء الشابات التي ترافقنا اليوم، تدعى تاويكا، وهي ليست ذات طبيعة سيئة بأي شكل من الأشكال. ليس لديَّ الوقت للتفاهات كالنساء، لكن لو كانت في حديقة، لكانت ستعدّ أجمل أزهارها. هي امرأة من مانويما انضمت إلى الفرقة عندما مرض الطبيب في يوجيجي قبل أن نصل. كان الطبيب يريد امرأة أخرى لترافق حليمة، ورغم أنها عرضت أن تعمل مساعدة لحليمة، إلا أن الطبيب اعتقد أنها تملك من الحسن ما يجعل من الأفضل ألا تظل في الفرقة دون رجل.

قال لي: "طلبت منها أن تختار بين شوما وغاردنر ومبروكي. فاختارت أن تكون مع مبروكي، رغم أنني كنت أفضل أن يكون شوما، فهو بحاجة إلى امرأة تقوّمه".

عندما أرسَّم كاهنًا، سأكون قادرًا على أن أعلق بحرية حول حياة أبناء الكنيسة مع زوجاتهم. أما الآن فيكفي أن أقول إن ايًا ممن له عينان بصيرتان فسيرى أن مبروكي وتاويكا لا يمكن أن يكونا ملائمين لبعضهما بأي شكل من الأشكال، فهي أرقى منه بأشواط، وأعلى قيمة من أن تكون امرأة في السفر فحسب. لو أن في رأس مبروكي عقلًا، لجعلها زوجته، لكن هذا غير وارد، فقد فرّ تاركًا امرأتين حاملًا بطفله.

لطالما كانت ملامح تاويكا الجميلة سببًا في المشاحنات بين النسوة

الأخريات، خصوصًا حليمة، طباخة الطبيب ذات اللسان السليط. كان الطبيب يحاول جاهدًا التوفيق بينهما، لكن لو أردتم رأيي لقلت إنه يمكن أن يوفقّ بينهما أيما توفيق لو أنه أرسل بكل منهما بعيدًا. إذ لم يكن ينفع أن كلا منهما تعد ميسوزي، وهي امرأة سوسي في السفر، صديقة لها. فهي مثل الطيّع، امرأة لينة العريكة، وكما يفعل الرجل النبيل مع المتعنت والمسيحي[5]، تراها تميل إلى جهة، ثم إلى أخرى، ثم إلى غيرها، دون أن تكاد حتى تحل الخلافات بينهما، بل دائمًا ما تزيد الطين بلة.

ولعلّ تاويكا أيضًا يمكن أن تُعد طيّعة، رغم أن لينها ليس مذمومًا بحد ذاته، لأنه ليس ناشئًا من طبيعة حمقاء، بل من النوع الذي يشعر بالرضا دومًا. وفي هذا أشعر أنها عرفت الخيبة بسبب كل من الطبيب ورجلها الذي يعدّ نفسه زوجًا لها، الوغد الكسول الذي لا يسعد إلا بالسُّكر.

كان يمكن لها، مع الرجل المناسب، أن تصبح أفضل زوجة. كما قال الرسول بولس: "يا امرأة، أطيعي زوجك". بالطبع يجب أن تقبل المسيح أولًا. وحتى لو اختارت شوما، فهذا لا يكفي، إذ رغم أنه تعمّد باسم جايمس، إلا أن إيمانه المسيحي ليس عميقًا، بل لا يزال على السطح. كان يمكن لتاويكا أن تتحول إلى المسيحية مع زوج مسيحي. ويجب أن يكون اسمها جميلًا بجمال عينيها، إستر ربما، أو راعوث، اسمًا عامرًا بالإيمان.

النساء الوثنيات مثيلات تاويكا هن من أنا مصمم على خلاصهن، لأنهن حينها سيخلصن أطفالهن. فلشدّ ما يؤلمني أن أنظر إلى تاويكا وأعلم أنها لو قابلت الرجل المناسب فحسب، لكانت مخلصة بقدر إخلاص راعوث لنعمي. "فَقَالَتْ رَاعُوثُ: لا تلحي عليَّ أن أتركك و أرجع عنك، لأنه حيثما ذهبت أذهب وحيثما بت أبيت، شعبك شعبي وإلهك إلهي".

---

5 الطيع Pliable والمتعنت Stubborn والمسيحي Christian هي أسماء شخصيات في كتاب (رحلة الحاج). (المترجمة).

وبإيمانها حملت بيسى، ومن ذريته ولد الملك داود، الذي غلب جالوت وكان سلف ربنا يسوع المسيح.

عندما أتوقف برهة عند داود وآل بيته، كنت غالبا ما أتساءل لماذا في أناجيلهم، ثلاثة من الرسل هم من نسل يسوع وداود عبر يوسف، الذي لم يكن سوى زوجًا لمريم، وليس أبا يسوع. وعندما سألت الموقر واينرايت هذا السؤال، بدا صدره ضائقًا بالسؤال.

لعل هذا واحد من تلك الأسرار، مثل لغز المرأة التي اتخذها قايين زوجة عندما طرد من نعمة الله ونفي إلى شرق عدن. كان هناك أربعة فقط ممن خلق الله، آدم وحواء زوجته؛ هابيل، الذي ذبحه قايين؛ وقايين نفسه. من أين إذًا جاءت زوجة قايين؟ مثل هذه الأسرار لا ريب ستنكشف لي من خلال المزيد من التأمل والدراسة مع أولئك الذين عرفوا هذه الأسرار، وبنعمة من الله أولًا وأخيرًا.

ولم تكن هذه الأسئلة مما يمكنني أن أناقشه مع الطبيب. فلم يكن يهتم بمثل هذه الأسئلة، شأنها في ذلك شأن الرعاية الروحية لرفاقه. وبالمقابل، كان شديد الاهتمام في الوقائع المادية للفرقة، وفي من يشارك الفراش مع من. أذكر عندما جاء إلي منذ بضعة أشهر قائلًا: "تلك الفتاة المسكينة، يا جاكوب".

قلت: "أي فتاة مسكينة؟"

نظرت إلى حيث كانت حليمة تتحرك، إذ قدمت له لتوها الكعك الطري، الطعام الوحيد الذي كانت أسنانه الرديئة تستطيع مضغه.

قال: "كان قومها هنا ليقولوا إنها ماتت، لكن كل ما أمكنهم التفكير فيه هو الماعز الخاص بهم".

بدأت أشعر حينها بالقلق وظننت أنه تعرض لضربة شمس. لكن تبين

أنه كان يتكلم عن فتاة تزوجت أحد الباغازي قبل أسبوع، لكن أفراد عائلتها أخفوها عن الأنظار، إلى أن ماتت وسطهم منذ أيام.

قال الطبيب: "كل ما أراده قومها هو الماعز الذي وُعدوا به في الزواج، جاؤوا إليَّ، يا جاكوب، يسألون عن الماعز. أوه، ماعزنا، كانوا يندبون على ماعزهم العشرة، يريدون الماعز. لكنهم لم يتفوهوا بكلمة رثاء واحدة على تلك المخلوقة الجميلة. أوه، ماعزنا!"

بدأ عندها بالضحك، وكنت أعلم أنه عندما يضحك هكذا، فإنه يضحك طويلًا، وأحيانًا حتى يسعل ويلهث، وتنهمر الدموع من عينيه. في تلك اللحظات، كانت على وجهه تعابير شبيهة بتلك التي ظهرت على وجه البهلوان الذي كان يقف أمام الكاتدرائية في بومباي ويدور ويدور دون سبب.

كان ذلك مخيبًا لي أشد خيبة. كنت أظن أن هذا الرجل سيكون ممتلئًا بنور المخلص، وأنه سيقف صامدًا أمام الجميع مثل من يحمل ضياء المخلص. وها هو ذا، يجلب النساء لرجاله.

شعرت بالصدمة لعلمي عند وصولي أن الطبيب ذهب في ذلك بعيدًا إلى حد أنه اشترى حليمة لآمودا، فقد كانت أمة عند عربي عجوز في كازه. لو كان ذلك إعتاقًا لها، لو أنه حررها لأجلها، لكان في ذلك العمل بعض البهاء، لكن أن يحصل على أمة بهذه الطريقة لأحد رجاله فهذا أبعد ما يكون عن المسيحية.

وحليمة تلك امرأة مزعجة، وفارغة، ويبدو أنها تعجز عن التفكير بجديةٍ حول أي شيء. لها قدرة هائلة على التسبب في المشاحنات. وربما كان الرسول يعقوب يكتب عنها عندما قال: هكذا اللسان أيضًا، هو عضو صغير ويفتخر متعظمًا. نار قليلة، أي وقود تحرق؟ ومع ذلك ما يزال هناك

سبب، غير لسانها السليط، وراء أن حليمة يمكن أن تتسبب في مزيد من المتاعب. فسوزي لا يأبه ليخفي إعجابه بالمرأة، لم يأبه لإخفائه عن آمودا، أو حتى عن امرأته ميسوزي.

لو كان الأمر بيدي، لكانت هي والنساء الأخريات جميعهن قد رحلن، فليس ما هو كالمرأة مما يؤخر البعثات. عندما أرسلنا السيد ستانلي في بعثة لإنقاذ الطبيب في آب/أغسطس الماضي، كنا نسير بخطى ثابتة. أنا على يقين بأن ذلك بسبب أنه لم يكن بيننا نساء. فمع وجود النساء، من الممكن أن نتأخر شهرًا أو اثنين بسبب تسكعهن فحسب. فحيث هناك نساء، هناك أطفال، وكل ذلك كافٍ لإبطاء التقدم.

لقد عبرت عن قلقي حيال وجود النساء واقترحت أن يبقين حيث هنّ. لكن ميسوزي التفتت إليّ على الفور وقالت: "ولماذا يجب أن نتخلف عنكم؟ ماذا نفعل من دون رجالنا؟"

هذرت حليمة قائلة: " بالطبع، سنحصل على رجال جدد".

هذا ما كنت أعنيه بالكلام على لسان المرأة. صحيح أنهنّ من خلق الله، وعلى المرء ألا ينسى أن من غسل قدمي المسيح بدموعه كان امرأة، وأن من مسح جسده في الجنازة وبكى وهو يمضي نحو الصليب وجلس قرب قبره عندما دفن كان امرأة. كانت النساء هن أول من كان معه في ذلك الصباح المجيد يوم قيامته، وكانت النساء هنّ أول من أبلغ الأنباء إلى تلاميذه أنه قام من بين الأموات، حقًا قام.

لكن المرأة هي أيضًا من جلبت الخطيئة إلى العالم. استسلمت حواء للإغراء بسبب ضعفها. إذ اختارتها الأفعى بمكر من الشيطان. فمقابل ثبات آدم، لم يكن الشيطان ليصمد. لو كان الأمر بيدي، لأرسلت النساء جميعهن، وأطفالهن أيضاَ، لأنني أخشى أن النساء لا يجلبن سوى المتاعب.

6

11 أيار/مايو 1973

المدخل السادس من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية شيتامبو، وفيها يتأمل واينرايت في رحلة الحج التي أمامه ويصلي لأجل أن يصل مدينة السماء[6] دون مواجهة عقبات أو مذلة أو إغواء أو أي شرور أخرى، والأهم من ذلك، أن يتجاوز هو وفرقته وادي ظل الموت[7] بسلام.

أحرز الناسيكيون تقدمًا في ترتيب وتصنيف أوراق الطبيب وممتلكاته، ووضعوها تحت إشرافي في أقل عدد ممكن من الصناديق، مع الحرص على ألا يكون كل صندوق أثقل من أن يحمله رجل واحد أو اثنان على الأكثر.

أدرت مساومة صعبة مع آمودا ليحيل بعض الرجال إلى مهمتي في حمل ممتلكات الطبيب، لأنه حتى لو كان الناسيكيون سيحملون حمولة كاملة، لا نصف حمولة كما هو متفق مع الطبيب، فليس هناك منا ما يكفي من الرجال. وهذا ما تسبب في انبعاث شعور بالتظلم من الماضي. فقد غضب آمودا مثلما غضب الباغازي الأدنى، لأننا نحن الناسيكيين قد تعاقدنا على حمل نصف الحمولة مقابل ضعف الثمن الذي يقبضه الباغازي.

6 Celestial City مدينة السماء في كتاب (رحلة الحاج من هذا العالم لما هو آت) لجون بنيان.

7 Valley of the Shadow of Death وادي ظل الموت في كتاب (رحلة الحاج) أيضًا.

كان يعبر عن ازدرائه على نحو خاص لجون واينرايت، الذي يمكن أن نجده يتنفس بمشقة بعد مسير أي مسافة. وكان هكذا منذ أن وطأت أقدامنا اليابسة. وفي طريقنا لإغاثة الطبيب، كنا نستمع إلى حكايات لا تنتهي حول قلب جون الضعيف، وصدر جون الضعيف، ورجليّ جون الضعيفتين، وكيف يعاني جون من آلام في الرأس في الطقس الحار وكيف أن ظهر جون يؤلمه من أخف حمولة. علمنا أن علينا أن نعطيه أصغر حمولة؛ فإما ذلك، أو نستمع إلى شكواه طوال الطريق. وبتّ لاحقًا أشعر بالخجل لصلتي الاسمية بهذا الرجل. أحمد الله أنه ليس أخًا لي، وكنت أتحقق على الدوام من تصحيح من يفترض هذه القرابة.

كان آمودا يعده بالغ الكسل إلى درجة ميؤوس منها. كان يزدري كتابتي، لكن مع جون يبدو أنه يزدري وجوده بحد ذاته. كان يقول كلما سمع شكوى جون: "كل ما يحتاجه هو ضرب قاسٍ ومبرح. ضرب يظهر قيمته الحقيقية كما فعل مع شيرانغو".

كان هناك بعض الكراهية في الأصل بين الطرفين. فعندما رفض الناسيكيون بداية حمل الأحمال التي أعطيت لهم، حاول الطبيب إجبارهم على ذلك، لكن ماثيو ويلينغتون وكاروس فرار كانا حازمين في إيضاح أن هذا لم يكن من ضمن الشروط التي وظفوا على أساسها. كانت الاتفاقية تنص على أن الناسيكيون يحملون نصف الحمولة. فنحن أكثر من مجرد باغازي، إذ نمتلك مهارات أخرى، فمثلًا جميعنا يتحدث الإنكليزية. وبعد مزيد من الجدال، سلّم الطبيب بالأمر، مضيفًا بسخط: "عرفت الآن أن عليّ أن أتجنب السود الأحرار، فهم مكلفون وأرقى من أن يعملوا عملًا مجهدًا".

ازداد انفعال آمودا خصوصًا عندما عدّ أن الأوراق التي نحملها كانت بلا

أي قيمة. قال إننا يمكن أن نترك بعضها خلفنا، لكنني أوضحت له أهميتها جميعها. فقال نافد الصبر: "أفضّل أن أحمل الطعام على أن أحمل الورق".

بعد رحيل الطبيب، أصبح جون واينرايت تحت إمرة آمودا كليًا. فجاء إليّ وقال إنه لا يريد الاشتراك في المسير.

فسألته: "هل ستبقى هنا في شيتامبو حيث لا تستطيع أن تتكلم لغتهم؟"

لم يكن لديه جواب، وكل ما كان في وسعه أن يقوله هو أنه سيصغي لآمودا.

حاولت جهدي أن أقنع آمودا بأهمية الأوراق لكنه لم يصغ. فتركت الأمر في النهاية لشوما ليوضح له أهمية أن نحمل ممتلكات الطبيب معه. وبعد كثير من التردد، استطاع آمودا أن يتفهم وجهة نظري الصحيحة، بالطبع.

أما الأشياء الوحيدة التي تركناها فهي بعض الصحف القديمة التي لم يكتب عليها الطبيب إلى جانب ما اقترح سوزي أن يظل مع شيتامبو لكي تكون دليلًا، عند الحاجة، لإثبات أن الطبيب مر في المكان وترك هناك قلبه.

وبينما كنا نحن الناسيكيين نحمل الأوراق، كان جايمس شوما وعبد الله سوزي مسؤولين عن جثمان الطبيب. وسيدورون المهمة مع الآخرين خلال المسير. كان أحد الباغازي الذين أرسلهم السيد ستانلي، يدعى شيرانغو أو كيرانغو، الذي كان صعب المراس قبل أن يتلقى ضربًا يستحقه بأوامر من الطبيب، متلهفًا ليكون من بين من سيحمل الجثمان، لكنه نقل تحت إمرة آمودا وموانياسيره وشوبيره الذين سيكونون مسؤولين عن المؤن وتأمين الطعام.

وهكذا وزعت المهام، واستطعت أن أتبوأ مكانتي بين قادة البعثة. وكل ما ننتظره الآن هو أن تجف جثة الطبيب حتى نكون جاهزين للرحلة. كان قد مضى على موته اثنا عشر يومًا، وكان جسده يجف خلال هذه المدة. أكد

لنا كاروس فرار أننا لن ننتظر أكثر من أسبوع، وربما أقل، حتى يجف تمامًا ويكون بمقدورنا الشروع بالمسير.

في غضون ذلك، حدد القادة الطريق، وذلك بفضل شوما الذي سيكون ملاحنا. لا شك في أنني الرجل الأجدر هنا، أحسن قارئ وأفضل من يتكلم الإنكليزية، لكنني لا بد أن أعترف أن شوما ليس رسام خرائط سيئ. وهذا بالطبع لا يعود إلى ذكاء متفوق، بل إلى أنه أمضى قسطًا وفيرًا من حياته يسافر مع الطبيب.

كان قد رسم خريطة تقريبية مفصلة تظهر موقع شيتامبو بالنسبة للبحر. ووضح لنا أن المسار الأسهل لنا هو أن نتجه شرقًا في الاتجاه الذي يمضي فيه طير العقاب، ثم نتجه مباشرة نحو المدينة الساحلية الأقرب، وهي مدينة كيلوا على ساحل المحيط الهندي. وعندئذ نرسل سفن شراعية لتبحر صعودًا نحو زنجبار، أو نسير على طول الساحل إلى أن نجد معبرًا مناسبًا، ولو أن سوزي الذي يعرف كل ما يلزم عن البحر يقول إن المد والجزر في ذلك الجزء يجعل من الإبحار صعودًا مهمة شاقة.

حذر آمودا من أن خوض هذا المسار سيكون محفوفًا بالمخاطر والصعوبات. لكن ليس المد والجزر أو التيارات هي ما يقلق، بل المرور في مدينة كيلوا نفسها. فذلك المكان هو ميناء العبيد الأقرب إلينا. قال لنا: "قد يعني مرورنا عبر كيلوا أننا سنجد أنفسنا على المسار نفسه الذي تسير فيه فرق تجار العبيد". أومأ الرجال وهم يتفكرون في كلماته.

تابع آمودا: "بالتأكيد، لدينا ذخيرة، لكننا لا نملك سوى عشرين مسدسًا، وبضع بندقيات. لا يستحق الأمر أن نقاتل تجار العبيد ونحن نشق طريقنا في تلك البلاد الغريبة".

"أضف إلى ذلك أننا نحمل جثمان البوانا، وهو ما سيثير شكوك جميع

من سيلاقينا، سواء كانوا تجار عبيد أم غيرهم. لذا يجب أن نتولى أمرنا حيث نستطيع".

وهكذا اتفق الجميع على أنه يجب علينا أن نسلك الطريق الذي لا يرجح أن يسلكه تجار العبيد، حتى وإن كان هذا الطريق أكثر إجهادًا لنا. لذا علينا أن نتجه شرقًا بقدر ما نستطيع، متجهين نحو الشمال الشرقي قدر الإمكان. وعندما نجد أنفسنا في بلاد شبيهة ببلاد شونغو وكابيشا، التي ذهب إليها شوما وسوزي وآمودا مع البوانا منذ سنتين، سنتجه عندئذ شمالًا نحو يويانيمبي ومستعمرة كازه العربية في تابورا ومن هناك إلى باغامويو المدينة الساحلية التي سنعبر البحر أمامها نحو زنجبار.

ثم قال سوزي: "علينا أن ناخذ أمرًا في عين الاعتبار، وهو أن علينا أن ننهي الرحلة قبل بداية شهر رمضان، فإن معظم الباغازي، كما نعلم، من المحمديين، ولن يكون ملائمًا لهم المسير وهم صائمون".

أومأ مونياسيره وشوبيره عندما كان سوزي يتكلم. قال آمودا: "سيبدأ رمضان في شهر تشرين الثاني، ونحن اليوم في بداية شهر أيار. ستكون الرحلة قد انتهت قبل ذلك بوقت طويل، أستطيع أن أحلف بحياة أبنائي على ذلك. إذا تبعنا المسار الذي رسمه لنا شوما، فلن تستغرق الرحلة سوى ثلاثة أشهر من المسير المنتظم، أو أربعة أشهر على الأكثر".

شعرنا جميعنا بالاطمئنان لثقة آمودا. وبدوري، شرعت أصلي مرارًا من أجل أن يكون بمقدوري أن أمضي ميلاد الرب، عيد الميلاد، في إنكلترا. لا أنكر أن شعورًا عظيمًا انتابني لمجرد تخيل نفسي داخلًا مدينة لندن، المدينة التي لم أعرفها يوميًا، بيد أنها تسطع أمام مخيلتي سطوح مدينة السماء في مخلية المسيحي[8].

---

8 Christian المسيحي: شخصية من شخصيات كتاب (رحلة الحاج). (المترجمة).

ففي لندن، هناك جبل صهيون، وفي لندن، سأرسم كاهنًا، وأشرع أخيرًا في مهمتي التبشيرية. لا أعلم ما إذا كانت الرحلة ستؤدي بي إلى قصر الجمال، أو جبال البهجة، أو أرض بيولا، لكنني أستطيع، على أي حال، أن أصلي لئلا أقابل أبوليون أو بعل زبوب، أو أعبر دار الغرور، أو أتسلق هضبة الصعوبات، أو أغرق في طين اليأس، أو أدخل قرية المذلة. وفوق ذلك، أصلي من كل قلبي ألا أمر أنا أو أيٌّا من رفاقي في وادي ظل الموت.

7

19 أيار/مايو 1873

المدخل السابع من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية مواناموزونغو، وفيها تغادر بعثة ليفينغستون بعد وداع حزين لشيتاميبو وقومه وتشرع في المسير نحو الداخل، وحيث يصلي واينرايت من أجل الغفران ونعمة العناية الإلهية.

غادرت بعثة لفينغستون - لو كان لي أن أمنح هذا الاسم لهذه المجموعة الصغيرة من الحجاج - قرية شيتامبو قبيل الفجر في اليوم السادس عشر من أيار/مايو سنة 1873 ميلادية، بعد خمسة عشر يوما تمامًا من وفاة الطبيب. كان قرار الفرقة أن ننهض جميعًا قبل صياح الديكة.

من ثم أرسلنا آخر نداء إلى شيتامبو الذي عاد معنا إلى مستعمرتنا. وبينما رأى تحضيراتنا للمغادرة، أخبرنا أننا سنمر عبر قرية أخيه مواناموزونغو. وقال إنه كان قد أرسل إليه رسولًا. وقد رأينا الرجل بالفعل يُلقن الرسالة، وسمعناه يرددها مرات لنفسه لكي يكون بمقدوره تذكرها.

كنت قد عرفت أن هذه هي الطريقة التي يرسل فيها زعماء القبائل الرسائل فيما بينهم. إذ يحمل رجالهم رسائل باللغة الطول عبر مسافات

شاسعة، ويسلّمونها كلمة كلمة. وحتى عبر مسافات أطول، يذهب رجلان أو أكثر، ويتمرنان مرددين الرسائل التي يحملها كل منهما. حينئذ، شكرنا شيتامبو لإرساله مبعوثه وأعطيناه أوامر صارمة للحفاظ على المساحة التي تحيط بقلب الطبيب خالية من العشب، خشية احتراقها، وأن يحرص ألا يقطع أحد الشجرة التي دفن قلب الطبيب تحتها. وأريناه كذلك الشاهد الذي بنيناه من قائمتين ثخينتين وطويلتين وقطعة خشبية متقاطعة غطيناها بالقطران.

تركنا معه بقية القطران، لكي يستخدمه قومه عند الحاجة. وتركنا معه أيضًا صندوقًا كبيرًا من القصدير وبعض الصحف. قلنا له: "إن علم الرجل ومعرفته مطبوعة على هذه الصحف، فإذا جاء، يومًا ما، رحالة من بلاده، ستريهم إياها أنت أو خلفك لكي يعلموا أن رجلًا منهم قد كان في بلادك".

بعد أن وعدنا بأن يفعل كل ذلك، نظر إلينا بحزن وقال: "كان قومي رحالة أيضًا، وقطعوا الطريق المؤدي إلى البحر. لكن أولئك الإنكريز، إذا ما جاؤوا، فيجب أن يأتوا قريبًا، لأنه قد يحدث في أي لحظة اجتياح لمازيتو. وإذا ما حصل ذلك، فسنجبر أنا وقومي على التوجه شمالًا نحو الغابات خلف نهر لوالابا".

ثم أضاف: "قد يقطع أحدهم الشجرة ليصنع زورقًا، وعندها سيضيع أي أثر".

أكدنا له أنهم سيأتون قريبًا، الإنكليز، لكننا كنا نعلم كما كان هو يعلم أننا لا يمكن أن نضمن ذلك.

وإذ أودعنا فقيدنا العزيز في طمأنينة، سرنا أمام بيوت القش، أمام سياج الزعيم، أمام حظائر الماشية، وأمام مخازن الحبوب حيث كان الدجاج ينقر الحبوب المتناثرة على الأرض. كانت السماء فوقنا زرقاء صافية. على

رأسنا كان آمودا وشوبيره وكل منهما سفيرًا. وخلفهما رفع كاروس فرار عاليًا راية السلطان الحمراء. وحمل آسماني العلم البريطاني. وبينما كانت الرايتان ترفرفان في الهواء، كان ماجوارا يهوي بعصاه ويقرع الطبل. ناحت زوجات شيتامبو. وهوى ماجوارا بعصاه مجددًا. هتفت الفرقة هتافًا عاليًا في الوقت الذي أطلق قوم شيتامبو صيحة. ولوّح شيتامبو تلويحة أخيرة. وإذ أدرنا ظهورنا لقومه، واجهنا الشمال وتبعنا النهر المتعرج إلى خارج مستنقعات بانغوولا نحو المجهول.

اتفقنا على أن تسافر القافلة بالطريقة نفسها التي اتبعناها للوصول إلى شيتامبو، والفرق الوحيد هو أنه بدلًا من أن يسير رجل حي في وسطنا، كان الطبيب جثة هامدة.

في المقدمة، كان يقودنا بدور السفير شوبيره ومونياسيره إلى جانبه. حمل شوبيره، القائد، راية سلطان زنجبار، بينما رفع إلى جانبه مونياسيره علم بلاد الطبيب. فلأن جلالة الملكة عينت الطبيب قنصلًا فخريًا للبلاد، كان له الحق في حمل علم وطنه. كان منظر الرايتين بديعًا للناظر، وكنا نأمل أن يشكلا حماية لنا من الأقوام التي نمر في أراضيها.

حذرنا آمودا من أنهما تؤمنان لنا الحماية في الأراضي التي يُعترف بسلطتهما فيها. أما الآن، فقد كنا قد أوغلنا عميقًا إلى الداخل حتى لم يعد للرايتين أي تأثير. ابتعدنا كثيرًا عن منطقة نفوذ سلطان زنجبار حيث لم يعنِ اسمه أكثر من خرافة. لكننا رغم ذلك كنا نشعر بالارتياح لرؤية تلك الشعارات المألوفة في مقدمة قافلتنا.

خلف شوبيره، كان العسكر العشرة يحملون عشرين سلاحًا وكمية من الذخيرة، بالإضافة إلى حمولتهم الخاصة. إذ كان كل منهم يحمل بندقية قصيرة إلى جانب بندقيته. ثم هناك ماجوارا، الكيرانغوزي، الذي ينظم

خطانا في المسير ويدق إيقاعًا ثابتًا على طبله ليمنح القوة لأضعف الأقدام. وكان بين الفينة والأخرى يهوي بعصاه ليرفع معنوياتنا.

بعد مواجوارا، نأتي نحن الناسيكيون، مع أوراق الطبيب، وخلف الناسيكيين هناك حِمل الفقيد. كان يحمله بالدور باغازي عدة، وكان سوزي يتحقق على الدوام من أن من يحمله رجال من الطول نفسه لتجنب تحميل الأقصر وزنًا زائدًا.

شيرانغو الذي كان في العادة أبعد ما يكون من أن يتطوع لعمل غير إلزامي عرض أن يحمل الطبيب، وكان يقدم نفسه بتلهف ويعرض أن يحمل "العظام البيض"، كما دعاها. رُفض عرضه، فجاء إلي على الفور لعلّه يحمل "الأوراق البيض".

قلت له إن لدينا ما يكفي من الرجال لحمل الأوراق، فأخذ شيرانغو مكانه بين الباغازي الأدنى، لكن بابتسامة ودودة تبعث على السرور. أعترف أن تلك الروح كانت بمثابة مفاجأة، فلم يكن يومًا من أكثر الرجال التزامًا.

في الخلف، كانت ميسوزي وحليمة والأطفال يثرثرون بإيقاع متواصل يقطعه بين فينة وأخرى بعض الغناء. كانت حمولة النساء خفيفة، إذ يحملن حاجاتهن وأغراض الطبخ فحسب. ويتناوبن أيضًا على حمل الأطفال الذين لم تعد أرجلهم قادرة على متابعة المسير.

كان آمودا حريصًا على حث الفرقة للتصرف على نحو طبيعي قدر المستطاع. فكما قال، من المهم أن نبدو كأي فرقة مسافرة، فرغم أن مهمتنا كانت كئيبة وحملنا ثقيل، كانت عصا ماجوارا تضرب ببهجة وطبله يدق بإيقاع ثابت، وجلجلت الأجراس التي كان يضعها البعض في أقدامهم، وغنت النساء والباغازي. كان مسيرنا أشبه بأي مسير عادي.

كنت بين حين وآخر أسير إلى الخلف نحو النساء لأستعجلهن قليلًا. في الحقيقة، قلت إن النساء يمكن أن يؤخرن البعثة، لكنني لا بد أن أعترف أنني وجدت غناءهن مبهجا، خصوصًا غناء تاويكا التي تمتلك صوتًا جميلًا ودافئًا. تبين لي عندما وصلنا إلى مكان مليء بالمستنقعات في مسيرنا أنه كان علي أن أساعدها في قطع المجرى المائي عدة مرات، فقد طلبت مساعدتي بكل ود. نظرت إلى حيث كان رجلها مبروكي، وكان آنذاك قد قطع الطريق مع الباغازي الآخرين.

قالت حليمة: "هل ستساعد تاويكا وتترك بقيتنا واقفات؟" بعد أن واجهتني بذلك، لم يكن لديَّ خيار سوى أن أساعد جميع النساء، وأطفالهن، لقطع المجرى المائي، وكانت حليمة في هذه الأثناء تثرثر ملمحة إلى أنني ظهرت أقوى مما كان يبدو علي. وعندما كنت أحمل لوسي، طفلة حليمة، سررت لرؤيتي شيرانغو يفلت حمولته ويأتي لمساعدتي.

قطعنا المنطقة المليئة بالمستنقعات، ومشينا ليوم كامل، وأمضينا الليل في فسخة خالية من الأشجار، ثم مشينا مجددًا حتى وصلنا إلى قرية موانامووزونغو قبيل الغروب.

أرسل شيتامبو كما وعد نبأ قدومنا إلى موانامووزونغو، الذي كان أخاه. كانا مختلفين أشد الاختلاف، فبينما كان شيتامبو بدينًا ولطيف الهيئة، كان أخوه نحيلًا وعلى وجهه نظرة جدية. في الواقع، عندما يتكلم الرجال في هذه المناطق عن إخوة لهم، فليس يقينًا دومًا إذا ما كانوا يشيرون إلى رجال تربطهم معهم صلة دم، أم أن الكلمة ببساطة تدل على رجال تربطهم معهم رابطة تحالف.

استقبلنا بحرارة، رغم أنه كان واضحًا أنه لولا استحسان شيتامبو لنا، لكان أرسلنا للتجارة. وكان قد أخذ في الاعتبار أين سننام وأرانا

خمسة أكواخ على طرف المستعمرة التي يستخدمها قومه لتخزين الحبوب بعد الحصاد، لكنها كانت في ذلك الوقت فارغة، لأنه لم يكن وقت الحصاد آنذاك.

قال إننا سنبيت الليلة هنا، لكنه كان حازمًا في رغبته أن نغادر في الصباح. فأكدنا له نيتنا المغادرة بأسرع ما يمكن وأجرينا تحضيراتنا للمبيت، طبخت النساء وجبة المساء، فجلسنا وأكلنا، وبعد فترة وجيزة، أعيانا التعب وغط المخيم في النوم.

8

21 حزيران/يونيو 1873

المدخل الثامن من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية مواناموزونغو، وفيها تصاب الفرقة بمرض شديد يثير الخلاف، ويصلي واينرايت لله أن ينقذهم من الآلام والويلات.

يؤسفني، بعد قرارنا بالمغادرة، أن أبلغ أننا تأخرنا هذا الشهر كله بسبب مرض شديد أصاب الفرقة برمتها. إذ توقفنا على بُعد مسير بضعة أيام من حيث بدأت بعثتنا، في أرض مواناموزونغو.

لقد كنت نفسي مريضًا بشدة إلى درجة أنني لم أكن قادرًا على أن أمسك بقلمي، ناهيك عن الكتابة به. لهذا السبب لم أكن قادرًا على أن أنقل لهذه المذكرات في حينها المعلومات حول تعرقلنا. وفي الحقيقة، اليوم فحسب أصبحت قادرًا على تعويض هذه الكبوة المؤسفة.

كنا كما رويت، بعد أن غادرنا قرية شيتامبو، قد استقبلنا مواناموزونغو أخو شيتامبو بحرارة. لكنه في صبيحة اليوم التالي لليلتنا الهانئة في قريته، أصيب أفراد الفرقة جميعهم بالمرض وطرحوا في الفراش.

إنه مرض غريب. شعرت به كما الآخرين في أطرافي وعضلاتي. كانت

الأعراض التي شعرنا بها جميعًا هي آلام مبرحة في الأطراف والوجه، وشعور بالإنهاك، وعجز كامل عن الحركة في الحالات الشديدة. كان مواناموزونغو خلال فترة مرضنا لطيفًا معنا بقدر أخيه شيتامبو.

يبدو أن أكثر المتضررين هو سوزي، الذي عانى للغاية. فقد استقر عنده المرض في البداية في إحدى رجليه، ثم ما إن اعتقد أنه شفي حتى انتقل المرض إلى الأخرى. تركزت آلام شوما في فخذيه ومثانته ولم يكن قادرًا على الحركة بتاتًا. وباغازي يدعى سونغولو كان شديد المرض أيضًا، وكان ألمه يتركز في أطرافه. كان شيرانغو أيضًا طريح الفراش، لكنه على الرغم من مرضه، كان منكبًا على مساعدتي بدأب.

يسرني أن أذكر أنه أبدى بعض الاهتمام بمعرفة المزيد عن رحمة المسيح. قد يصبح أول من يتحول إلى المسيحية على يدي، بالإضافة إلى تحول مهم آخر وهو أن يستعيد عرش بلاده، كما يرجو. آمل أن أستطيع مع الوقت إقناعه بالإقلاع عن العزف كل ليلة على آلته الوثنية التي يسميها جاري. ثمة شيء غير لائق في الصوت الذي تصدره. وفي الواقع، عندما يعزف عليها، يبدو أنها تؤدي إلى شعور أشبه بالغيبوبة عند مستمعيها. بالإجمال، وجدت أن تأثيرها شبيه بتأثير أنابيب سحرة الأفاعي في سوق بومباي.

كاد ينشب شجار بين شيرانغو وكاروس فرار. فقد كان كاروس فرار وفرج الله كريستي، باعتبارهما الرجلين الذين يملكان خبرة في الأمراض الجسدية، يسعيان لإيجاد وسائل لعلاج الفرقة، عندما لم يكونا طريحي الفراش. ولأجل هذه الغاية، كانا يحاولان اقتفاء سبب المرض أملًا منهما في تحديد مصدر المرض لأن ذلك قد يساعدهما في إيجاد علاج له، أو تخفيف حدته على الأقل.

أفصح شيرانغو عن اعتقاده أن الفرقة بأكملها تعاني بسبب فرط

تناول الطعام، وقال: "في الحقيقة، استهلكنا كمية كبيرة من اللحم عندما وصلنا". وأشار إلى خطورة تناول أحشاء الذبيحة.

نقضه كاروس فرار بحدة، فهو يعتقد أن تفسير مرض الفرقة برمتها، وليس فردًا أو اثنين فحسب، يأتي من المستنقعات السبخية التي كنا نخوضها. يعتقد أن الأذى حدث عندما مررنا عبر المياه قبل وفاة الطبيب، إذ جاء مرض من المياه واستقر، وربما كان من العلقات التي التصقت بنا التصاقًا شديدًا عند عبورنا، وكان ينتظر تحفيزًا خفيفًا لينتشر في أجسامنا. يعتقد أن عبورنا باتجاه مواناموزونغو الذي كان بالكامل تقريبًا عبر المستنقعات السبخية ذاتها قد قلب الموازين ضدنا.

يتفق فرج الله كريستي مع هذا الاستنتاج الذي يدعمه غياب المرض عند الأطفال حسب قوله. فمن بين الأطفال، كان ماجوارا هو الوحيد الذي أصيب. إذ كانت حليمة مصرة، وعلى نحو هستيري في الواقع، على أن لوسي وبقية الأطفال يجب أن يُحملوا عبر المستنقعات، خشية أن يغرقوا. كانت رحلتنا بطيئة وطويلة، ونحن نحمل الأطفال أولًا، ثم الأمتعة. واتفق كاروس على أن نجاة الأطفال من المرض هي دليل على أن مصدره هو مياه المستنقعات الآسنة.

عندئذ، توسل شيرانغو بكل تواضع ليسامحانه وقال إنه لن يتفوه بأي مما يناقضهما بل سيفعل ما في وسعه لتقديم يد العون. قال: "شيرانغو، رغم أنه الأكثر مرضًا بينكم، مريضًا بما يكفي ليعرف سبب علته، يثق بمن تشرّب منكم معرفة الرجل الأبيض، وإن كان قد رأى حالات كثيرة شبيهة بهذه الحالة".

النساء أيضًا أصبن بالمرض. ما يمكن أن نكون شاكرين له فحسب هو أن الوهن الذي أصابنا يجعلنا لا نحتاج الكثير من الطعام، وهكذا لا

نأكل سوى وجبة واحدة في اليوم، إذ يرسل الطعام مواناموزونغو بكل لطف. وعند ذلك، طلب أن تأخذ عدة عائلات الأطفال الستة في فرقتنا ليساعدوا في أعمال المنزل مقابل الطعام.

تعتقد حليمة بشدة أن السحر هو مصدر متاعبنا، وأن وراء ذلك كله هو طبيب شيتامبو الساحر الذي رأته يتكلم مع شيرانغو في اليوم الذي مات فيه الطبيب. كنت سريعًا في تبديد شكوكها الوثنية. في الواقع، لو إن كاروس فرار وفرج الله كريستي محقان في ما أصابنا بالمرض، فإن مستنقعات بانغوولو هذه هي بالفعل مستنقع القنوط، ومواناموزونغو هو الشخصية الطيبة، العون، الذي اندفع بيديه لانتشالنا من الوحل.

وفوق هذا المرض، كان علينا آجلًا أن نتعامل مع أزمة أخرى. فبينما كنا طريحي الفراش، انفتحت السماوات وهطل مطر غزير غير موسمي على الأرض وعلينا. لطالما كان المطر زائرًا غير مرحب به للرحالة، لكنه كان أثقل علينا، لأنه يهدد بإفساد كل ما فعلنا لتجهيز جثة الطبيب لأسفارنا القادمة.

كان كل شيء في الوقت الراهن في أمان، فقد كانت الجثة موضوعة في كوخ خاص، إلى جانب أمتعتنا، ولم تكن عرضة لخطر الأمطار المباشر. لكنه كان واضحًا أنه لو استمرت الأمطار في الهطول في مواناموزونغو وفي المستقبل أيضًا، فإن علينا أن نتخذ تدابير احترازية لنضمن ألا يحصل ضرر يضيع عملنا لأسبوعين سدى.

لحسن الحظ، كان آمودا في هذه الأثناء قد شفي وبات قادرًا على تولي الأمور. وإليه تعود فكرة طلاء القماش الخارجي بالقطران. تذكر آمودا أننا تركنا مخزوننا من القطران مع شيتامبو. وكل ما كان علينا عمله هو إرسال أحدنا لإحضاره، ولأن قرية شيتامبو تبعد مسير يومين، فسيستغرق أمر

ذهاب الرسول إلى هناك والعودة إلى مواناموزونغو أربعة أيام.

شيرانغو، الذي بدا حتى تلك اللحظة شديد المرض، أصر على الذهاب مؤكدًا أنه قادر على السفر، وفي الحقيقة، ألحّ على نحو مدهش ورافق وادي سافينه وآسماني في طريقهما إلى قرية شيتامبو.

عادوا بعد خمسة أيام يحملون برميل القطران وأسف شيتامبو للتأخير الذي أبقانا حيث نحن. أشرف آمودا على طلاء القماش الذي يحيط بالجثة بالقطران. بدا أن ذلك يفي بالأغراض كافة. ولحسن الحظ، فلقد توقف المطر كليًا عن الهطول آنذاك. لكن الأمطار أنزلت بنا نازلة أخرى.

هبطت مع الأمطار الظلمة على عقل مواناموزونغو المتشكك، لأنها سقطت في وقت غير متوقع. استشار الزعيم صناع المطر والرجال الآخرين العارفين بالطب وقالوا له إن الإمطار كانت نذير شؤم بما هو قادم.

وهكذا عبر عن رغبته الشديدة في أن يرانا نغادر أرضه. قال لنا إنه يسمح لنا بالتخييم لليلة واحدة، أو ربما اثنتين، وبعد ذلك، فإن أخاه شدد عليه، بأن الرجال الغرباء الذين يحملون معهم عظام رجل ميت يجب أن يغادروا أرضه. لكن الآن فقد أصيبت الفرقة بأكملها بالمرض، والأسوأ هو أنه سيصير بيننا المزيد من جثث الموتى لنحملها معنا، وهو لن يسمح للموت أن يأتي من الغرباء إلى قومه.

كنا حينذاك تحت ضغط كبير لنغادر. لكن لحسن حظنا استطاع كاروس فرار، الذي تعافى آنذاك، أن يطلق النار على ثلاثة جواميس ضخمة. فقدمناها إلى مواناموزونغو وقومه، الذين احتجوا بأن كمية اللحم كبيرة جدًا وأن علينا أن نأخذ نصيبًا منها. فقضينا وقتًا ممتعًا في كثير من الضحك والبهجة خلال هذه المأدبة غير المتوقعة. بعد ذلك هدأ مواناموزونغو إلى حد كبير وأظهر لنا لطفًا كبيرًا. لم يمر يوم دون أن يرسل لنا هدية ما.

استعادت النساء عافيتهن بما يكفي ليساهمن في تحضير اللحم لأسفارنا. جففت حليمة وميسوزي وتاويكا أكبر قدر ممكن من لحم الجاموس. وعندما مررت بهنّ أثناء العمل، أخذت حليمة شريحة من اللحم وقالت: "اه، لو أننا شرحنا البوانا إلى شرائح صغيرة كهذه، لكان قد جف في وقت لا يذكر".

هذه المرأة فاسدة. تركتهنّ لضحكهنّ، لكنني سررت لرؤيتي تاويكا لم تضحك على نحو أرعن مثلهنّ. أحبُّ أن تتخذ اسم "جوديث"، لو أنها ستتحول إلى المسيحية يومًا. جوديث هو الاسم الذي قد أختاره لها.

في غمرة كرمه، وامتنانه للجاموسين، قدم لنا موانامزونغو بقرة وحمارًا. كانت البقرة حلوبا، ما جعل حليمة تحكي لنا بحماس عن الشاي المنكه مع الحليب الذي كانوا يشربونه في بيت الوالي. وسترى ما يمكن أن تبتكره على الطريق. ولأسفي الشديد، أرسل موانامزونغو أيضًا برميلين مليئين بشراب بومبي الذي تلقاه الرجال بكل سرور. واتفقنا أننا سنغادر فجر اليوم التالي.

كنا وقتذاك قد تعافينا كليًا. فذهبت تاويكا وميسوزي إلى القرية لإعادة الأطفال والاستعداد للمغادرة. كانتا قد عادتا للتو من مسيرهما القصير عندما وصلتنا أنباء صادمة: امرأة من فرقتنا تدعى كانيكي، كانت مرتبطة بشيرانغو، طرحها مرض شديد. ثلاث آخرون قد أصيبوا أيضا، وهم سوزي وامرأته ميسوزي وسونغولو. أصيبوا بالمرض بعد شرب البومبي الذي أرسله موانامزونغو. كان الأربعة في غاية المرض وتقيؤوا كميات كبيرة إلى درجة أنهم كانوا عاجزين عن المشي.

بدا كأن المرض انتقل من الأطراف إلى الأحشاء. وما كاد يبدو أن سوزي بدأ يتعافى حتى استسلمت امرأته للمرض، وخلال ساعات، سقطت،

بعد كانيكي، ميتة. لم تكد تمضي ساعتان حتى استسلم سونغولو أيضًا.

بدأت الفرقة برمتها الحداد على الموتى. ورغم أن سوسي وعد بالمضي، إلا أن موت ثلاثة منا كان مربكًا لموانامozونغو إلى درجة أن طيبته التي أظهرها بعد هدية الجواميس قد تلاشت. وكما احتوانا دون تردد، فقد انقلب علينا الآن. قال إننا نحمل نذر الشؤم، وأنه يريدنا أن نرحل عن أرضه على الفور. وأن علينا أن نأخذ معنا موتانا جميعهم معنا. علينا أن نغادر حالًا.

9

10 تموز/يوليو 1873

المدخل التاسع من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في شيزالاما، وفيها تصل البعثة إلى نهر لوابولا ويصلي جاكوب لله في السماء أن يميل قلوب أولئك الذين لم يعرفوه بعد، وأن يدخل قلوب من قد يبتعدون من الخطيئة.

انتقلنا إلى هضبة صغيرة بعيدة عن أرض موانامونزونغو لكنها على مرأى منها. ورغم أن سوزي وآمودا توسلا موانامونزونغو ليسمح لفرقتنا بالبقاء أطول بقليل، لكنه كان جازمًا في رغبته أن يرانا خارج أرضه.

لان فحسب بأن أشار إلى الاتجاه الذي سنمضي فيه قائلًا: "عندما تصلون إلى تلك الهضبة، فستكونون قد غادرتم أرضي. سيكون لوابولا أمامكم، ولكن لا آبه أينما تذهبون بعد ذلك، لأنكم جلبتم الموت إلى أرضي وأريدكم أن تمضوا قبل أن تجلبوا الموت الذي تحملونه إلى قومي".

ردد سوزي كلمات أخيه قائلًا: "تذكر كلام أخيك شيتامبو الحكيم، الذي قال لنا إن الموت غالبًا ما يزور الرحالة، حتى عندما لا يتوقعونه".

قال موانامونزونغو: "أخي أحمق". اصطف رجاله مسلحين بالرماح على

طول طريقنا ليضمنوا مغادرتنا أرضهم. شتان بين مغادرتنا أرض أخيه وهذا!

ونكاية أخيرة بنا، استرد مواناموزونغو البقرة التي أهداها إيانا. وسمح لنا على مضض بالاحتفاظ بالحمار، وعلى هذا المخلوق استلقى سوزي عندما عجز عن السير. كان سبعة من الباغازي يشعرون بالوهن والعجز عن الحمل، وحتى الناسيكيون كان عليهم أن يصيروا باغازي ويساعدوا في حمل الأحمال. كان جون واينرايت أعلاهم صوتًا بالشكوى، لكنني أخبرته أن هذا الاستياء يجب أن يفسح لمقتضيات وضعنا الحالي الضرورية.

ثم ما أثقل علينا بعد هو أن علينا أن نحمل جثث كانيكي وميسوزي وسونغولو قدر المستطاع خارج أرض مواناموزونغو. تطوع شيرانغو لحمل حزم كثيرة إلى درجة أن صار أمامه كومة من الحمولة، وكان عليه أن يطلب المساعدة في حملها. تدبرنا أمورنا بقدر ما أمكننا وتقدمنا ببطء.

استغرق وصولنا إلى الهضبة الصغيرة التي كانت الحد الفاصل لأرض مواناموزونغو مسير نصف يوم، وقد أثبتت لنا أنها كانت هضبة الصعاب بالفعل. عند أول فرصة سانحة، أجرينا مراسم دفن الثلاثة الذين رحلوا. لكن قبل ذلك كان هناك بعض الجدل حول ما يجب أن نفعل بالجثث. تجادلت النسوة أن علينا أن نفعل بالجثث مثلما فعلنا بجثة البوانا. حليمة انتحبت وصرخت عاليًا قائلة إن ميسوزي لن ترقد بسلام لأنها كانت تخاف دومًا من أن تتحول إلى شبح شيتاني. قال لها آمودا بقسوة أكثر مما ينبغي ألا تكون حمقاء. يكفينا أننا نحمل جثة الطبيب، فكيف نحمل أربعة جثث دفعة واحدة؟

كان شوما أكثر لطفًا في معارضته وأشار إلى الغيوم المتجمعة في السماء، وقال: "كنا محظوظين بما فيه الكفاية لتجفف الشمس جثة البوانا في شيتامبو، لكن هذه الأمطار المنذرة تشير إلى أن أفضل ما نعمله هو أن

ندفنهم على الفور".

كان من الصعب القول فيما إذا بكى سوزي ميسوزي أم لا، إذ إنه كان طريحًا بسبب المرض. لكن حليمة ندبتها بالتأكيد، وندبت بصوت عالٍ وإن بدا ذلك بسبب الشعور بالذنب أكثر من أي شيء آخر، فهي بالطبع لم تكن على الدوام لطيفة مع المرأة.

أما شيرانغو، فقد تحلى بالجلد، وأظهر رباطة جأش إثر موت رفيقته، كانيكي. قال: "لطالما كان قدري هكذا، فأنا وريث مملكة ضائعة، واليوم رحلت امرأتي قبل أن تخلف لي بذرة واحدة".

كنت في غاية السرور لأن شيرانغو طلب مني أن أقول بضع كلمات فوق جثمانها. ليس ثمة عقل أكثر استعدادًا لاستقبال كلمة الله أكثر من عقل أصابه حزن جديد، أو ما يزال يتعافى من مرض. وها هو شيرانغو، يختبر الحالين. لم أتردد في أن أقترح عليه أن يسعى للعزاء في الله الذي يعزينا جميعًا.

لكنه يبدو أنني كنت أزرع البذار في حقل محروث، إذ يظهر أن كلماتي في جنازة البوانا قد كان لها أعمق أثر في شيرانغو. قال إن ما قلته قد صدمه بقوة إلى درجة أنه يريد أن يعرف المزيد حول إلهي، لأنه لم يجد حتى الآن إلهًا يناسبه بالفعل.

رغم أن وجهي اكفهر إزاء اعتقاده بأنه يستطيع أن يجرب إلهًا ويتركه كما لو أنه يجرب قطعة ملابس، إلا أنني سررت لرؤية أن لديَّ في مهمتي على الأقل احتمالًا واحدًا. إذ قلت له: "الأمر الأول، يا شيرانغو، هو أنه لا إله غيري. ثمة إله واحد فحسب: قال الله، أنا الرب إلهك".

خطر في ذهني حينها أنني الشخص الأنسب لترجمة الكلام المقدس إلى اللغة السواحلية. أي عمل سيكون هذا! كم من الأرواح يمكن أن

تهتدي إلى الله عندئذ، لو فهموا الكلمة بلغتهم! لعلي أستطيع أن أفعل باللغة السواحلية ما فعله سيدي الموقر ايزنبيرغ باللغة الحبشية. لكنني سرعان ما وجهت تفكيري إلى العمل الملح الذي عليّ أن أفعله وهو أداء مراسم الجنازة للموتى من رفاقنا.

بعد دفنهم والاستراحة لثلاث ليالٍ في موضع خالي، تابعنا رحلتنا واتجهنا نحو نهر لوابولا. تعلق شيرانغو بي عندما أخبرته عن أمجاد ملكوت الله. وحتى عندما كان دوره في حمل جثمان الطبيب، أصر على أن أسير بالقرب منه.

شعرت بالغصة عندما فكرت في أنه لولا موت زوجته لكان في فرقتنا اثنان تحولا إلى المسيحية، لكنني سرعان ما صرفت هذه الفكرة عن ذهني عندما أدركت أنه لولا موت كانوري، لربما لم يكن شيرانغو متقبلًا لكلمة الله. لله في ما يعمل سبل لا ندركها، لتحقيق معجزاته. يقول الرب، ادعني فأجيبك وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها.

وهكذا، وأنا أتكلم ويصغي شيرانغو إلى جانبي، وقع بصرنا على نهر لوابولا. واتجهنا إلى قرية زعيم يدعى شيزالامالاما قدم لنا الزوارق لقطع النهر مقابل الخرز والقماش. وعندما جلسنا حول النار تلك الليلة وشيرانغو يعزف على آلته الموسيقية، قال شوما: "لو أن بوانا دودي كان هنا لأراد أن يعرف من شيزالامالاما إذا ما كان هذا النهر أحد الينابيع التي يبحث عنها".

أرادت حليمة أن تعلم لماذا كان البوانا يتوق لإيجاد هذا النهر. قالت: "رغم أنني صدعت رأسي في التفكير في الأمر، إلا أنني ما زلت عاجزة عن فهم سبب توقه لإيجاد منبع هذا النهر".

قال سوزي: "ألم تعرفي يومًا عظمة الوصول إلى بقعة تعتقدين أنك أول

من يراها؟"

قالت حليمة: "ليس ثمة بقع كهذه، لأنه كان هناك بشر في كل مكان. كانت تدعوهم أمي الأسلاف. لدينا جميعًا أسلاف عاشوا قبلنا، وأرواحهم هي التي تحرسنا".

قال آمودا: "لكن ليس كل ما يوجد قد رأيناه، وكان بوانا دودي من أولئك الذين يبحثون عما هو مجهول". قالت تاويكا: "أتفق مع حليمة، لا أفهم ما شغل جميع أولئك الرجال في قطع كل تلك المسافات، ونبش العظام ونبش هذا ونبش ذاك، واكتشاف الأماكن التي كان يعيش فيها الناس في السابق".

قال آمودا: "ذلك لأن حب الترحال لم يسيطر عليك، فها هو سوزي، رغم أنه يغمز كل امرأة يراها ويبتسم في كل اتجاه، فهو لن يستقر في مكان واحد. بمجرد أن يعتاد المرء على السفر فإنه سيذهب بعيدًا".

قال سوزي: "أريد أن أهجر اليابسة كلها. فحلمي أن يكون لديَّ ما يكفي من المال لأشتري سفينة شراعية لأجهزها لرحلة طويلة. أريد أن أبحر نزولًا على طول الساحل من زنجبار إلى موطني شوبانغا".

قالت حليمة: "لا أفهم كل هذا. كل ما أريده هو بيت صغير في مكان ما، حيث أستطيع أن أطبخ السمك وأزرع شجرة فاكهة، أو ربما اثنتين".

توقفت الموسيقى وصاح صوت لطيف: "ربما لو ذهبت معه لفهمتِ. أنا على يقين من أنه سيأخذك معه. واضح أنه يفكر فيه، فهو يكاد يأكلك بعينيه".

حدق آمودا وحليمة بشيرانغو، لكنه قال: "أقصد أنك لو ذهبت مع

رجلك، آمودا، لأنه سافر كثيرًا ورأى الكثير مما يمكن أن يريك إياه".

أعترف أنه رغم أنني لا أعبر عن مشاعري بالطريقة الجاهلة والفجة التي تستخدمها حليمة، إلا أن الترحال لأجل ذاته يبدو لي أكثر الطرق إضاعة للوقت. وهو ما لا يمكنني فهمه بخصوص الطبيب. كان سيدي مبارك، الذي يدعوه الجميع بومباي، وكان قائد بعثة السيد ستانلي، يقول مرارًا إن الملازم بورتون، الذي كان قائد البعثة الأولى، قد اعترف أنه في كل مرة يرحل في بعثة، كانت لمسعى عقيم، وكان الشيطان وراءها.

لا أعلم ما إذا كان الشيطان هو من يدفع أولئك الرجال إلى أفعال كهذه، لكن ما يدعو للأسف البالغ أن رجالًا بهذا الجد والإصرار يبدو أنهم عاجزون كليًا عن استغلال مواهبهم في سبل أجدى. يبدو أن الملازم بورتون هذا كان رجلًا موهوبًا يتكلم أكثر من عشرين لغة. وقد سافر كثيرًا مع محمديين، حتى إنه دخل مكة. إن جدًا واجتهادًا كهذا بصرف على أمر تافه مثل مجرد الترحال والاكتشاف لهو أمر مؤسف فعلًا! لو أنه حول إلى المسيحية محمديًا واحدًا في رحلته، فأي هدية للعالم سيكون ذلك!

والأمر ذاته بالنسبة للطبيب. لو أنه كان يعمل لأجل الله! لو أن حكومة بلاده ترسل قساوسة ليعظوا ويحولوا الناس إلى المسيحية، وليعمدوهم ويعلموهم العقيدة، ثم يشرفون على بناء الكنائس والمدارس على طول ساحل إفريقيا ليخرجوا هذا العرق بأكمله من ظلام الجهل إلى نور المسيح، فهذه ستكون مهمة حقة لأي بعثة. لكن هذا التعطش الدائم للاستكشاف، وإلى منح أسماء جديدة لما له في الأساس اسم، أمر أبعد من مستوى إدراكي.

تخيل أي ظفر يمكن أن نجنيه للمسيح لو أن رجلًا مثل سوزي تحول إلى المسيحية. سيستطيع حينها أن يبحر معي، برفقة مجموعة صغيرة من الحمالين، ويأخذني صعودًا ونزولًا على الساحل، وربما نصل إلى أرض

مولدي، لا لمجرد متعة السفر الحيوانية، بل لأن المسيح يأمرنا بذلك.

وبينما كنت أتأمل في ذلك والآخرون يتحدثون حول النار، جاء من قلب الظلمة صوت حيوان يتلوى ألمًا. فقفزنا وركضنا باتجاه الصوت. انتزع آمودا عود حطب وأضرم النار في العشب، فقد كانت بقعة مظلمة. وفي ضوء العشب المشتعل، وقع بصرنا على مشهد مرعب.

كان هناك أسد يقف وأنيابه تقطر دماء فوق حمارنا المسكين الذي كان ينزف من عنقه. كان لمونياسير الفطنة لأن يرفع بندقيته ويطلق النار باتجاه الوحش، وإثر طلقته استدار الأسد وهرب.

أدركنا حينها الخطر الذي كان يحدق فينا جميعًا. ولم نستطع أن نرتحل، ثم من يعلم أي خطر سنواجه بعد. وبأمر من مونياسيره، تناوب العسكر على حراسة المخيم تلك الليلة، وبنادقهم على استعداد وبواريدهم ملقمة بالرصاص.

في ضوء نهار اليوم التالي، أظهر خيط من الدم أن طلقة مونياسير قد فعلت فعلها. وفي نهاية الخيط كان الأسد ملقى، لقد سقط ميتًا على بعد مسافة ما، لكننا استطعنا أن نتبين بوضوح أثر أسد آخر، وقال مونياسير، ربما قطيعًا كاملًا، فاتفقنا على الرحيل بأسرع ما يمكن. ثم سلخ مونياسير جلد الوحش.

قال: "هذا الجلد سيرافقني كل أيامي".

وإذ كانت تنظر بعين جائعة إلى اللحم، كانت حليمة تتحسر على أننا لا نستطيع أن نأكل الأسد أو الحمار. وقالت: "حتى عصير ألف ليمونة لا يمكنه أن يجعل هذا الطعام سائغًا".

وبينما كنا نشق طريقنا عبر نهر لوابولا، حرصت على البقاء قريبًا من شوما. فبرغم أنني لست مهتمًا بشؤون الجغرافيا، إلا أنني كنت مدركًا

أن دلالات تضاريس الأرض، خصوصًا إذا كان من الممكن أن تؤدي إلى توضيح بحث الطبيب، ستجعل مذكراتي المتواضعة موضوعًا مثيرًا لاهتمام القراء.

ولذا كنت أسأل شوما بإمعان حول ملاحظاته وأدون ما يقوله.

هنا نهر لوابولا، حسب شوما. عند عبورنا فإن عرض لوابولا ضعف عرض زمبيزي في شوبانغا، أربعة أميال كاملة. لا يُرى امرؤ يقف على الضفة الأخرى، والأشجار تبدو صغيرة، يمكن أن يُسمع صوت المسدس عبر ضفتي النهر ، لكن لا صوت آخر، كالصراخ مثلًا، يمكن أن يصل. المسافة في أعمق نقطة حوالي أربعمئة ياردة.

أستطيع أن أقول أيضًا إن العبور استغرق ساعتين كاملتين عبر سيل عظيم. وفي أثناء ذلك، فقدنا ثلاث حزم من اللحم والطعام، وكانت خسارة شعرنا بها جميعًا، خصوصًا حليمة التي يبدو أنها تحسرت عليها أكثر مما تحسرت على ميسوزي.

كان شوما على قناعة آنذاك بأن الطبيب كان مخطئًا في تقديراته. فهذا النهر ليس له أي علاقة بالنيل، فهو يحمل مياه بانغوولو باتجاه الشمال. فإذا كان شوما مصيبًا، فإن مسير الطبيب نحو الجنوب كان بلا جدوى. فإذا كان هذا هو شلال هيرودوتس الذي كان يرجو إيجاده، فهو بالتأكيد ليس منبع النيل.

بعد عبور لوابولا وجدنا أنفسنا في غابة كبيرة وكثيفة. تحت الأشجار كان هناك مشهد صادم. كانت هنا وهناك أكوام من عظام بشرية. كان كل ذلك، وا أسفاه، مألوفًا لنا، فعلى طول مسيرنا للانضمام للطبيب، رأيت أكوامًا يرثى لها من العظام، وكذلك جثث كانت مقيدة على الأشجار.

كان ذلك الاحتجاج الوحيد الذي في وسع الأسرى: ببساطة يرفضون المضي في المسير. وبما أنه لا يمكن حملهم، أو جرهم، أو دفعهم، فقد كان

ذلك احتجاجًا فعالًا. لكنها كانت سوداء قاتمة قلوب أولئك الآسرين حتى إنه عندما يحدث ذلك، يربطون الأسرى إلى الأشجار بقيود محكمة ويتركونهم هناك يلقون حتفهم.

أما فيما يتعلق بالشؤون الروحية، فقد خاب أملي في الطبيب. لكن فيما يتعلق بوصمة العار العظيمة على هذه القارة فإني أتفق معه كليًا. ففي أثناء الاستراحة تلك الليلة، قرأت قرب النار مدخلًا من مذكرات الطبيب عقب مذبحة مانيوما، وأعترف كليًا أنها جعلتني أبكي. قال: "بينما أكتب، أسمع العويل على الضفة اليسرى على أولئك الذين ذبحوا. اوه، ليأتِ ملكوتك!"

فليأت ملكوتك حقًا، يا رب، فليأتِ، وليأت اليوم! فليأت إلى مانيوما، ليأت إلى زنجبار وإلى كيلوا، وإلى لامو وبيمبا، ليأت إلى بلاد الياو وإلى كل أولئك الذين انتفعوا من تلك التجارة الفاحشة. فلتأت يا يسوع، ولتفتدِ هذه الأرض الأسيرة. فليأت ملكوتك كي لا نرى البشر يموتون معلقين على الأشجار، وكل ذنبهم ان الأرواح التي بداخلهم صرخت في وجه ظلمة العبودية الأبدية. فليأت ملكوتك، أيها الرب، فليأت ملكوتك.

10

15 تموز/يوليو 1973

المدخل العاشر في مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في قرية مهجورة شمال شرق لوابولا، وفيها يصلي واينرايت للرب من أجل أن يهدي قلوب أولئك الضعفاء في قبضة الخوف والضيم.

نجد أنفسنا الآن نأوي إلى قرية صغيرة شهدت هروب معظم قاطنيها. كان السكون يخيم على هذا المكان المهجور، فالذين وجدناهم هنا كانوا في معظمهم من العجزة والكسيحين. وأولئك الذين في عمر الشباب ظهر أنهم إما مرضى أو معوقين، وبعضهم يحمل على وجهه علامات الجُدري.

في الليلة الأولى التي كنا فيها هنا، وبينما كنت عائدًا من قرب الجدول الذي كنت أغتسل فيه، خاطبتني المرأة تاويكا. ولأسباب أبعد من إدراكي، كنا نجد أنفسنا في الغالب وحيدين في الأماكن نفسها، وحتى عندما كنا نسير في مجموعات، كان يبدو لي أنني أشعر بوجودها بقربي.

قالت: "انظر، أليس هذا الصمت غريبًا؟"

لم أدرك ماذا تقصد، فقد كنا وسط غابة تزقزق فيها الطيور وجدول قريب يترقرق بعذوبة.

قالت: "أعني أنه لا توجد أصوات أطفال. أطفالنا هم الوحيدون هنا".

في اللحظة التي قالت فيها ذلك، فهمت ما انتابني في هذا المكان عند وصولنا. ففي جميع رحلاتنا، كان من الطبيعي أن نسمع حين نصل أي قرية أصوات ساكنيها: ضحكات النساء وهنّ يطحنّ الذرة، وصياح الديكة ونقنقة الدجاج، وأصوات الأطفال العالية.

ومع ذلك فقد كانت هذه المرة الأولى منذ أن وطأت قدمي تربة إفريقيا، أجد نفسي في مكان ليس فيه أصوات أطفال، ولا ضحكاتهم، ولا لعبهم، ولا بكاؤهم. لا أعير في العادة انتباهًا للأطفال حين يكونون موجودين، وقد قلت سابقًا إن النساء والأطفال كفيلون بتأخير البعثات، بيد أن أصوات هذرهم العالية هي جزء طبيعي من الحياة اليومية.

رأيت بينما أسير في القرية آلات موسيقية، وبُسُط، وهواون لدق اللحم، كانت ملقية دون استخدام لتصير وليمة للنمل الأبيض. وعندما علقت على هذه الأشياء أمام عجوز كسيح كان ينظر ببرود نحو السماوات، لم أتلقَّ سوى جواب مقتضب: "لقد تُركت منذ زمن طويل. لا أحد يستخدمها الآن".

لم أرَ في حياتي أناسًا أشد بؤسًا من هؤلاء. فهم لا يكلفون أنفسهم عناء فعل ما يزيد على ضرورات البقاء. يأكلون، وينامون، ويعملون لسد رمقهم، فهم مقتنعون بأنه لا فائدة من بذل أي جهد لأن المازيتو سيأتون ويدمروا كل شيء من جديد. حتى وجود جثة الطبيب لم توقظ فيهم شيئًا. كنا نتوقع أن يشعروا ببعض الذعر لأننا نحمل شيئًا كهذا، وعزمنا على أن نخفي الأمر عنهم، لكن كل ما فعلوه هو أنهم أشاروا إلينا إلى حيث علينا أن نخزن حزمنا، مع الجثة.

الحق أن أعوز الأمكنة إلى الله هنا. ففي هذه البقعة البائسة كنا ندرك

خطر أننا قد نصادف تجار العبيد في رحلتنا. ورغم أننا حرصنا على ألا نأخذ الطريق المؤدي مباشرة إلى الساحل، حيث يمكن أن يرونا نتجه نحو ميناء تجار العبيد في كيلوا، إلا أنه يبدو أننا حتى في هذه الأرض الداخلية، قد نصادف فرق العبيد التابعة لأكثر التجار رعبًا، وهم كاسيمبي، وميرامبو، وكومباكومبا، وتيبو تيب.

كان هؤلاء الأربعة يتقاتلون على السيطرة على أراض في الداخل. ويظهر من الأخبار التي وصلت إلى مسامعنا أن كاسيمبي قد هزم في حرب طاحنة مع ميرامبو وكومباكومبا. بيد أنه يظهر كذلك أن كاسيمبي ليس اسمًا، بل لقبًا، كلقب الملك أو السلطان. لذا قد يكون هذا الكاسيمبي قد هزم، غير أن من المرجح أن يكون هناك كاسيمبي آخر يأتي مكانه.

بالإضافة إلى هؤلاء التجار الفظيعين، كنا مرغمين على أن نأخذ في الحسبان أننا قد نواجه أيضًا جماعة عنيفة من المحاربين من الجنوب يعرفون باسم المازيتو، وهم قبيلة المحاربين نفسها التي حذرنا منها شيتامبو. وكما أوضح شوما لنا، ففي أحيان كثير عندما كان يسافر مع الطبيب ليفينغستون، كانوا يمرون عبر قرى أخليت ونهبت على يد هؤلاء المازيتو.

ومع هذا الحال، فقد كان المازيتو يعرفون في هذه البلاد بأسماء مختلفة. ففي بعض البلاد، كانوا يسمون المافيتي، وفي أخرى المادزفيتي، وفي أخرى أيضًا الماتوتا أو الواتوتا، وكل اسم من هذه الأسماء يثير الخوف والرعب في آذان من يسمعها. لقد حصلوا على القوة والسلطان من خلال احتلال الأراضي المجاورة، بحيث أنه حتى الهمس بأن المازيتو قادمون كفيل بأن يجعل الناس يفرون نحو الداخل إلى حين يصلهم أن الخطر قد زال.

هذا ما حصل في هذه القرية التي هجرها زعيمها. فإلى جانب الخدم والمستشارين، وكل من كان لائقًا بدنيًا، فقد هجر الزعيم القرية حالما سمع

إشاعة بأن المازيتو قادمون. أخشى ما أخشاه أن يفعل شيتامبو الأمر نفسه ويهجر القرية وقبر قلب الطبيب لو أن المازيتو وصلوا إلى هناك.

أما فيما يتعلق بالطعام فقد أوشكت مؤونتنا على النفاد، وهؤلاء القوم هنا لا يملكون سوى القليل ليقدموه. إلا أنهم قدموا ما قدموه بسخاء. وجهد آمودا لإقناعهم بأننا لا نستطيع أن نأخذهم معنا، إذ كانوا يودون الانضمام إلينا لو كان ذلك في مقدورهم.

لن أنسى يومًا وجوهم البائسة حين غادرنا. إذ ليس من اليقين أنهم سيقابلون فرقة مسافرة أخرى عما قريب. وجل ما استطعت فعله لهم هو أنني باركت رأس كل منهم، وصليت للرب أن يحفظهم، ويحفظنا أيضًا، عندما غادرنا هذا المكان، أرض البؤس والأسى هذه. كانت صلواتي الأخيرة للرب هي أن يهدي قلوب العبيد، وكل إنسان يعرف الضعف في قبضة الضيم والخوف.

11

22 تموز/يوليو 1873

المدخل الحادي عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في شاونده، وفيها تقهر البعثة قرية، وتسبب خسارة مؤسفة في الأرواح، ويتأمل واينرايت سخاء العناية الإلهية.

يسرني القول إنه بعد الظروف البائسة التي عرفناها في القرية الأخيرة، فقد وجدنا هنا في قرية شاونده المحصّنة مأوى مريحًا. وإن لم تكن قصر الجمال، فقد وهبتنا شاونده أعظم رخاء عرفناه منذ أن غادرنا شيتامبو.

إنها بالإجمال مكان جذاب. داخل جدران عالية مصنوعة من مزيج بديع من القش والطين والأعمدة الخشبية، ثمة عدد من الأكواخ حسنة البناء، منها المربع والمستدير، كتلك التي رأيناها في أماكن أخرى. والدخول إليها ممكن من جهة وحيدة عبر بوابات خشبية ضخمة حصّناها بحبل مصنوع من اللحاء المتين.

لكن كيف احتللنا هذه القرية، فتلك حكاية مفجعة. وقد يكون من المستحسن في الواقع عند نشر هذه المذكرات أن أحذف هذا القسم برمته في ما يتعلق برواية المصاعب التي واجهناها، فهي وصمة عار. على أن

سلوكي هذا لا يُلام، فمن الأفضل أن تكون هذه الوثيقة على قدر عالٍ من الأمانة، بحيث يكون معلومًا أي درك بلغت إليه الفرقة.

بعد عبور نهر لوابولا، مشينا مسافة طويلة. قطعنا في البداية قرية رجل يدعى كاوينغا، كان يبدو أن سمعته تقوم على طول قامته وإشاعة حيازته لمسدس، وهذه حالة نادرة في الداخل. كان طوله مميزًا بالفعل، فقد وجدنا أنه رجل فارع الطول على نحو صادم، وذو بشرة فاتحة على نحو متفرد، لكن المسدس ذاك، الذي يضعه على مقعده، كان مجرد تعوذية أكثر منه سلاحًا حقيقيًا، إذ لم يكن سوى قطعة صدئة من المعدن. وإن كان فيه أي طلقات، فقرية كاوينغا لم تسمع بها يومًا. على أن كلمة "مسدس" السحرية، قد وطدت سيطرته على أرضه.

لم نتوقف عنده طويلًا، فقد خشينا أنه لدى رؤيته كيف يبدو المسدس الحقيقي - والأهم من ذلك ما باستطاعته أن يفعل - فقد يعد من الضروري أن يحصل على أكثر من واحد، وهكذا يدعي أحقية مسدسات العسكر. ولذا لم نطلب منه سوى أن يدلّنا على الطريق المؤدي إلى القرية التالية، قرية كوسو، حيث سمعنا أن فيها قطعانًا عديدة من الماشية.

وجدنا خلال مسيرنا أن جوعنا كان يشتد كلما تحدثنا عن الطعام، بيد أننا لم نكبح جماح أفكارنا آنذاك، وغرقنا في تخيل الوليمة التي تنتظرنا في كوسو. وهكذا مشينا بخطى متحمسة.

واحسرتاه! ما قيل عن الماشية في كوسو كان مبالغًا فيه بقدر الشائعات حول مسدس كاوينغا، فقد كانت هذه الحيوانات برية وغير مروضة على الإطلاق، ويبدو أنها تطوف حيثما تشاء. لقّم أفضل صيادي البعثة الثلاثة - وادي سافينه، وومونياسيره، ي - مسدساتهم واستعدوا لإطلاق النار على هذه الكائنات. فلفت عملهم هذا انتباه الجميع، وسرعان ما تجمع حشد من

قوم كوسو ليشاهدوا ما يجري.

وما أثار حماس الحشد أن مونياسيره أسقط أحد الحيوانات. ولئلا يتفوق عليه، أطلق وادي سافينه النار مجددًا. وحينئذ وقعت الحادثة. فقد حدث أن وادي سافينه قد أصاب، وهو يطلق النار بعنف، أحد سكان القرية. فصرخ الرجل صرخة ألم حادة إذ تفرق الناس من حوله مذعورين. لقد أصابته الرصاصة في فخذه الأيمن، وسرعان ما ألقى كاروس فرار مسدسه وهرع لإسعافه.

الفضل لرحمة الله أن الرجل لم يصب بأذى بالغ. قال كاروس فرار إن الرصاصة اخترقت لحمه ولن تتسبب في أذى دائم. وبعد علاج الرجل باستخدام بعض مراهم الطبيب، استطاع خلال وقت قصير أن يمشي مظهرًا جرحه بكثير من الفخر والبهجة.

وإذ رأى أنه لم يحدث أذى فعلي، قال الزعيم إننا يجب أن ندفع غرامة من ثلاث سلاسل من الخرز الأزرق لأبي الرجل، وطلب كذلك منا أن نترك البهيمة التي ذبحناها كغرامة أيضًا.

من كوسو سرنا عدة أيام بحثًا عن مكان نخيم فيه. كانت مؤونتنا شحيحة، وتحسرنا بمرارة على البقرة التي غرّمنا بها. ولم نكن نسير في أرض قاحلة فحسب، بل كنا فوق ذلك في أقسى فصول الصيف.

خلال الشهرين اللذين كنا نسير فيهما، أصبحت السماء زرقاء صافية، وكانت الجداول التي مررنا بها جافة، والأشجار لا تحمل ثمارًا. وهكذا شهد مسيرنا من كوسو مؤونة تتناقص باستمرار، ولم نزدد بالتوت البري الذي كنا نصادفه في طريقنا إلا شحا.

كان الشجار بيننا قد بات أمرًا اعتياديًا خلال المسير. فكانت خلافات صغيرة تهدد باندلاع حرب مفتوحة. كاد آمودا وسوسي يتضاربان حول أمر

تافه لولا تدخل شوما. واثنان من الباغازي تضاربا لأن أحدهما نظر إلى الآخر شزرًا.

كان الناسيكيون أشد نزقًا من الأطفال، وكان ثمة كدر بين بينيامين روتن وجون واينرايت، إذ إن الأخير ادعى أن بينيامين كان يحمل صندوقًا بحيث يلقي بالوزن الأكبر على كاهله. والنساء لم يكنّ أحسن حالًا، فكلما كان الأطفال يتشاجرون، كان يصل الشجار إلى أمهاتهم، وخديجة ولايدي تتشاجران من أجل أطفالهن في أكثر من مناسبة.

كلي يقين من أن الخلاف في الفرقة سببه أننا كنا نتضور جوعًا. كان الباغازي الذين ليس لهم نساء وأطفال يتشاجرون حول الحمولات مع الأعضاء الأشد ضعفًا في البعثة. كانت جماعة صغيرة من الباغازي الذين يمضغون القات يهددون بالتمرد لأنهم استهلكوا معظم الأوراق ولن يمضوا في المسير. وبذل آمودا أقصى ما في وسعه لتبقى الفرقة في سلام.

في الليلة التي سبقت وصولنا إلى شاونده، استعدنا ذكرى بعيدة لبعض الأسماك التي اصطادها سوسي، وفاكهة صفراء ذات أشواك حادة أصرت حليمة على أنها نوع من الخيار المشوك. وقالت: "يصير طعمها سائغًا إذا أُكلت مع لحم الغنم المطبوخ بالليمون الحامض وبهار الهال". وكانت تلك عبارة لا تفيدنا في شيء في ذلك اليوم على وجه الخصوص. في الواقع، لو أننا أكلنا مما تصف حليمة من الطعام الذي كانت تطبخه عندما كانت في مطبخ الوالي، لما عرفنا الجوع قطّ.

جمعنا من الفاكهة بقدر ما استطعنا. كان من الممكن أن تساعدنا في المضي، بيد أننا وجدنا حين حان موعد تناولها أن الحرارة العالية قد أفسدتها.

قالت تاويكا: "متأكدة أنها لن تصدر رائحة لو أننا وضعنا عليها الليمون الحامض. سيصبح مذاقها شهيًا مع الليمون".

أضافت لايدي: اه، لو أن لدينا ليمونًا. عند الوالي الكثير من الليمون".

"الليمون الذي يجعل حتى من هذه الفاكهة الفاسدة أشهى وليمة".

عند ذلك اندفعت حليمة باتجاه المرأتين، وكان على سوسي وآمودا فكّهنّ عن بعضهن. كان شيرانغو آنذاك يحكي لي عن الطعام الذي يخطط لشرائه من أجل الفرقة عندما يحصل على مكافأته في زنجبار.

بينما كانت حليمة تحلم بولائم الماضي وشيرانغو بولائم المستقبل، لم يسعني سوى أن أتمنى أن أملك في داخلي قدرة الرب يسوع المسيح لتحويل السمك والخبز إلى وجبة تطعم الفرقة، كما أطعم مرة خمسة آلاف رجل من رغيفين وخمس سمكات. لكنني سرعان ما أخرجت هذه الأفكار الجاحدة من رأسي.

بدلًا من ذلك، رددت صلاة الموقر بين للرب في السماوات أن يرحمنا ويهبنا طقسًا ملائمًا لنمو الفاكهة. وصليت أيضًا للرب الذي من عنده يأتي قوتنا أن يريحنا من الجوع. جاء الجواب على صلاتي على نحو غير متوقع. صحيح أن غايات الله تنضج بسرعة وتتكشف كل ساعة، لكن الاستجابة لصلاتي أتت مقابل ثمن باهظ.

لحسن حظنا التقينا بفرقة صيادين أخبرتنا عن قرية تقع مباشرة شمال طريقنا. وهناك أصررنا على إعطائنا الإذن بالدخول لكننا خبنا حين رفضوا دخولنا. لا ريب أن خبر حملنا الجثة قد وصل إلى هذا المكان، إذ يبدو أنه انتشر بسرعة فائقة في جميع الاتجاهات: كل كوخ وكل بيت اقتربنا منه كان يُغلق في وجهنا.

وإذ كنا نستميت لأجل المأوى والمأكل، واصلنا المسير. وعندما وصلنا إلى بلدة شاونده، كنا قد استهلكنا المؤن جميعها، حتى الفاكهة العفنة التي كان يأكلها ذوي البطون الصلبة. وكنا قد مشينا أطول مسافة منذ أن غادرنا شيتامبو.

قادنا الجوع للمضي في المسير حتى وصلنا إلى شاونده. كان مبهجًا للنظر أن نرى أن شاونده كانت أكثر من قرية، فقد ظهر أنها بلدة مسوّرة ومبنية ببراعة، تحميها بوابات خشبية ضخمة. ذهب مونياسيره وشوبيره لإبلاغ الزعيم بوجودنا وطلب الإذن بدخول البلدة. انتظرناهما وانتظرناهما. انتظرنا لساعة ولم يعودا، ثم لساعتين، ولم يعودا.

بعدما مضت ساعة ثالثة، نفد صبرنا لمعرفة الأخبار. كان الأطفال ينوحون من الجوع، وكانت النساء نكدات لفشلهن في تهدئتهم. وجون واينرايت، الذي كان في البداية يتنهد ويبكي بصمت، ألقى حمولته، وقال بعصبية هيستيرية إنه لا يريد المضي.

ثم ماريكو شاندا وتوفيق علي، الرجلان اللذان كان دورهما في حمل جثمان الطبيب، ألقيا حمولتهما على الأرض وقالا إنهما لن يتحركا خطوة أخرى مع هذه الجثة المنسوفة. رجل آخر قال الشيء نفسه، ثم آخر، وآخر، وآخر، حتى أصبح جميع الباغازي الذين يسيرون بين الجثة والسفير يهددون بالتمرد. كان جليًا لي أنهم كانوا غاضبين لفترة، لكن آمودا اختار أن يلقي باللائمة على كاهل جون واينرايت. وبينما كان ما يزال يعترض بغضب، مشى آمودا نحوه وضربه بقوة في بطنه، فخرّ جون مطلقًا صرخة ألم.

وفي الصمت الذي أعقب ذلك، قال آمودا: "إذا لم تتمالك نفسك الآن، سأجلدك حتى ينسلخ جلدك. أنا جائع مثلك، ومتعب مثلك، لكنني رغم ضعفي هذا، لدي من القوة ما لجميع الرجال هنا وسأجلدك من هنا حتى باغامويو.

أترى شيرانغو هناك؟"

أشار إلى شيرانغو الذي كان يشاهد ما يجري بعجز كالجميع.

"ما حصل له لن يقارن بما سيحدث لك إذا لم تغلق فمك".

كان آمودا يخاطب جميع الباغازي، لكن عينيه كانتا على جون واينرايت.
"لا يثنيني عن فعل ذلك الآن سوى الوقت الذي ستحتاجه لتتعافى. لذلك، ستنتظر الجلد حتى نصل إلى باغامويو".

انهار جون جالسًا على حمولته. كان صامتًا آنذاك، يبكي بصمت، لكن بما يكفي لذرف الدموع والمخاط الذي مسحه عن أنفه بيده. كان مظهره لا يسر، وكنت على وشك أن أذهب إليه لأقول له أن يتمالك نفسه، وأنه كان ناسيكيًا ومسيحيًا وأنه بذلك يخذل المدرسة بهذا التصرف المشين، عندما قال آمودا إنه سيذهب بنفسه ليرى ماذا يحصل.

انطلق هو وشوما خلف مونياسيره وشوبيره. ومجددًا انتظرنا. ولم يبدُ أن هذه المجازفة الثانية قد نجحت، فحملنا أعباءنا على أكتافنا ومضينا سويًا إثر رسلنا الأربعة.

كنا على وشك الوصول إلى بوابات البلدة المسورة عندما رأينا الأربعة في الاتجاه المقابل لنا. كانوا يسيرون مع خمسة رجال لم تبدُ وجوههم ودودة. لقد سعوا لدخول البلدة لكنهم وجدوها مكانًا واسعًا وشديد الحراسة. كان ثمة قريتان بالحجم ذاته على مقربة منها. كان الناس هناك منغمسين في شرب البومبي، ورفضوا سماع طلب رسولينا الأولين.

عندما وصل الرسولان الثانيان، اتجه آمودا مباشرة نحو الزعيم. ويبدو أن آمودا اقترب من الزعيم والمسدس في يده، ورجل، أغلب الظن أنه ابن شاونده، أصبح ثملًا ومشاكسًا، واعتبر ذلك سببًا للاعتداء. فسأل آمودا وهو يتبختر نحوه بكل غطرسة كيف يجرؤ على تهديد الزعيم بمسدس.

أمر الرجل بطرد رجالنا من المجمع وأرسل خمسة من رجاله ليتأكدوا من أنهم غادروا. عندما وصل الأربعة إلينا، تظاهرنا بأننا نتجه عكس اتجاه البلدة إلى أن عاد الخمسة من حيث أتوا.

آنذاك، كانت الفرقة بأكملها تعاني من ألم الأقدام وألم القلب، ثارت النساء، وبكى الأطفال، كنا على وشك أن نختبر جوعًا لم نعرفه منذ أن غادرنا شيتامبو.

لعله كان من الممكن تفادي الأحداث التالية لولا الجوع. لكنه لم يكن هناك ما يؤكل، ولا مكان أو مواد لبناء مأوى. وقادة البعثة اعترفوا لاحقًا أن خوفًا آخر ينتابهم، وهو أننا لو خيمنا في مكان قريب من البلدة في الليل، فمن المرجح أن ينهب أمتعتنا هؤلاء القوم السكارى الذين لديهم في الأساس سبب للاعتداء علينا.

قررنا فيما بيننا أن نعود للبلدة ونتوسل لهم. فرُفض رجاؤنا على نحو قاطع، وأخبرنا من في الداخل أن ننزل نحو النهر ونخيم على الضفة. فأجبناهم أن ذلك مستحيل، فقد كان الوقت متأخرًا، ولا يمكن إيجاد شيء هناك يأوينا، فلم يقابلونا سوى بالضحك الساخر.

يقال إن الإنسان الجائع إنسان غاضب، وقد رأيت ذلك بأم عيني ذلك اليوم. اندفع الرجال وأخذوا القوم على حين غرة. استطاع سافينه الدخول، وتسلق مونياسيره على السور، وتبعه شوما. فتحوا البوابة على مصراعيها ودخلت بقية الفرقة عبرها.

حاولت أن أدعوهم للسلام، وكذلك آمودا، لكن أصواتنا غرقت وسط فوضى عارمة. أولئك الذين كانوا في نهاية الرتل دفعوا بقوة بحيث اندفعت الفرقة داخل السور. عندئذ سحب رجل في الداخل قوسًا وأطلق سهمًا باتجاه مونياسير الذي استطاع أن يتفادى السهم، فسقط على الأرض دون أن يؤذي أحدًا. وفي محاولة من آمودا لاستعادة بعض النظام أطلق الرصاص في الهواء. فجعل صوت السلاح المخيف سكان البلدة في حالة هلع شديد وركضوا باتجاه البوابة. ثارت الفوضى بينما كانت بقية فرقتنا

تقاتل للدخول وسكان البلدة يندفعون للخروج. ثم أطلق مونياسير النار مجددًا، وكذلك وادي سافينه، ومزيد من السهام أطلق في الهواء.

جمع سوسي حلمية وخديجة والأطفال وقادهم إلى مأمن في كوخ قريب قبل أن يركض إلى شوبيره ليأخذ بندقيته. ثم تبع آمودا برفقة شوما وأمر ماركيو وعلي أن يضعا جثة الطبيب إلى جانب أمتعتنا ومنقولاتنا الأخرى في كوخ فارغ. ولم يتحقق مبروكي - في خضم ذلك كله - ولو لمرة ما إذا كانت تاويكا في أمان.

قلت لها: "تعالي معي". وأمسكت بيدها. فشعرت بنعومتها في يدي، وشعرت حين أمسكتها أن قلبي يدق بسرعة ودمي يجري في جسدي. ثم سحبت لايدي يدي الأخرى، ومع المرأتين تصرخان في أذنيّ، وجون واينرايت يجري على أعقابي، رعيتهم إلى الأمان.

لست جبانًا، وبمقدوري، لسبب جاد، أن أقاتل كأي رجل. شعرت ببعض العار لدى رؤيتي أنني أنا وجون كنا الرجلين الوحيدين اللذين يقفان بين النسوة بعيدًا من المعمعة أمامنا، لكنني طمأنت نفسي، على عكس جون واينرايت، بأنه لم يكن جبنًا مني أن أقف هناك. لا. ظللت بعيدًا لأن واجبي الحقيقي كان حماية النساء والأطفال، والصلاة من أجل أن يخرج رجالنا من ذلك القتال بأمان. ورغم أن الرجال عيروني لعدم انضمامي، بيد أنني متيقن من أن صلواتي من أجل رحمة الرب، وتعهدي النساء، هو ما جعل لنا الغلبة.

من الصومعة التي التجأنا إليها، شهدت كيف تحول المشهد إلى فوضى عارمة من الرجال الذي يعاركون بقبضاتهم، وبالرماح، وبأي شي استطاعوا إيجاده. تمكن شيرانغو من توجيه ضربة إلى أقرب رجل إليه. سقط رمح كاد أن يصيب ماثيو ويلينغتون في الظهر. وبأمر من مونياسير، أطلق العسكر

رصاصهم. وعند دوي صوتها، هلع رجال شاونده متراجعين. قرعت طبولهم في كل اتجاه، لكنهم لم يكونوا يتراجعون نهائيًا، بل ظهر أن الطبول كانت إشارة لحشد التعزيزات. وسرعان ما تجمّع عدد مهول من الرجال باتجاه المدينة بأقواسهم وسهامهم ورماحهم. كانت جثة الطبيب ملقاة على الأرض إلى جانب حزمنا الأخرى، مهملة تحت وطأة القتال. كان الوضع يكاد يصير ميؤوسًا منه.

عند إشارة من مونياسيره، خرج العسكر من البوابات وأطلقوا النار مخلفين حصيلة كارثية. وعندما بدأت الجثث تتساقط على الأرض، هرب القرويون، تاركين خلفهم رماحهم ودروعهم. وبعد التخلص من آخر رجل، أحكم العسكر غلق البوابات وأطلقوا صيحة النصر.

يؤسفني القول إنه كانت هناك متعة عظيمة في صياح الرجال ونهب القرية من كل طعام استطاعوا إيجاده. كان واضحًا أن القوم يأكلون وليمة، ما يعني أنه كانت هناك كميات كبيرة من اللحم والبومبي الذي لم يتردد رجالنا في شربه. الهواء الذي كان تتردد فيه ضجة المعركة صارت تتردد فيه الآن هتافات الاحتفال، وتهليلات النساء، ونقيق الدجاج وهو يحاول الهروب من الأوعية.

بفضل رحمة الله، نجونا بحياتنا، ما عدا اثنين من العسكر هما شيزه وتارو، فقد أصيب شيزه بسهم في عنقه ومات على الفور، أما تارو فأصيب في أحشائه ونازع حتى مات.

قلة آخرون ممن أصيبوا بأذى هنا وهناك ضمد لهم جراحهم كاروس فرار وفرج الله كريستي. أجد نفسي ممتنًا مرة أخرى لخزانة الأدوية الخاصة بالطبيب. وحاولت، لكن دون جدوى، أن أحث الرجال على التعامل على نحو أكثر صرامة مع ما حصل، إذ رغم موت شيزه وتارو، ملأ النصر رؤوسهم

وكانوا يهتفون ويصيحون شاعرين بقوتهم.

بيد أنه مع ذلك شدد آمودا على أن يبقى حارس منا مستيقظًا، ففي تلك الليلة اقتربت فرقة من خارج السور ورموا كرات من النار إلى داخل المجمّع. لم تسقط أي منها على قش الأكواخ، وعلى الفور أخمدت النيران الصغيرة التي اشتعلت. وسرعان ما أخافت طلقة من المسدس من كانوا في الخارج.

وهكذا أمضينا هنا عشرة أيام حتى الآن عرفنا فيها السلام والراحة. وفي اليوم الثامن بعد استيلائنا على البلدة، جاء رجل ونادى بأعلى صوته أنه جاء وحيدًا. زحف على بطنه أمام آمودا وطلب السلام.

"لقد أخذنا قتلانا ودفناهم. ونطلب الرحمة الآن. كان كل ذلك خطأ ابن الزعيم، هو الذي جلب علينا كل هذا".

سمع أننا معالجون مذهلون، إذ لا نحمل قوة السلاح فحسب، بل أيضًا دواءً فعالًا في هيئة جثة رجل أبيض. قال آمودا: "هذا صحيح، سنريك الجثة التي نحملها".

كان الرجل مشدوهًا من الرعب وقال إنهم سيتركوننا في سلام، بيد أننا كنا مسرورين لمغادرة البلدة بأكملها. فهم الآن سيبحثون بعيدًا في كل مكان عن رجال الطب ليؤدوا طقوس التطهير بعد مغادرتنا. وفي حال لم يظهر رجل يتمتع بالقوة الكافية فسيكون عليهم أن يهجروا البلدة برمتها.

كانت خدعة آمودا خدعة حكيمة، وإن كان يؤلمني الاعتراف بذلك. فبقبول السحر وموازاته مع القوة العظيمة، جلب لنا ذلك الهدنة وبعض الراحة. عندما كنت أحاول النوم تلك الليلة، انتابني إحساس بأن مشروعنا، من كل ناحية، ميؤوس منه، ومتهور جدًا، وأنه استجمع لنفسه الإصرار. لم يكن بوسعي سوى أن أرجو أن ذلك كان آخر استفزاز نواجهه.

12

27 تموز/يوليو 1873

المدخل الثاني عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، وفيها تبقى البعثة في شاونده، وفي قصر الجمال ذاك، تأخذ واينرايت الغبطة في ذلك الروض.

كنا في شاونده لأسبوعين كاملين. فبما أننا كنا متأكدين أننا سنستمتع بإقامة هانئة في البلدة فقد قررنا أن نبقى ريثما يتعافى الجرحى بيننا. وجثة الطبيب تقبع في صومعة فارغة. وفي الحقيقة، لولا وجوده الكئيب أمامنا أثناء المسير، كنت لأنسى في بعض الأحيان أنه بيننا.

كانت فترة من السلام والطمأنينة، سلام لم يعرفه أي منا منذ أن بدأنا الترحال مع الطبيب. ثمة جدول جارٍ على مقربة منا، وفي استطاعتنا أن نغتسل فيه ونغسل ثيابنا. هناك الكثير من الطعام والحبوب، والنساء يطبخن، والدجاج يرفرف هاربًا من الأوعية. ويسرني على نحو خاص أن أبلغ أن مجموعة صغيرة من المؤمنين تزدهر في هذه البرية.

وحتى من دون أن أرسم كاهنا، أجد نفسي أبلي بلاء أفضل من الطبيب، الذي اعتقد أنها نكتة رائعة أنه لم يهدِ سوى روح واحدة إلى الله. قال لي: "كان زعيمًا في أرض بيشوانا، يا جاكوب، رجل يدعى سيشيله. ووعد

بأنه سيولي وجهه للمسيح. قلت له أن يتخلى عن زوجاته جميعهن ما عدا واحدة. وسيشيله ذاك فعل ذلك، إذ أرسلهن فعلًا، لكنني لا أستطيع القول إنه نجح في ذلك، فعندما زرته ثانية بعد بضع سنوات، كانت زوجاته جميعهن هناك، إلى جانبهن زوجة أخرى، وعلى وجههن أمارات الفزع مما يتوقعن أن يحصل".

عجبت للفرصة التي ضاعت أسفًا. لو أن بذرة الخروف قد تجذرت في قلبه، أي حصاد سيكون آنذاك! تحدث الطبيب أيضًا عن لقائه بزعيم عظيم يدعى سيبيتوانه الذي كان سلطان قوم يدعون ماكولولو. كان يعده صديقًا حميمًا ويتكلم عن الأحاديث التي كانت تجري بينهما عندما عالج ابنه من الملاريا.

مجددًا، خسارة لفرصة الفوز بروح لله!

في رأسي رأيت النور يشع من قلب أرض بيشوانا، النور يتوهج من أرض ماكولولو، إلى القارة بأكملها، عندما يغتسل وثني تلو الوثني بدم الخروف، ويزول الإثم والظلام، وفوق كل ذلك، العبودية، الوصمة المظلمة التي أشقت حياة الكثيرين. أعجب أن الطبيب لم يرَ كم كانت مكلفة عودة سيشيله إلى عاداته الوثنية، وأي خطأ جسيم كان ترك الزعيم الوثني سيبيتوان يعيش حياته دون أن يحاول أن يقول له: "انظر، أيها الزعيم الوثني، أنت في خطر مؤسف، ذلك أن الحِمل الذي تحمله على كاهلك سوف يغرقك بالتأكيد في توفه[9]، حيث تنتظر نار حارقة لتلتهمك".

أصلي كل ليلة لأن تؤثر الروح القدس في هؤلاء الزعماء الوثنيين، علهم يعودون إلى قطيع الخراف. وصليت لأجل جميع الوثنيين، وعلى وجه الخصوص أبي وأمي وأختي، حيثما كانوا، وأن أصبح يومًا ما في منزلة تسمح

9 مكان في القدس ورد ذكره في العهد القديم، وكان مرادفًا للجحيم في معتقدات العالم المسيحي وأشعاره. (المترجمة).

لي بأن أكون ذا تأثير كبير، كأن أكون مستشارًا لزعيم أو سلطان، أو ملك محبوب من شعبه، بحيث أستطيع من خلال هذه المكانة أن أهدي قومه جميعًا إلى حب الله الفادي.

إني متيقن من أنه ما دام المسيح نصيري، فسأنجح حيث فشل الطبيب، وسأفوز لله بحياة الكثيرين، كما أفعل الآن. فبالإضافة إلى شيرانغو، لديَّ هنا في شاونده أحد عشر تابعًا آخر يهتمون بالعقيدة الجديدة. كان شيرانغو - الذي له مكانة خاصة في قلبي لأنه أول من تحول إلى المسيحية على يدي - مساعدا ملتزمًا. عمدتهم في النهر جميعهم في يوم واحد، على طريقة الأب يوحنا القديمة. صحيح أنني لا أملك القدرة على تأدية الطقوس، لكنني متيقن من أنني عندما أصبح في إنكلترا، فسيتغاضون عن ذلك وسيفرحون للخراف الضالة الذين أعدتهم للراعي.

كررت صلواتي أننا قبل أن ينتهي وقتنا معًا، أن أكون قد هديت الكثيرين في الفرقة، وخصوصًا، أن أفوز لله بروح المحمدي عبد الله سوسي.

وجدت أن أولئك الذين لا يمتلكون أي عقيدة أكثر قابلية للتحول للميسيحية، بينما كان تليين أكثر المحمديين عنادًا أصعب. كانت المعركة التي تحملناها والخوف الذي ينتظرنا في الخارج تفضي إلى تحويل عقولهم إلى المسيح.

في البداية ارتكبت خطأ التوكيد أكثر من اللازم على رحمة الله ونعمته. وهذا للأسف ما أوحى للمصلين بفكرة أنه من الممكن لهم أن يرتكبوا الآثام، ثم يعترفون بشر آثامهم، ويصلون لغفران إثمهم، ثم يأثمون ثانية، ويعترفون بالإثم، ويصلون لغفران إثمهم في دائرة لا نهائية من الإثم، والاعتراف، والتوبة، والغفران، ثم الإثم. إنها فكرة كاثوليكية، ومما لا أفضل التشجيع عليه.

ووجدت أنهم عندما يكونون في رعب تكون عقولهم أكثر تقبلًا. ولهذا لا أشدد في خدماتنا على التعاليم المتعلقة بالمغفرة، وأركز بالمقابل على تلك التي يظهر فيها الله القدير غضبه، لا لطفه ومحبته. سيحبون الرب يهوه مثلي، لكنهم لا بد أولاً أن يجنوا الخلاص بالخوف والوجل.

أقول لهم: "اخشوا الله، واتبعوا وصاياه، فتلك فريضة الإنسان. اجعلوا الأرض وسعها تخاف الله، اجعلوا سكان الأرض جميعًا يقفون في خشية".

وأخبرهم بحروب الله. وأهدر أمامهم بالحرب التي ضربها الرب على العمونيين والحيثيين، والنار والكبريت على سدوم وعمورة، وكيف تحولت زوجة لوط إلى عمود من الملح.

أخبرهم كيف ضرب أهل بيت شيمش، وضرب خمسين ألف وسبعين رجلًا، والناس رثوا لهم، لأن الرب أنزل عليهم الذبح. فكما هو مكتوب في مزامير الملك سليمان، فإن الرب يشعل الحروب في الأرض، يكسر القوس ويقطع الرمح، ويحرق العربات في النار.

عندما أعظ هكذا، تصيبهم حمى من النشوة الروحية، ويهزون أجسادهم، وأصواتهم ترتجف. هكذا هي قوة كلماتي عندما تعينني الروح القدس. أكون كما لو أنني أنطق كلمات البرق بإقناع الرعد.

أما خارج جماعتي الصغيرة فالأمور ليست على ما يرام. كنت أتوقع أن النساء سيخلقن الكثير من الصعوبات، وقد ثبت أنني على حق. حليمة وتاويكا على وجه الخصوص كانتا تتشاجران على الدوام، فبموت المسكينة ميسوزي بينهما، كانتا تتشاجران حول مظالم قديمة. كما أن الخلاف المتكرر بينهما هو أن حليمة تعتقد أن تاويكا كثيرًا ما تكون غير لطيفة مع طفلتها لوسي. كما لو أن مخلوقًا بلطف تاويكا يمكن أن يظلم أحدا!

كان شيرانغو شديد الاضطراب لوضعه المتشابك معي. وقال لي، بصوت

محترم: "أيها المعلم، يجب أن تفعل ما تستطيع".

هذا ما أصبح يدعوني به الآن، المعلم، ولا يسعني القول إلا أنها كانت كلمة تسر السمع. وتابع: "أظن أن الأفضل بالنسبة لها هو أن تأتي إليك، وأن تمضي وقتها في الصلاة معنا ومعرفة الرب".

اعتقدت أنه كان يقصد حليمة، لأنها بالطبع كانت سبب الشجار، لكن ليست هي من كان يتكلم عنها. قال: "إنها تاويكا من يجب أن تتحدث إليها. قد يكون لك ما ليس لزوجها من تأثير فيها".

نظرت إليه نظرة حادة.

غمز بعينه، ولعق شفتيه، وقال: "بوسعك أن تجد طريقة للتحدث إليها، يا معلم، أن تواسيها، إذ إنها مضطربة بشدة من كلمات حليمة التي وجهتها لها. أستطيع - إذا كنت ترغب - أن أطلب منها الانضمام إلينا الليلة".

صدق شيرانغو، إذ جاءت تاويكا لصلاتنا التالية. سُر قلبي لرؤيتها تصغي بانتباه، وبدا أنه قد سقط بين قدمي عندما فتحت عينًا لأرى أن عينيها كانتا مفتوحتين على وسعهما، وكانتا مسلطتان عليَّ. فكرت مجددا في كل الأسماء التي يمكن أن تتخذها لو تحولت إلى المسيحية، ربما إليزابيث، أم المعمدان، أو افنيكي، أم تيموثاوس.

كنا سنلتقي مجددًا لصلوات الصباح.

كنا آنذاك في أمان كامل لامتلاكنا البلدة بحيث كان في مقدورنا التجول داخلها وخارج البوابات دون خوف. كان الجدول القريب تتحلق حوله أشجار عديدة تظلل مكانًا عذبًا، وهناك كنت ألتقي مع المصلين، بعيدًا عن سخرية الآخرين.

إلى هناك سرنا في أول صباح انضمت إلينا تاويكا فيه. لكننا وجدنا أن أحدًا قد سبقنا، إذ كانت هناك حزمة صغيرة من الثياب متجمعة في المياه،

إلى جانب الصخرة التي تقع في منتصف المياه، وحيث تغسل عليها النساء عادة. خطرت في بال تاويكا الفكرة ذاتها، إذ قالت: "أتساءل من الذي يغسل الثياب في مثل هذا الوقت".

نظرنا حولنا لنرى من نهض في هذه الساعة المبكرة، لكن لم يكن هناك أحد. مشت تاويكا نحو كومة الثياب، فأصابني وهي تتوجه إليها هاجس مرعب. ناديت عليها أن تقف في اللحظة التي انحنت فيها لتتفحص الثياب.

نهضت مطلقة صرخة فزع. واندفعت عائدة نحونا. وعلى نحو غريزي فتحت ذراعي إليها وهي تقول مرتجفة: "إنه طفل. أعتقد أنه طفل".

تركتها وذهبت لأرى بنفسي. كان بالفعل طفلًا. علمت ذلك من الكعبين النظيفين لأقدام صغيرة كان اتجاهها نحوي. كانت الجثة مقلوبة على وجهها. فقلبتها لأجد أنه لم يكن طفلا من المحليين كما ظننت.

بل كانت لوسي، طفلة حليمة الصغيرة.

قلت في السابق إنني صليت لما يمكن أن يسكت لسان حليمة، لكن لا أن يكون ذلك موت تلك الطفلة. كان حزنها قاسيًا، ودفعتها غريزتها لأن تهاجم من حمل لها الخبر. صرخت بأن تاويكا قتلت طفلتها. وعندما هدأت قليلًا، شرحت لها كيف اكتشفنا ذلك، لكن مضت بضع أيام قبل أن تستطيع حليمة أن ترى تاويكا دون أن ترغب في الهجوم عليها.

لم يستطِع أحد منا أن يفهم كيف استطاعت طفلة بهذا الصغر المرور عبر البوابة، بيد أنه ظهر أن البوابة ربما تركت مفتوحة في الليلة السابقة. حقًا، لقد رأينا أن المزلاج لم يكن مسحوبًا عندما غادرنا. كان الأصعب هو إقناع حليمة بأن ندفن لوسي في شاونده، قرب الجدول الذي ماتت فيه.

قال آمودا إنه لا يفهم ما الذي يجعل امرأة تحزن على طفل ليس لها.

كان الآخرون أكثر لطفًا معها. لطالما كانت تستلطف فرج الله كريستي، وهو الرجل الوحيد هنا الذي يطبخ. شرح لها أن الغرق أشبه بالغط في النوم، وطلب من كاروس فرار أن يقول لها الكلام ذاته. لقد سمعت أنه يُقال إن الغرق أشد الميتات إيلامًا، لكنني على يقين بأن الرب يصفح عن هذه الكذبة، فالطيبة واللطف كانا وراءها.

كان كاروس فرار هو من أقنعها بأن تدعهم يدفنون لوسي. يمكن أن تكون من أي مكان، ومن الأفضل أن تدفن هنا، قرب قومها، بدل أن نسير بها إلى باغامويو. قال إنها كانت خفيفة في حياتها. ويجب ألا تصير عبئًا في موتها. فوافقت حليمة، وهكذا دفنت الطفلة. واتفقنا على الانتظار لأسبوع آخر قبل المضي من جديد.

13

6 آب/أغسطس 1873

المدخل الثالث عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، وفيها تظل البعثة في شاوندە، وتزداد جماعة المخلَّصين عددًا، ويدخل واينرايت أرض بيولا.

توقف العالم الآن عن الدوران، وإن كنت ما زلت أدور معه. فكرت في أن أسميها جوديث أو إستر، أو حتى مارثا أو إليزابيت، لكنها بيولا، فبين ذراعيها أصير في **أرض بيولا**، أرض الجمال والعذوبة، والنور والبهجة. في أرض العجائب تلك، تغني الطيور وتزهر الورود، والشمس تشع نهارًا وليلًا، بعيدة من **قلعة الشك**[10] و**اليأس العظيم**[11] وأبعد ما يكون عن **وادي ظل الموت**.

في الأفق تضيء مدينة السماء، لأن **أرض بيولا** تقع على حدود السماء، حيث يعلن **المنوَّرون**[12]: "انظر، جاء خلاصك، جائزتك معها، خذ عروسك".

وستكون عروسًا جميلة.

---

10 Doubting Castle في (رحلة الحاج). (المترجمة).

11 Giant Despair في (رحلة الحاج). (المترجمة).

12 Shinning Ones في (رحلة الحاج). (المترجمة).

كنت حينها قد عدت للتو من مسيري إلى المياه لأغتسل، المياه ذاتها التي غرقت فيها لوسي منذ أسبوع فحسب.

إنها المياه نفسها التي كنت أستخدمها في طقوس التعميد. كان قلبي يغني عندما جلب شيرانغو تاويكا إلي لأعمِّدها.

قال: "إنها جاهزة، أيها المعلم. لقد سمعت كل ما قلته عن رحمة الآب وهي مثلي ومثل الآخرين الذين جلبتهم لك، تريد الخلاص".

سألتها بكل جدية إن كانت تقبل المسيح. لم يكن هناك وقت للتعليم، لكنني وأنا ممتلئ بشعوري بصحة ما أفعل، عمَّدتها على طريقة يوحنا المعمدان. غمرتها بالماء في أعمق جزء من النهر. كانت ثيابها تلتصق بجسدها وأنا أصلي عليها. الرجفة ذاتها التي أصابتني عندما أمسكت يدها أصابتني الآن، لكن حل محلها شعور عظيم بالامتنان لأنني أنا من اختير ليقود ابنة الله تلك إلى ذراعي الخروف.

في الحقيقة إن الرب معي. فبداية، اطمأننت إلى أن الطبيب رقد في سلام مع خالقه. ثم، حولت إلى المسيحية شيرانغو وأحد عشر رجلًا آخر. والآن، ها هو هذا المخلوق الجميل، أول امرأة أفوز بها للمسيح.

العشب يبدو أكثر خضرة، السماء أكثر زرقة من أي وقت مضى، وللمرة الأولى في حياتي يدهشني كيف أن الله اختار أن يخلق لا طيرًا واحدًا، بل أنواعًا مختلفة من الطيور، لا شجرة واحدة، بل أصنافًا متنوعة من الشجر، لا وردة واحدة، بل باقة مختلفة من الورود. والعشب، حتى العشب. من كان ليظن أن ثمة الكثير من أنواع العشب، ظلال كثيرة للون الأخضر؟ حقًا إن نعمةِ الخلق لتبهج القلب.

بدأت أفهم أخيرًا ماذا كان الطبيب يعني عندما كان يقول: "أرى الله في خلقه". بدأت أفهم لماذا كان بمقدوره أن يجلس لساعات لا تنتهي لا

يفعل شيئًا سوى مراقبة مجموعة من النمل، مستلقيًا على بطنه في التراب والمخلوقات الصغيرة تتحرك جيئًا وذهابًا أمام ناظريه. لطالما كان انشغال الطبيب بأشياء كهذه لغزًا محيرًا بالنسبة لي.

سألته ذات مرة: "هل تنصب عناية المسيح على النمل، أم على أن نسعى لملكوت الرب هنا على الأرض، أن نهدي أرواح الوثنيين إلى الجنة، أن نغرس في قلوب البشر جميعًا الخشية من اسمه القدوس؟"

أجاب الطبيب: "أنا أفهمه من خلال التنقل في أنهاره وتأمل أروع مخلوقاته".

حدثني بعد ذلك أنه رأى شلالًا ضخمًا على نهر زمبيزي، وسمع من مسافة بعيدة صوتًا كما لو أن ملايين من الصخور تسقط، وكيف كان الضباب والمطر يغمر المكان وهو يصل أخيرًا ليرى أجمل مشهد رآه في حياته.

قال: "مناظر بديعة كهذه لا بد أن تكون دليلًا على قدرة الله وجلاله".

اغرورقت عيناه بالدموع، كانت دموعًا حقيقية. وهأنذا تدمع عيناي الآن. كم هي معجزة المرأة، من بين خلقه! ما أكرم الله البصير العليم، الذي خلق المرأة لتكون زوجًا ومعينًا وسكينة للرجل في كل أيامه! ما أروع أن وجد آدم نائمًا ومن جنبه أخذ ضلعًا، وأغلق الجلد مكانه. ومن ذلك الضلع، خلق الله المرأة. ما أروع المرأة وما أعظم كرم الله!

في الليلة نفسها، جاءت لتشاركني الفراش. كان الرجال مخمورين بالبومبي الذي قدمه القرويون لاسترضائنا وكانوا يغطون في النوم. كنت شبه نائم في الكوخ الذي يشاركني فيه شيرانغو، والأفكار تأخذني، عندما شعرت بجسد ناعم بجانبي يهمس: "هذه أنا". كانت أنفاسها دافئة في أذني.

قلت لها: "انتبهي لشيرانغو".

فقالت: "ليس هنا".

ودونما إخباري، علمت لماذا كانت هنا وماذا كان عليَّ أن افعل. ومثل آدم وحواء من قبلنا، كنا عراة دون أن نشعر بالخجل. تاويكا، جميلة، جميلة فوق الإدراك، هذه عظم من عظامي، ولحم من لحمي! جرت قشعريرة في جسدي، وخلال لحظات، انفتحت أمامي آفاق وعرفت كيف ستسير حياتي.

بعد ذلك قلت لها: "يجب أن نركع، يجب أن نركع".

وهناك، عريانين، ركعنا في صلاة محمومة. في الصباح كانت قد مضت. لكنني عندما رأيتها ثانية، ونظرت إليَّ وابتسمت ثم نظرت بعيدًا، عرفت أن ذلك لم يكن حلمًا، أنها كانت حقيقة وكانت لي. كل أحلام اليقظة ذلك الصباح عبرت أمامي بينما أتخيل الحياة التي يمكن أن نعيشها بعد تجاوز المخاطر في طريقنا. ستكون زوجتي وبوجودها بجنبي، ستكون لديَّ القوة التي أحتاجها لأتحدى كل شيء.

فكرت مجددًا في الأسماء الكثيرة التي أردت منحها إياها. لا، لن تكون إستر او راعوث. ستكون راحيل. بالتأكيد راحيل، زوجة يعقوب الأثيرة وأم أبنائه الأعزاء. ابننا الأول سيُدعى يوسف، والثاني بنيامين، وسنؤلف بيننا سبطًا جديدًا بالإيمان والتقوى.

أحضرت الطعام لقادة البعثة، وعندما قدمت الطعام لمبروكي بالكاد نظر إليها. مبروكي. غاب عن بالي، أنه... لكن لا، لن أفكر في ذلك. ففوق كل ذلك، لقد ضاجعت راعوث رجلًا آخر قبل أن تلتقي يسى، والد داود. وبثشبع ضاجعت أوريا الحيثي ومع ذلك أحبها داود. لا يهم ما إذا كانت تاويكِا قد عرفت رجلًا آخر. تلك كانت خطيئة. لكنها معي ستولد من جديد، باسم جديد. ستغسل ذنوبها ومعًا سنبدأ حياتنا. من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر، هكذا قال الرب عن المرأة الزانية.

لقد صليت لذلك وعرفت في قلبي أن الرب قدّس اتحادنا، وأنه سيقدس زواجنا، إذ حالما نصل زنجبار ونكون قادرين على الزواج فسنتزوج في كنيسة مسيحية.

إلى حينها يجدر بي أن أنكر ذاتي وأكون مضحيًا. فإلى أن نتزوج، سأضحي بنعيم ذراعيها. فمن الصعب بأي حال من الأحوال إيجاد فرصة مناسبة أو وسيلة أو مكانا للقائها دون علم أحد.

هذا ما كان في بالي عندما فاتحتها بالكلام وهي تسير نحو الجدول. أخذت منها الدلو كما لو أنني أساعدها. وفي نشوة شاركتها كل شيء تخيلته. سوف تكون زوجتي، ورفيقتي. سنتزوج في زنجبار، ثم سأرسم كاهنًا في إنكلترا. وبعدها، أعود إلى إفريقيا لأعمل في كرم المسيح. ستكون أكثر من زوجة لي، ستكون زوجة مبشر، وسيلة لله والخلاص.

ثم وقع بصرنا على أجمة مخفية واستلقينا خلفها لفترة هانئة. كم هي رائعة المرأة! بعد ذلك استعدت ما كنت قد تراخيت فيه، وقلت محذرًا: "ستكون حياة غاية في الصعوبة والتضحية، لكن ماذا يهم ما دمنا نعمل لأجل المسيح؟"

قالت تاويكا: "لستُ مسيحية".

قلت لها: "سأجعلك مسيحية، ومعًا سنحول للمسيحية أبناء الله جميعًا الذين يعيشون في إفريقيا، من يعيشون في الظلام، بعيدًا من نور الله ونعمته".

قالت لي: "ألا تخطط للذهاب إلى إنكلترا؟"

"قالت حليمة إنك ستذهب إلى إنكلترا، ثم تعيش هناك أو في زنجبار".

قلت: "سأذهب إلى إنكلترا، لكن لأرسم كاهنًا فحسب، ثم أعود إلى هنا، حيث ينايديني الله. ومع وجودك بجانبي أعلم أنني سأنجح".

وفي حماسي ذاك جذبت يدها ووضعتها على قلبي. عندئذ سمعت حفيفًا

في العشب خلفنا. التفت وقلبي ينبض لأرى من هناك.

"اعذراني، رجاءً، لم أركما هنا".

كان صوت شيرانغو الذي ظهر من خلف شجرة دون أن يراه أي منا. شعرت بيد تاويكا حارة فجأة في يدي. فتركتها في الحال. ابتسم وانحنى ولعق شفتيه. ودون أي كلام بيننا، عادت تاويكا باتجاه البلدة.

اعتقدت أن شيرانغو ابتسم ابتسامة من يعرف بالامر بينما تغادر، بيد أنني متيقن من أنه لن يخونني. لم أمتلك الشجاعة لأسأله أين كان في الليلة التي أتت فيها لأول مرة لتشاركني الفراش، وأين كان في الليالي التالية. إلا أنني عزيت نفسي بأن هذه الحيل غير اللائقة لن تستمر لأكثر من بضعة أسابيع متبقية من مسيرنا. سيأتي النور في النهاية، هذا ما أنا متيقن منه.

لم أضطر إلى طرح الموضوع إذ قال على الفور: "أنت صديقي الوحيد في هذه الرحلة، صديق منذ البداية. تأكد أن جميع أسرارك محفوظة في قلبي".

قلت على الفور: "ليس هناك سر".

قال: "لا، حقًا. لكن ثمة أشياء من الأفضل ألا تكشف للجميع، أو تُكشف للجميع دفعة واحدة".

قلت: "إنه أمر، أنت تفهم ذلك، ليس بيدي".

قال: "أفهم كليًا. إنه حول شخص محدد، سندعوه الشخص المعني".

نظر إليّ بخبث وهو يتكلم. هذا آخر ما كنت أرغب في أن أدعوها به، فتلميحاته وخبثه جعلا الأمر يبدو أسوأ مما كان.

"إنه أمر يتعلق بالشرف، لأننا لا نريد أن تصل أي إشاعات مزعجة إلى مبروكي".

قال موافقًا: "لا نريد فعلًا. لا نريد أن تنتشر اي إشاعات حول الشخص المعني".

كان يصعب عليّ أكثر وأكثر أن أنظر في عينيه.

قلت: "أو في الواقع إلى أي أحد".

"لا فعلًا".

قال: "سوف أتكلم أيضًا مع الشخص المعني وأطمئنها أن السر محفوظ، إن كان ذلك يرضيك، بالطبع".

ماذا عساي أن أقول؟ أن نحبك مؤامرة بيننا نحن الثلاثة بهذه الطريقة هو آخر ما رغبت فيه، لكن ماذا عساي ان أفعل؟ لم يتجه الحديث في الاتجاه الذي أردته أن يسير فيه، إلا أنني واثق به، فتركته وانحناؤه وتبسمه.

ليس خوفًا عليّ، بل عليها. لقد امتلأ قلبي بالاشمئزاز لاضطراري على إخفاء هذا، لكنني لم أكن لأشكك بخطة الله عندما تكون واضحة أمامي. هذا ما أراده الله، وإذا كان لا بد من بعض النفاق، فهو من النوع الذي مارسه يعقوب الذي أحمل اسمه عندما غطى نفسه بجلد الماعز وظهر لأبيه إسحق، العجوز وضعيف النظر، في هيئة أخيه عيسو، ومنه أخذ بركة أخيه.

انظروا أي خير جاء نتيجة لهذه الخدعة، فقد كان يعقوب أبا الأسباط الاثني عشر، ومن هو خير لهذه البركة من الرجل الذي أنجب من ذريته أمة يهوذا، التي جاء منها الملك داود، ومن نسله، جاء الرب يسوع.

وإذا كان من المعصية أن يضاجع الرجل امرأة هو خطيبها وسيتزوجها خلال أسابيع، فسأستطيع آنذاك أن أعزي نفسي بأنني بتّ أعرف على الأقل ما المعصية، إذ كنت، حتى تلك اللحظة، خاليًا من الذنوب. إن من سيصبح رجل دين يجب أن يكون عالمًا، أولًا، ما يعني أن يرتكب الإنسان المعصية.

14

14آب/أغسطس 1873

المدخل الرابع عشر في مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في كومباكومبا، وفيها يعاني واينرايت من صدمة كبيرة عندما تتلقى الفرقة العون من حليف مستبعد.

دخلنا الآن إلى بلدة كومباكومبا، حيث مكثنا لفترة لم تكن هانئة. آمل أن يسامحني قرائي إذا تدفقت أفكاري بغزارة وكانت كلماتي غير مترابطة، إذ شعرت بصدمة كبيرة. فأنا الآن أجد من المستحيل التوفيق بين ما يكتبه الطبيب في مذكراته والأنباء التي وصلتني مؤخرًا فيما يتعلق بسلوكه.

"يبدو أن أغرب مرض رأيته في هذه البلاد هو انكسار القلب، وهو يصيب الأحرار الذين يقبض عليهم ليصبحوا عبيدا". هكذا يدون الطبيب في مذكراته في اليوم العشرين من شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1870 ميلادية.

يروي في هذا المدخل قصة رجل يدعى سيد بن حبيب، يُقتل أخوه الأكبر في رِوا إثر دخول رمح إلى خيمته وإصابته في جنبه. فنذر سيد هذا

بأن يأخذ بثأر أخيه واعتدى على كل من وجده، وقتل جميع كبار السن من القرية التي جاء منها الرمح وأسر الشباب.

وكما يروي الطبيب، حصل سيد على عدد كبير من الأسرى الذي تحملوا ما يكفي في سلاسلهم إلى أن رأوا النهر الواسع لوالابا يموج بينهم وبين بيوتهم الحرة. ثلاثة منهم ماتوا بعد ثلاثة أيام من عبور النهر، وكان ألمهم الوحيد في القلب، إذ وضعوا أيديهم على المكان الصحيح. صبي في حوالي الثانية عشرة سنة من عمره كان محمولًا بالأيدي، وعندما كان على وشك الفناء، وُضع على الأرض إلى جانب الطريق، وكان ثمة حفرة لوضع الجثة فيها. قال إنه هو أيضًا لم يكن يعاني من أي مرض، سوى الألم في قلبه.

يقول الطبيب إن متلازمة القلب المكسور هذه لا تصيب سوى الأحرار الذين يقبض عليهم، لا أولئك الذين يولدون عبيدًا في الأساس. ويكتب في مدخل آخر: "إن المناظر التي رأيتها، وإن كانت أحداثًا شائعة في الطريق، تعافها الروح إلى درجة أنني أجهد على الدوام لإخراجها من ذاكرتي".

إنني عندما أقارن بين كلام الطبيب وتصرفاته أجد نفسي مصدومًا. فبرغم جميع احتجاجات الطبيب ضد أشنع أنواع التجارة، أؤكد سمع أذنيّ أن الأشياء التي قيلت حول النار في شيتامبو، والأشياء التي كنت أرجعها للشراب والبومبي وخداع الذاكرة، جميعها صحيحة. أؤكد دون أدنى شك، أن الطبيب قد تلقى القوت والعون من تجار العبيد.

كنت أبحث في مذكراته لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أجد أي كلام يبرر تهمته الجسيمة. وجدت مداخل تتحدث عن قلب تألم من المناظر التي رآها. ومع هذا، فإن الرجل الذي كتب هذه الكلمات قد تلقى العون من تجار العبيد.

وفي موضع آخر، وعلى غير المعهود - بالنظر إلى أنه لم يكن مريضًا -

يكتب باقتضاب: "سرنا لساعتين ونصف الساعة غربًا إلى قرية بوندا، حيث يعيش زعيم عربي يدعوه المحليون تيبو تيب، واسمه حامد بن محمد بن جمعة بو رجب".

يظهر أن كومباكومبا، سيد البلدة التي نمكث فيها الآن، هو أخ تيبو تيب ذاك، إنه شقيق "محمد بن جمعة" ذاك، تيبو تيب ذاك الذي نمت ثروته من شقاء المستعبدين. هذا كومباكومبا نفسه الذي يتفاخر أمامي بصداقته القديمة مع الطبيب.

لقد منحتنا بلدة شاندوه الراحة التي كنا نحتاجها، فمن كانوا مرضى تعافوا، حتى حليمة التي كان الحزن عقابًا لها. ترددنا كثيرًا قبل أن نغادر تلك البلدة المسورة، لكننا كنا آنذاك نحمل مؤونة كافية لما تبقى من الرحلة. سنصل تابورا خلال شهر، وإلى باغامويو بعد ذلك ببضعة أسابيع فحسب.

كنا في الأيام القليلة التالية نخيم حيثما استطعنا إيجاد مكان مناسب. كان هناك توقفات أكثر من التقدم في هذا الجزء من الرحلة، فقد كنا نسير لنوبات متفرقة، لا سيرًا منتظمًا. يسرني أن أقول إنه حتى الآن كنت الوحيد الذي يمانع ارتداء لباس مريع. فقد كان الناسيكيون يرتدون قمصان النوم في النهار. احتجوا قائلين إنها أخف، لكنني كنت مصرًا على أن الهيبة أهم من الراحة.

لم أحظَ سوى ببعض الفرص للتحدث مع تاويكا، وإن كان شيرانعو متعاونًا في تأمين مثل هذه الفرص الضئيلة لي. أي صديق كان لي! لقد أصبح إنسانًا يُسر القلب لرؤيته.

أمضينا ليلة أخرى في السهل قبل أن نصل إلى أحد روافد نهر لوبوبوسي ويدعى مبامبا. كان جدولًا عميقًا تصل مياهه إلى صدر رجل متوسط. الأطفال الخمسة حُملوا أثناء العبور، مثلما حملوا في مستنقعات بانغوولو.

لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بالمسكينة لوسي التي كانت الطفل السادس، لكنها اليوم ترقد تحت الترب في شاونده.

دنونا قرب بلدة شيوايه، التي كانت شديدة الشبه بشاونده، فقد كانت بلدة قوية ومحصنة يحيطها خندق. عندما وصلنا إلى هذا المكان، أوقفنا بفظاظة ستة رجال حاولوا أن يتشاجروا معنا لحملنا الرايات. لحسن الحظ، جاء رجل ذو مكانة مهمة، يظهر أنه قريب لزعيمهم، وأوقف الجدال. كان من الممكن أن يحدث سوء، لأن العسكر لم يكونوا في مزاج يجعلهم يخفضون راياتهم أو مسدساتهم، إذ يعلمون مدى قوتهم جيدًا في هذا الوقت.

لم نتوقف في البلدة نفسها، بل خيمنا في فسحة خارجها. وحتى تلك النقطة، كان مسارنا باتجاه الشرق، لكننا حينذاك أدرنا ظهرنا للبحيرة، التي كانت على يميننا منذ أن عبرنا لوابولا، ثم اتجهنا شمالًا.

أخيرًا أصبحنا على الطريق المألوف إلى بلدة كابيشا. فقد توقف آمودا وسوسي وشوما هنا مع الطبيب. كانت أقدامنا خفيفة لأننا كنا نعلم أين نحن ذاهبون. وأولئك الذين لم يمروا من هنا من قبل كانوا مستعدين لمنح الثقة لمن يعرفون الطريق.

كان لديَّ سبب آخر لأكون ممتنًا. فقد كنا الآن بين قوم عرفوا الطبيب عندما كان حيًا، ونستطيع أن نتخلى عن تظاهرنا المقيت بالسحر كما اضطررنا أن نفعل في شاونده. استطعنا أن نمشي في النور ونقول إننا نحمل جثمان رجل قابلوه منذ سنة واحدة فقط.

لم أكن مع الطبيب عندما كان يسافر عبر هذه الأراضي. لذا عدت إلى ملاحظات الطبيب لأرى أن كابيشا بالفعل كان مدنيًا وكريمًا مع الطبيب، وقدم له رجالًا ليرشدوا الفرقة إلى أرض أخيه شونغو. وعندما قابلنا كابيشا،

شعر الرجل الطيب بأسى بالغ لمعرفته بموت الطبيب. أصرّ على أن يوضع جثمان الطبيب على منصة عالية لكي يتمكن قومه من الاصطفاف أمامه وتقديم واجب العزاء.

كان راغبًا في مشاركتنا ذكرياته مع الطبيب، لدرجة إطلاعنا على عبوة صغيرة من البودرة أعطاه إياها الطبيب. ومن كابيشا، مضينا عبر أراضي شاما وكاسونغو، وقد وجدنا في كل مكان الخوف والخراب يسود في الجوار من الغزوات المستمرة التي يشنها رجال كومباكومبا.

أخيرًا أصبحت بلدة كومباكومبا في مجال نظرنا. لم يكن لدينا خيار سوى العبور في أرضه. أقول أرضه لكن الحقيقة هي أنه لا أرض له، فهو ببساطة يسيطر على الأراضي المجاورة عبر الخوف من الغزو.

رغم أن اسمه محمد بن مسعد، حسب التسمية العربية، فهو معروف باسم كومباكومبا لأن الكلمتين تعنيان "جامع البشر". كان كابيشا وشونغو وشاما وكاسونغو وزعماء القبائل الأخرى التي تقع ضمن نطاقه مجبرين على دفع ضريبة له من أنياب العاج لتجنب التعرض للغزو.

ارتأى آمودا أنه من الحكمة إرسال رجلين لإبلاغه بوجودنا. فجاء بنفسه لمقابلتنا، ترافقه حاشية ضخمة. ورغم أنني كنت ممتلئًا بالاشمئزاز، كنت أشعر بفضول كبير إزاء هذا الرجل. كنت أتوقع أن أرى رجلًا ذا مكانة عظيمة وبنية ضخمة، لذا لم اكن مستعدًا للقاء ذاك الرجل الضئيل مستدير البنية الذي اقترب منا ووجهه الأسمر يبتهج بالمودة.

تكلم بعاطفة بالغة عن الطبيب الذي يدعوه داودي الطبيبُ، في الواقع، لقد تكلم عنه باعتباره صديقًا. أمر بإطلاق النيران على شرفه. ثم أمر بإعداد وليمة كبيرة لنا. وروى لنا ونحن نأكل كل ما فعله مؤخرا. فقد حظي بكثير من السلطة والمفخرة. إذ كما عرفنا من القرية المهجورة

منذ بضعة أشهر، فقد قتل كاسيمبي، ربما الرجل الوحيد غير كومباكومبا الذي يوحي مجرد اسمه بالخوف في الجوار. روى لنا بتفاصيل بشعة كيف لقي كاسيمبي حتفه، وكان مبتهجا متعطشًا للدماء وهو يروي عذاباته الأخيرة.

لم يكن من الضروري أن نتبادل النظر لنعلم أننا نفكر في قرار واحد: أن علينا أن نتخلص من صحبة هذا الرجل البغيض في أسرع وقت ممكن. ومع ذلك فقد كان فيه من المدنية ما لم أتوقعه. وقد أظهر لنا كل أشكال الود واللطف في الأيام الخمسة التي قضيناها في ضيافته.

كان يشعر بالفضول نحو الناسيكيين ونحوي على وجه الخصوص. فعلى عكس الناسيكيين الآخرين، كنت أرتدي لباسي المعتاد، البزة والصدرية، إذ أردت أن أجعل كومباكومبا مرتابًا حيالي.

قال وهو يتفحص وجهي: "إنكليزي أسود، أم أنك مجرد زنجي يرتدي لباس الإنكليز؟" الكلمة التي نعتني بها، زنجي هي صفة مسيئة في لغته العربية لمن ينتمي للعرق الأسود، إذ تعني "همجي". هكذا يميزون أنفسهم، فالزنوج ليسوا بشرًا، بل مجرد همج يجب ترويضهم وبيعهم كالبضاعة. ثم نظر إليّ كما لو أنه يتفحصني ولدهشتي قال إنني لا بد أن أكون من الياو.

كان واضح أنه لم يتوقع مني أن أجيب، لأنه التفت بعد إعلانه هذا وتحزر عن موطن الآخرين. كانت لديه نظريات عن جميع البائسين. "الوانياموريزي حمالون جيدون، المانويما يناسبهم أن يكونوا عبيد بيوت، أما الواغوغو فمن الصعب ترويضهم، مثلكم أنتم الياو".

قلت له أخيرًا: "كنت عبدا حين كنت صغيرًا، لكنني الآن رجل حر".

كان مبتهجًا بحضورنا، فقد شكل لقصصه جمهورًا جديدًا. كان مسرورا خصوصًا عندما روى لنا كيف بدأ هو وأخوه تيبو تيب في تجارة العبيد. "وظفنا مئة رجل من واسارامو ليعملوا كحمالين لكننا ارتكبا خطأ

بإعطائهم ربع راتبهم الذي يساوي عشرة دولارات. كان علينا أن نعلم أنه عندما يحصل الزنوج على بعض المال، لا تراهم من جديد.

"لقد غادروا، وكنا هناك مع القماش الذي علينا أن نأخذه إلى الداخل والعاج الذي سنجلبه من هناك، وليس معنا أي حمالين. لذا أخذنا أنا وتيبو تيب اثني عشر رجلًا مع خمسة عشر مسدسًا وغلبنا الواسارامو. أسرنا مئتي رجل وربطناهم في سلاسل حديدية، وحملوا حزمنا إلى الداخل، ثم في العودة، ومنذ ذلك الحين لم نضطر إلى دفع المال لأي حمّال".

ثم، كما علمنا أنها كانت صفة من صفاته، انتقل إلى موضوع جديد وبدأ يتذكر ذكريات طويلة وعاطفية عن الطبيب: "عليَّ أن أبلغ أخي تيبو تيب أن داودي الطبيبُ مات؛ سيغرق في الحزن والغم".

روى لنا قصصًا طويلة عن كيف نجا الطبيب من الجوع، وكيف تاه بحثًا عن بحيرة ميرو حتى أنقذه تيبو تيب. ثم سافر الطبيب مع تيبو تيب وعبيده إلى أن وصل حيث كان يرغب. ومن هناك، انتقل الطبيب ليكون في عناية محمد بن صالح، وهو تاجر عبيد آخر.

شعرت آنذاك أنه من الضروري أن أدافع عن الطبيب.

قلت: "كان رجلًا نزيهًا".

"نزيها". ضحك كومباكومبا كما لو أنه يسخر مني. "حقًا هناك بعض النزاهة في النجاة بجلدك".

ألقيت في تلك الليلة نظرة أخرى على ملاحظات الطبيب. يقول في مدخل: "اليوم رأينا رجلًا ميتًا من الجوع، فقد كان شديد النحول. تجول أحد رجالنا ووجد عددًا من العبيد وعليهم أثر عصا العبيد، وقد تركهم سيدهم لحاجتهم للطعام؛ لقد كانوا في غاية الضعف حتى أنهم عاجزون عن الكلام أو إخبارنا من أين أتوا؛ بعضهم كان ما يزال صغيرًا في السن".

وفي مدخل آخر يكتب: "العبودية شر بغيض أينما رأيته. امرأة مسكينة وابنها من بين من أمسكوا، الصبي بعمر الثالثة تقريبًا يبدو أنه مدلل أمه. قدماه تتألمان من المسير في الشمس. عُرض مقابل سلسلتين من الخرز، وأمه مقابل واحدة. لقد فهم كل شيء، وبكى بحرقة متشبثًا بأُمه. لم تكن قادرة على فعل شيء، وفُصلا في كارونغو بعد ذلك".

عندما غادرنا كومباكومبا، رأينا دليلًا حقًا على أن هذه الأرض كانت في قبضته. إذ رأينا خمس مجموعات من العبيد المربوطة أعناقهم ببعضها بالسلاسل. وهنا وهناك رأينا أكوامًا من الجثث والهياكل العظيمة. اشتعلت في داخلي نيران الغضب عندما فكرت في أن الطبيب قد طلب العون من رجل كهذا. لقد أكل معه، وضحك معه. لقد تناول طعامًا من دموع العبيد.

غادرنا بأسرع ما أمكننا، فلا أحد من بيننا كان يرغب في البقاء دقيقة واحدة زائدة في صحبته المقيتة. بيد أن أخبارًا أخرى استعجلتنا، وكانت أخبارًا سارّة: فرقة من الإنكليز يترأسها ابن الطبيب ليفينغستون كانت في طريقها لإنقاذ الأب، وكانت قد غادرت منذ عدة أشهر، ويقال إنها تقترب من باغامويو.

15

2 أيلول/سبتمبر 1873

المدخل الخامس عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، وفيها تعبر البعثة، بعد لقاء زعيم مغامر، برية شونغو وجبال لامبالامفيبا.

أعطت أنباء وصول رجال إنكليز المعنى لرحلتنا حين كنا في أمس الحاجة لذلك. رغم لطف كومباكومبا وضيافته لفرقتنا، كان يحيط به حقًا جو من الشر والبغضاء، وإن كان الرعب الذي يثيره اسمه يتضاءل كلما ابتعدنا نحو الشمال الشرقي.

رأينا مجددًا المناظر التي باتت مألوفة لنا، لكن لا يهم كم كنا نراها، تظل بغيضة كما في أول مرة رأيناها فيها: أجساد مربوطة إلى الأشجار، وعصي عبيد، وهياكل عظمية. تلوت أنا والمصلين الصلوات على كل جثة، لكن ذلك كان أقصى ما استطعنا فعله لهذه الأرواح المسكينة، وهل هناك ما بوسعنا فعله أكثر من ذلك؟

استقبلنا الزعيم الشاب شونغو بالبهجة. جاء لملاقاتنا وهو يرتدي زيًا عربيًا وطربوشًا أحمر. كانت له ذكريات طيبة مع الطبيب، فعندما كان يستكشف تلك المناطق، كان شونغو معجبًا به. وما ملأ قلبي بالغبطة

هو أن أرى أنه نبذ عن طيب خاطر جميع الخرافات واعتبر وصول جثة الطبيب سببًا للحزن والغم. فأصر على أن يندب قومه البوانا، وظلوا طوال الصباح يتجمعون للانحناء أمام الجثمان.

تقع بلاد شونغو في منطقة غنية بالصيد. وقد حظي موناسير إلى جانب وادي سافينه وكاروس فار وآسماني ببعض الحظ في الصيد وقتلوا جاموسًا قرب البلدة. وحسب قوانين بلاد شونغو، فللزعيم الحق في قائمة أمامية. لكن رجالنا توسلوا إليه ألا يعتبر هذه الحالة عادية، وأن للجوع قوانينه الخاصة. وتوسل موناسيره وسافينه لأن يسمح لفرقتنا بالاحتفاظ بالطريدة كاملة، وشونغو لم يصغ فحسب بل تخلى عن طيب خاطر عن حصة الزعيم.

كنت مسرورًا لأنال فرصة التكلم مع شونغو، إذ وجدت أنه يتكلم السواحيلية بطلاقة. لقد وجدته في الحقيقة رجلًا ذا عقل راجح وإدراك واسع. قال إنه سمع عن عجائب زنجبار وأراد بعضًا من هذه الأشياء في بلاده. لقد تحدث أيضًا مع الطبيب وكان مفتونًا بالمعرفة التي تأتي من الكتب.

يظهر أن شونغو هذا قائد جدير. فقد أخذني في جولة إلى القرى التي تقع تحت سيطرته. فوجدت أنها تمتلك صناعة ممتازة. فالنساء يصنعن باستمرار القماش المنسوج، الذي يصبغنه بأنفسهن، ومن أعداد كلاب الصيد ورماح الفيلة التي يراها المرء حوله، لا حاجة لشهادة أخرى لتظهر الشخصية التي يتمتع بها الرجال هنا كصيادين مهرة.

كان شيرانغو هو الوحيد الذي أثقل بظله في الأسبوع الذي أمضيناه في شونغو. فرغم أننا اتفقنا على أن أنسب اللحظات مع تاويكا هي تلك التي يمكن أن نقضيها بعد انتهاء اجتماعاتنا للصلاة وحلول الظلام بينما يراقب شيرانغو ما حولنا، وجدت أنني في كل مرة أقترب فيها من تاويكا، حتى خارج الأوقات التي اتفقنا عليها، يكون هناك، يعرض

خدماته متبسّمًا.

حظينا باستراحة طيبة في شونغو قبل أن نغادرها وقد وُدِّعنا بودّ. كان أمامنا الهبوط الحاد نحو البحيرة. فكان المسير سريعًا وخفيفًا، وفي الحقيقة كان يمكن للرجال الذين يحملون جثمان الطبيب أن يهرولوا نزولًا. ونحن ندور حول الجهة الشمالية من بحيرة تانغانييكا، سجلت مشاهدات شوما أن نهر لوفو يجري أمامنا في طريقه نحو تانغانييكا، بينما يجري كالونغويزه نحو بحيرة مورو في الاتجاه المقابل.

توقفنا لنغتسل في مياه اللوفو. وبينما كنت أكمل تطهري، لمحت هيئة جون واينرايت، الذي كان يقف بعيدًا عن الآخرين، يحدق مبهوتًا في المياه. اقتربت منه وناديت اسمه، فلم يجب. ناديته باسمه ثانية، وأيضًا لم يجب. تحركت لألمس كتفه، فنظر إلي مشدوهًا كما لو أنه كان في غيبوبة.

وفي صوت لم يكن صوته المعتاد، صوت تسمعه في حلم، قال لي: "أليس رائعًا النزول في هذا النهر لرؤية إلى أين يصل، واللحاق به حتى نهايته؟"

قلت: "بدأت تتكلم مثل الطبيب. لو سألت شوما لاستطاع أن يقول لك إلى أين يجري، دون أن تضطر إلى النزول فيه".

"النزول فيه هو تمامًا ما أتمنى أن أفعله: أن أسقط في مياهه وأدعها تحملني حيث تشاء".

قلت: "لكنك ستغرق".

فقال: "هذا ليس سيئًا". وأبعد نظره عني، ورغم أنني حاولت التحدث إليه، لكنني لم أستطِع بعد ذلك. فتركته واقفًا هناك، يحدق في الماء.

عدت إلى المخيم لأجد الرجال يتجادلون ما إذا كان باستطاعتهم أن يأكلوا مخلوقًا أطلق عليه النار مونياسيره. كان هناك احتفال كبير بقتل مونياسيره للوحش. كان مخلوقًا لم أرَه في حياتي، وله جلد بني مشعر، وأنياب

بيضاء حادة تبرز من فمه. قال شوما إنه معروف على أنه خنزير بري.

شعر المحمديون لدى سماعهم ما قال شوما باستياء بالغ. وجادلوا أن ليس هناك خنزير كهذا. وعندما قال آمودا إنه ليس خنزيرًا عاديًا، بل مخلوقًا لا يأكل سوى العشب، شعر المحمديون بالارتياح. توجهوا إلى وادي سافينه ليحكم في الأمر. فقد أمضى قبل أسفاره ثلاث سنوات في مدرسة، وهو أقرب المحمدين ليكون إمامًا. كما أنه يُعد مؤذن الفرقة ويؤم بهم في صلاتهم.

قال ودي سافينه: "إذا كان يأكل العشب، فإنه ليس خنزيرًا، فليس هناك خنزير يأكل العشب فحسب. فإذا كان يأكل العشب، لا يمكن أن يكون حرامًا. مهما يكن من أمر، يقول النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، إنه يحلّ للمضطر في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلا به. لكنني على يقين من أنه، حسب قول آمودا، ليس خنزيرا".

استحسن توفيق علي والمحمديون الآخرون ذلك على عجل، لأن تفسيرًا كهذا يعني أنه سواء كان خنزيرًا أم غير ذلك فإنه يمكن أن يأكله المحمدي. أعتقد من جانبي أن الجوع هو الذي سمح لهم أن يتجاوزوا وازعهم الديني، فبهيئته التي تشبه هيئة الخنازير، وخطمه الطويل الذي يبرز منه قرنان صغيران، ففي هذا المخلوق من القباحة ما يجعله خنزيرًا.

طبخنا الحيوان على نار مفتوحة. وسواء كان خنزيرًا أم غير ذلك، فقد كان وجبة شهية، وإن تحسرنا جميعًا على عدم وجود الملح. لا بد ان رائحة الطبخ جذبت الضباع، إذ رأينا مجموعة منها تجوب المنطقة حول المخيم، وكانت أعينها في أجسادها ذات اللون الرملي تومض تحت ضوء النار.

قال شيرانغو: "يجب أن تروا هذه الحيلة البارعة. هكذا نتعامل مع الضباع في موطننا".

التقط من الأرض جلد الحيوان وهو ما يزال يقطر دمًا طازجًا. وفي يده الأخرى حمل رمحا. ثم مشى مسافة قصيرة وعلق الجلد من جذع شجرة وغرس الرمح في الأرض تحت الجلد المتدلي مباشرة.

عاد إلى النار وقال: "انظروا". بعد فترة وجيزة رأينا ضبعًا يقترب من الشجرة. قفز ليلتقط الجلد وقد أغرته رائحة الدماء، فسقط على الرمح الناتئ. فأطلق صرخة ألم حادة. لقد حاول الهرب لكن الرمح كان قد انغرس في جسمه بقوة. وحاول فزعًا أن يتحرك ذات اليمين وذات الشمال وهو يجاهد لتحرير نفسه من الرمح الذي لا يرحم. كان الحيوان سيموت ميتة مؤلمة لولا أن أخذ سوزي بندقية مونياسيره ومضى باتجاه الحيوان. وسرعان ما سمعنا طلقة نار، وسكتت صرخات الالم. عد اشيرانغو الأمر مزحة مضحكة، ولا بد أن أعترف أنني لم أكن قادرًا على النظر إليه.

16

8 تشرين الأول/أكتوبر 1873

المدخل السادس عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في باولا، وفيها يجري واينرايت حوارًا ذا طبيعة غريبة مع طباخة الطبيب مع اقتراب وصول الإنكليز.

وصلنا الآن إلى باولا، ونحن على بعد بضعة أيام فحسب عن يونيانيمبي. ثمة أنباء عن أن فرقة الرجال الإنكليز باتت قريبة. أبلغنا العرب الذين التقينا بهم هنا أن بينهم أوزويل ليفينغستون، ابن الطبيب. يُقال إنهم على وشك الوصول إلى مستعمرة كازه العربية.

من الأرجح أنهم عندما يسمعون عن الحِمل الذي نحمله وسط قافلتنا، فسينضمون إلينا ويتولون أمر البعثة حتى الوصول إلى الساحل. إن وصول الإنكليز أمر مرحب به من النواحي كافة، إذ إنه سيحل مسألة كانت تضغط علينا منذ أن كنا في شاونده.

بات معروفًا في هذه الأنحاء أننا نحمل جثة رجل أبيض، ومع هذه المعرفة كانت تأتي اتهامات رنانة بالسحر والشعوذة.

وحدها أنباء الهجوم في شاونده قد حمتنا، إذ بات معروفًا أننا مسلحون.

لكن كما أبلغنا مونياسير قبل وصولنا إلى باولا بقليل، فإن مخزون الذخيرة لدينا منخفض انخفاضًا حادًا. إذا كنا سنتعرض لهجوم آخر كذاك الذي تعرضنا إليه في شاونده، فمن غير المؤكد أنه ستكون لنا الغلبة.

لقد خضعنا إلى اختبار على نحو ما عندما عبرنا نهر مانيارا، الذي أخبرني شوما أنه يتجه نحو بحيرة تانانييكا، إذ إننا قابلنا فرقة من الباغوغو الذين كانوا يصطادون الفيلة. شعرنا بالارتياح لرؤيتنا أن أسلحتهم تتألف من الكلاب والرماح فحسب. ورغم أنهم عاملونا معاملة حسنة، إذ أعطونا العسل وأطعمة أخرى مقابل الخرز، إلا أننا اعتقدنا أنه من الأفضل أن ألا يعلم هؤلاء الرجال أننا نحمل جثة الطبيب معنا.

استطعنا أن نقنعهم أننا لم نكن سوى فرقة من التجار متجهة نحو الساحل. وهكذا سيكون وجود الرجال البيض بيننا مرحبًا به، إذ إن ذلك قد يمنع على نحو ما الشعور بالخوف، إذ غالبًا ما يعتقد أن سحر البيض أرقى من سحر السود.

يعتقد الكثيرون في هذه المناطق أن البيض يعيشون تحت الماء، وهذا ما يفسر شحوب بشرتهم وتموج شعرهم. ثم إن هناك من يعتقدون أن البيض أكلة لحوم البشر. وفي الواقع كان الطبيب نفسه يقول لي ضاحكًا إن كثيرًا من الأمهات كنّ يجبرن أطفالهن على تحسين سلوكهم من خلال تهديدهم بأن الطبيب سيأكلهم إذا لم يكن سلوكهم حسنًا.

إن خرافات كهذه هي ما زاد إصراري أن أرى نور المسيح يطرد ظلام الشيطان! ضياء ربي، الفادي، يطرد الخوف من الخرافة! لكن ذلك ليوم آخر.

مِا أن وصلنا إلى نهر ليكوا، حتى رأينا سلسلة طويلة من الرجال على الجانب المقابل ينزلون صفًا واحدًا إلى المياه. كانوا صيادي فيلة وتجار عاج، وجاؤوا مباشرة من الساحل عبر يونيانيمبي. قالوا إن موت الطبيب قد

وصل إلى السكان المحليين في فيبا. وأسعدنا أن نعلم منهم أن ما سمعناه عن فرقة من الإنكليز قد وصلت إلى يونيانيمبي كان صحيحًا.

ذكرني شوما بأمر سيشكل ضغطًا كبيرًا. ففي أقل من أسبوعين سيبدأ صيام رمضان. وستضعف الفرقة على نحو واضح إذا لم يتمكن الأغلبية من الأكل عند المسير. علمت في بومباي أن رمضان فترة مرهقة جدًا، إذ لا يستطيع المرء تناول الطعام إلا بعد غروب الشمس.

أقنع شوما الناسيكيين، دون أن يعلمني، أن علينا أن نلتزم برمضان. فشعرت باستياء بالغ لعدم استشارتي، لكنه كما أوضح فإن ذلك للحفاظ على معنويات الفرقة، فكيف سنسير كجسد واحد إذا كان الثلث يأكل والثلثان الآخران لا يأكلان؟ كان ذلك يهدد بأن يكون موضوع شجار كبير إلى أن جاء آمودا بحل للمسألة.

أقر آمودا بأن فكرة شوما فكرة كريمة، لكن ثمة وسيلة أخرى لتخفيف الآثار السيئة التي قد يحملها الصيام على الفرقة. وهي أن نسير بوتيرة مضاعفة، بحيث عندما يحل شهر رمضان، نكون قد أصبحنا قريبين من المستعمرات. وعندها يستطيع من يقرر الصيام أن يصوم، والبقية يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون. وهكذا اتفقنا، ووجدنا أن خطواتنا باتت أسرع بحيث استطعنا أن ندمج مسير يومين في يوم واحد.

كنت مكلفًا من قادة البعثة بكتابة سرد عن الظروف المؤسفة التي أحاطت بموت الطبيب لتنقل إلى فرقة الإنكليز. وسيسبقنا في المسير أربعة رجال يحملون الرسالة.

جعلت عنوان الرسالة (بعثة ليفينغستون) بتاريخ 10 تشرين الأول/ أكتوبر 1873، وخاطبتهم كما يلي: "إلى فرقة الإنكليز، ستكونون قد سمعتهم عن الأنباء المؤسفة حول وفاة الطبيب ليفينغستون. نحن الآن على

مقربة من يونيانيمبي وسمعنا عن وجودكم هناك. فرقتنا تعاني من شح في المؤن. أرجو أن تتفضلوا بإرشادنا ما إذا كان علينا الوصول إلى البلدة، وفي هذا الحال، فيما إذا كان يجب علينا أن نطلق نيران المسدسات. المخلص، جاكوب واينرايت، الكاتب.

أخذ شوما هذه الرسالة، وإلى جانب آديامبري وماريكو شاندا ومونياسير، أصر على إيصال الرسالة إلى الفرقة الإنكليزية. كان على البقية انتظار عودتهم هنا في باولا. ومن هنا سنتجه إلى كاسيكيرا، وهناك سوف نعلم من شوما ما الذي ينتظرنا في يونيانيمبي.

بعد حوالي ساعة من مغادرة الفرقة الصغيرة، أقبل شيرانغو إلى حيث كنت أجلس في ظل شجرة وقال: "هناك من يريد رؤيتك، أيها المعلم".

اعتقدت مبتهجًا أنها كانت تاوكيا. فقد كان تواتر سيرنا السريع يعني توقف صلاتنا المسائية في تلك الفترة، وهكذا لم تسنح لي الفرصة لأتواصل معها. لكن كان هناك بعض اللحظات السانحة من هنا وهناك، لأن شيرانغو افتعل لنا بعض اللقاءات.

لكن كانت حليمة هي من أقبلت نحوي وهي في حالة اهتياج بالغ. كانت تفتقر للحيوية منذ موت لوسي، وكان في داخلها شعور بالوهن، لكنها تبدو الآن حليمة القديمة، رغم أنها كانت تتكلم بسرعة، وباهتياج ظاهر.

بدأت دون مقدمات قائلة: "أنت رجل متعلم، تمتلك من العلم ما يمتلكه الكاتب الذي أرسل لمساعدة الوالي ذات مرة. لكنه كان قبيحًا، كما تعلم، نحيلًا وأحدب، وله صوت يخرش الآذان".

قلت: "حليمة!"

"...تزوج في النهاية من ابنة أخ الوالي، ألم يفعل ذلك؟ لكنهم لم يبقوا طويلًا في زنجبار. أثرت عليه الحرارة على نحو مرعب. زنجبار لا تناسب

الجميع، خصوصًا عندما تكون الشمس وسط السماء. حتى القطط تعاني، لقد رأيت الكثير من القطط تسقط أرضًا هكذا، جميعها يغمى عليها من الحرارة، ثم تنتفخ وتتفسخ، اوه! الرائحة. كان يسميها نتنبار، بوانا دادوي، تلك كانت أول كلمة إنكليزية يعلمني إياها، وقال لأن زنجبار ذات رائحة نتنة. نتنبار".

نظرت إليها دون أن أتكلم وتابعت: "لكن ماذا تفعل، تتحدث معي عن الروائح النتنة والقطط الميتة؟"

قلت لها: "لست مهتمًا على نحو خاص بالقطط".

حسنًا إذًا، السبب وراء رغبتك في المعرفة عنها سر غامض، لكن دعنا من ذلك. لديَّ شيء مهم أرغب في التحدث فيه إليك. أريد أن أسألك عما ينتظرني في يونيانيمبي".

سألتها: "ماذا ينتظرك في يونيانيمبي؟"

"ابن بوانا داودي. من المؤكد أنه سيدعي ملكيته لي، أو حتى ربما سيبيعني لرجل أبيض آخر".

عندها شرعت تروي قصصها المألوفة عن أنه كان يملكها هذا السيد أولًا، ثم ذاك. ألا يقول القانون إن ملكية العبد تكون لورثة السيد عند موته، هكذا كان حالها عندما مات سيدها الثاني، القاضي، وانتهى بها المطاف عند التاجر العربي الذي اشتراها من أحد أبناء القاضي. والآن بعد أن مات بوانا داودي، فإنها بالتأكيد ملك لابنه، الذي جاء بلا شك إلى يونيانيمبي وغرضه الوحيد ادعاء ملكيتها، إلى جانب مسدسات بوانا داودي وكتبه وقماشه وأدواته الغريبة وما إلى ذلك.

نظرت إليها بمزيج من الشفقة والسخط، لكن غضبي الأكبر كان منصبًا على الطبيب. "ألم يخبرك أنه اشتراك ليكون في ذلك عتقك؟"

فسألتني: "ما العتق؟"

"تعلمين بالطبع أنه ثمة أربع طرق يستطيع العبد فيها أن ينال حريته: إما عبر تحرير سيده له، أو عتقه على يد شخص آخر أو بجهوده الخاصة، أو عبر التماس المحكمة إذا ما كان يتعرض لمعاملة وحشية من سيده".

"حسنًا، هذا لا ينطبق عليّ".

"ماذا تعنين بحق السماء؟"

"تظل تقول العبد يستطيع أن ينال حريته. لا تتحدث سوى عن الرجال. فماذا عني؟"

قلت لها: "الأمر نفسه ينطبق على النساء، القوانين ذاتها تنطبق على العبيد جميعًا، وعلى الأطفال أيضًا، وإن كان الأطفال، بطبيعة الحال، غير قادرين على عتق أنفسهم".

قلت ذلك لكنني لا بد أن أعترف أنني لم أكن واثقًا كليًا حيال هذه النقطة. لم أسمع في حياتي عن امرأة معتوقة. فبالطبع، كان جميع العبيد المحررين الذي وصلوا إلى مدرسة ناسيك فتيانًا. لعل ترددي ظهر في صوتي، إذ رأيت أنها لم تكن مقتنعة.

"ألم يشرح لك بوانا داودي أنه كان يشتري حريتك كما اشترى حرية شوما وماجوارا؟ لم يشتريكِ لنفسه. لم يكن ذلك شراءً، بل كان عتقًا".

كانت تلك فكرة جديدة كليًا بالنسبة إليها، أنها ليست حرة لأن الطبيب ميت، بل لأنها كانت حرة منذ أن اشتراها البوانا في كازه. أستطيع بالطبع أن أفهم لماذا لم يركز آمودا على هذه النقطة، لكنني لم أستطع أن أفهم لماذا لم يشرح لها الطبيب الأمر بوضوح أكبر. أو لعله قد فعل، لكن فكرة حريتها كانت ببساطة مسألة أكبر من حدود استيعابها.

أعتقد أنني نجحت في إقناعها أن ليس للتاجر الذي باعها إلى البوانا أو لابن الطبيب أي حق في ادعاء ملكيتها، أو أن يكون من الممكن بأي شكل من الأشكال لرجل عاش في إنكلترا ليسافر في رحلة من تلك البلاد التي ألغت العبودية ليس لشيء إلا لادعاء ملكيتها.

قالت: "أسديت لي معروفًا بالفعل. إذا كان هناك شيء أستطيع أن أكافئك به فأعلمني، في الحقيقة، أستطيع أن أسدي لك معروفًا الآن، فلا بد أنك تعرف ما يجري بين شيرانغو وتاويكا".

وبينما كنت أنظر إليها ببعض الحيرة، جاء شيرانغو لينضم إلينا. وإذ رأته، دمدمت حليمة شاكرة لي مجددًا ومضت. كان وجه شيرانغو يدل على أنه كان يرغب في أن يدخل معي في حديث ما. لكنني اختلقت العذر في أنني أرغب في الصلاة حتى انصرف أخيرًا. فانا أحاول أن أبقى بعيدا عن شيرانغو قدر المستطاع.

حادثة الضبع تلك قد أظهرت جانبًا مقيتًا في هذا الرجل. لم أقم صلاة لأيام. لا أعلم ما إذا كان هو الذي تغير أم أنا. لا بد أنني أنا، فهو ملتزم إلى أبعد حد، بيد أني أشعر أن في سلوكه ثقلًا عليَّ. كان كما لو أنه ملتزم للغاية، سلس للغاية، في غاية الاستعداد لأن يكون في عوني، إلى درجة خانقة. في كل مرة يبتسم فيها، أشعر أن قلبي ينقبض خوفا.

17

9 تشرين الأول/أكتوبر 1873

المدخل السابع عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في باولا، وفيها تنقسم البعثة بينما تغرق الفرقة في حداد عميق وتبحث عبثًا عن رفيق ضائع، وواينرايت يصلي لله في السماوات أن يعلّمنا أن نحصي أيّامنا، فتبلغ الحكمة قلوبنا.

قبل أن يتمكن شوما من العودة مع الآخرين، جاء مبروكي وشيرانغو ليبلغا عن اكتشاف صادم. إذ نزلا إلى الجدول لجلب المياه، وهناك وجدا رجلًا مستلقيًا على صخرة، ظهره نحو السماء ووجهه في الجدول. نادا عليه، لكن لا جواب. ذهبا نحوه قلقين، فوجدا آمودا. لقد سقط على الصخور وكسر جمجمته.

تشاور فرج الله كريستي وكاروس فرار فيما بينهما همسًا وكانا يبدوان قلقين. "تشير الطريقة التي يستلقي فيها إلى أنه وقع إلى الأمام، على بطنه، لكنه من غير الممكن أن يكون قد مات من السقطة، إذ إن هناك كسر شديد خلف رأسه".

لم أستطِع استيعاب ما قالوه، إذ كان غير منطقي على الإطلاق. "حتمًا لا

تقصدان أنه سقط نحو الأمام ومع ذلك استطاع أن يضرب رأسه من الخلف؟"

قال فرج الله: "هذا ما يبدو تمامًا. ولهذا يبدو غير منطقي. لقد صدم رأسه بقوة تجعل من المستحيل أن يستدير بهذا الشكل".

كان المعنى من ذلك صادمًا لنا في الوقت نفسه الذي عبر فرج الله بكلام واضح عما كنا نفكر فيه جميعًا.

"رأسه ضُرب من الخلف".

وكان ذلك أشد وقعًا حين قال كاروس فرار: "ولهذا يعني أن أحدنا قد قتل هذا الرجل".

"سيكون علينا أن نحدد أين كان كل واحد منا عند الفجر، عندما وقعت الحادثة".

قال مبروكي: "ربما كان غريبًا".

قال فرج الله: "غريب من أين؟"

قلت متذرعًا: "من غير الممكن أن يكون ذلك من فعل أحد منا. الأرجح بالتأكيد أنه وقع ولقي حتفه".

شعرت بالحر والبرد في الوقت نفسه عند التفكير في أن عليّ أن أقول أين كنت، إذ إنني كنت مع تاويكا. وكما لو أنه كان يقرأ أفكاري، جاء شيرانغو إلى جانبي وقال لي في صوت منخفض: "لا تقلق، يا معلم. كنت أصلي معكما أنتما الاثنين. جميعنا كنا نصلي معًا، ثم بعد مضي بعض الوقت، افترقنا، أليس هذا ما حصل؟"

نظرت إليه، وكانت في عينيه نظرة لم أستطِع فهمها. وانتابني إحساس بأنني أضع نفسي تحت رحمته، لكنني أبعدت هذا الإحساس عن بالي.

قال: "لا داعٍ للقلق. فأنا أيضًا أطارد فريستي الخاصة. لست الرجل الوحيد الذي يُسعد امرأة لا يسعدها رجلها".

شعرت بالبرد يصل إلى عظامي، وكما لو أنني اقترفت أقذر فعل، بيد أنني لم أرغب في أن أعلم ما كان يعنيه. علمت فحسب أنه أعفاني من مغبة الإفصاح عن مكاني آنذاك.

وحالما انتشر الخبر في المخيم أصبحنا ملتهفين لمغادرة المكان. كانت حليمة تشق السماء بعويلها، فرغم أن آمودا لم يكن الشريك الأفضل، إلا أن موته كان صادمًا.

وإذ كنا على وشك دفن آمودا، عاد شوما والآخرون بالأنباء أن علينا أن نأخذ جثمان الطبيب إلى يونيانيمبي.

وبينما كان الرجال يحفرون القبر، ويتأكدون من أنه محفور باتجاه مكة، كانت لايدي وتاويكا تسخنان الماء لكي يكون بمقدور المحمديين من الباغازي غسل جثة آمودا. كانت حليمة لا تقوى على المساعدة.

قاد سوسي وتوفيق علي ووادي سافينه المحمديين عندما تجمعوا حول جثمان آمودا وفركوا جسده بالماء ثلاث مرات.

قال سوسي: "يجب أن تفعل ذلك عائلة المتوفى، لكننا نصلح لذلك، إذ كان بمنزلة أخ لنا".

فعلوا ما في وسعهم برأسه الجريح، لكن كان جليًا أنه تنظيفه متعذر. ثم لفوه في قماش من أفتح لون استطاعوا إيجاده، من لفة قماش أمريكاني أغبر. كان مخصصًا للبيع، لكن لا أحد سيضنّ على آمودا المسكين به. لفّوه مرتين حول جسده ليصنعوا منه كفنًا بسيطًا، إذ لم يكن هناك المزيد من القماش بعد اللفة الأولى. ثم مددوه على فراش من العشب، واحتشدت الفرقة بأكملها لوداعه.

ورغم أنني أوضحت من خلال ما رويت هنا أنني لا أؤمن بالمعتقدات المحمدية، بيد أنني لا بد أن أعترف أنه ليس في وسعي إلا التأثر، فشعائر

الجنازة، على قصرها وبساطتها، فإن لها مهابة وجلالًا.

قاد وادي سافينه الصلاة. وفي صوت عذب مجلجل، نادى: "الله أكبر! بسم الله الرحمن الرحيم، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم. الله أكبر! الصلاة والسلام على نبيّك محمد. الله أكبر! اللّهُمَّ اغفر لأخينا آمودا وارحمه وعافه واعف عنه وأكرِم نُزله وأوسع مُدخلَهُ واغسلْهُ بالماء ونقِّه من الخطايا. اللّهُمَّ أدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار، وافسح له في قبره ونوِّر له فيه. الله أكبر".

جلجل صوته في الهواء ورفع الرجال جثمانه وحملوه إلى القبر المفتوح. وبهدوء وضعوه في الحفرة، مددوه على جنبه الأيمن ليقابل وجهه مكة. وضعوا التراب تحت رأسه، وتحت ذقنه، وتحت كتفه. ثم أهالوا عليه التراب وقال وادي سافينه: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى". ثم وضع الباغازي التراب عليه.

أرى جليًا لم لا يميل المحمديون للتحول إلى المسيحية، إذ ثمة جمال بسيط في طقوسهم. وحتى عندما لا يستطيع المرء أن يفهمها، ففي الكلمات بلاغة خالصة تدخل مباشرة إلى القلب. تصيبني القشعريرة عند التفكير كيف ستتحمل الفرقة فقدان أكثر قادتها جدارة.

ما إن دفن آمودا حتى بدا أن الأمور قد ازدادت تعقيدًا، فقد اختفى جون واينرايت. أخذ مبروكي ومونياسير مجموعة من الرجال للبحث عنه. لم يخفَ علينا أنه لم يكن سعيدًا لمدة، وفي الحقيقة قال توفيق علي إنه سمع أنه غادر عمدًا كي لا يحمل المزيد من الحمولة.

بِدا لي أن هذا التصرف ليس من عادته. صحيح أنه دائمًا كان من النوع الكسول، ويفتقد كليًا للروح الناسيكية، لكن أن يتركهم بهذه الطريقة دون أن ينبس ببنت شفة فهذا مفاجئ للغاية. بدا لي أن ذلك كان غير

ملائم بتاتًا. لو أنه ذهب، لما كان ذلك بهذا التكتم والمكر، بل لكان ذلك بطريقة يعطي فيها أهمية مبالغا فيها لرحيله.

انقسم الرجال إلى فرق صغيرة للبحث عن مكان وجوده، لكنهم عادوا جميعًا ليقولوا إنه لا أنباء جديدة عنه.

قال شيرانغو: "أليس من الواضح أن جون هو من قتل آمودا؟"

لم أتصور أن ذلك محتمل، لكن بالنظر إلى العلاقة المقلقلة بين الرجلين، فقد بدا الأمر مرجحًا. ثم انتابني بعد ذلك خوف جديد عندما تذكرت حوارنا الغريب خارج بلاد شونغو: أنه ربما لم ينهِ حياة رجل فحسب، بل اقترف أعظم ذنوب اليأس وأنهى حياته هو. شعرت بثقل في صدري وأنا أراه في ذاكرتي قبل بضعة أشهر من وصولنا إلى هذا المكان، يقف على جانب نهر لوفو، وهو يحدق في مياهه، متمنيا أن يستطيع اتباعه إلى نهايته.

فعلنا ما بوسعنا لإيجاده، متيقن من ذلك. فلم نرسل مجموعات صغيرة في اتجاهات مختلفة لاقتفاء أثره فحسب، بل أضرمنا النار أيضًا في العشب حولنا، بحيث يمكن أن يرى الدخان. وكتدبير أخير، أمر مونياسير أن تطلق نيران المسدسات مرتين في اليوم لكي يسمعها إذا كان على مقربة.

لم يكن أي من ذلك كافيًا لنحصل على نبأ عنه، ولذا فإننا بعد خمسة أيام من البحث في جميع الاتجاهات، دون أي بشارة، عددناه بكل أسف مفقودًا، ثم شققنا طريقنا نحو يونيانيمبي. وحتى أصبحنا مستعدين للانطلاق، باتت الفرقة بأكملها مقتنعة بأن جون واينرايت قد قتل آمودا واختفى في إفريقيا الواسعة. ولم ينبس أحد ببنت شفة دفاعًا عنه.

18

16 تشرين الأول/أكتوبر 1873

المدخل الثامن عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها في كازه، وفيها تلتقي بعثة ليفينغستون ببعثة الملازم فيرني كاميرون ويُقام الحداد على جثمان الطبيب.

خيم الحزن على الفرقة. لقد كان آمودا حقًا **القلب الكبير**[13]، يذبح **وحوش اليأس والقنوط**، مركز بعثتنا، والرجل الضخم بضحكته وصوته، وقوته. وفي ليلة دفنه، جلست الفرقة حول نار واحدة كبيرة.

حتى أولئك الباغازي، أكثر من عانى تحت قيادته، والرجال الذين كان يوبخهم لبطئهم وكسلهم، عبَّروا عن عميق حزنهم لخسارتهم. وجدت حليمة المؤاساة في ماجوارا. وجلسا كلاهما صامتَين وهو يصقل طبله.

كاد موت آمودا ينسينا أن شوما جاء بأنباء عن الإنكليز، لكننا حالما دفنا آمودا، صرفنا أذهاننا إلى تلك المسألة. شوما ورفاقه الثلاثة وصلوا إلى المستعمرة العربية دون أن يؤخرهم أو يعيقهم شيء. وهناك وجدوا أن الرجال البيض كانوا بالفعل في بعثة لإغاثة الطبيب. لكن بدلًا من

13 Great Heart بطل قصة كتاب (رحلة الحاج). (المترجمة).

ابن الطبيب اوزويل ليفينغستون وجدوا أن من يقود الفرقة ملازم يدعى كاميرون، فوضع شوما في حوزته الوقائع الرئيسة لموت الطبيب ليفينغستون من خلال إطلاعه على الرسالة التي كتبتها.

قال شوما إن هناك ثلاثة رجال بيض في فرقته. الملازم كاميرون يسافر مع ملازم آخر، وهو رجل يدعى مورفي، وطبيب يدعى ديلون. أبلغنا شوما أن الرجال الثلاثة سألوه كثيرًا من الأسئلة، وفي الواقع بكثير من التشكك. لأنهم اعتقدوا أن معرفته بلغتهم لا تضاهي معرفتهم، أوضحوا في حضوره أن علينا "أن نُلعـ*** إلى" مع "المهمة اللعـ***" لبعثتنا، وأرجو أني لم أجرح إحساس قرائي المستقبليين بتضمين هذه الكلمات، فهي الكلمات ذاتها التي استخدموها. وهكذا لم يكن شوما متفائلًا فيما إذا كانوا سيرافقوننا إلى الساحل أم لا. وقد افتروا فوق ذلك افتراءات حول ما إذا كان ما نحمله هو جثمان الطبيب ليفينغستون بالفعل.

عند هذا النبأ، قال كاروس وفرج الله على الفور أنهم اعتقدوا أنه ستكون هنالك شكوك كهذه، حتى لو وصلنا إلى الساحل، لكنهما كانا على يقين من أي فحص شرعي صحيح لجثة الطبيب سيبين دون شك أنه الطبيب حقًا، وستكون الجروح التي تعرض لها في حياته واضحة، وعلى وجه الخصوص ذراعه المكسورة التي أصيبت عندما تعرض لهجوم أسد عندما كان شابًا في أرض باروسته. لكن فحصًا كهذا قد لا يمكن إجراؤه في البرية، لذا تحمسنا لما يمكن أن يكون الإجراء الذي سيوصي به الرجال البيض.

شعِرت الفرقة بأكملها بخيبة أمل كبيرة عندما علمنا أن خبر وصول السيد أوزويل ليفينغستون كان كاذبًا. ولكن مع ذلك، فقد كان علينا أن نسير بالجثمان إلى كازه.

والآن تم الجزء الأكبر من مهمتنا. وشققنا طريقنا نحو مستعمرة كازه المعروفة، حيث التقى بنا مستضيفون عرب مع عبيدهم. وما دامت حليمة تملك بعض الشكوك حيال ما ينتظرها في كازه، فقد ظلت صامتة. لا أعلم سوى القليل عن الحب بين الرجل والمرأة، وأشك في أنها شعرت بالحب تجاه آمودا. لكن حتى قلبها الوثني قد تلقى صدمة كبيرة بموته. سررت لرؤية تاويكا تقف إلى جانبها وتواسيها.

شعرنا هنا بالفعل بقوة الرجل الأبيض، إذ لم يعد من الضروري أن نخفي ما نحمله. وفي كازه قابلنا أنا وقادة البعثة الرجال الثلاثة. كان كاميرون رجلًا ضخمًا وحول وجهه شعر كثيف وله عينان صغيرتان جدّيّتان.

يمكنني أن أرى أن الطبيب ديلون، وهو رجل ضئيل مستدير البنية أحمر الوجه، لن يمضي قدمًا في هذه البعثة. كان مورفي رجلًا هادئًا يحيل كل شيء إلى كاميرون، الذي بدا واضحًا أنه قائد الفرقة. عبر الملازم كاميرون عن تشككه فيما إذا كان من الضروري المخاطرة في أخذ جثمان الطبيب إلى بلاد يوغوغو. واقترح أنه من الأرجح أن الطبيب قد شعر برغبة خلال حياته في أن يُدفن في البلاد نفسها التي ترقد فيها زوجته. أليس من الأفضل أن يُدفن في إفريقيا على أن نتابع مهمتنا إلى الساحل؟

كان ممكنًا لنا عندئذ أن نسلم الجثمان هناك، وأن ندعهم يفعلون ما يشاؤون به، لكننا عندما تشاورنا كنا جميعًا نفكر في رفاقنا الذين هلكوا.

هل ضحوا لنكافأ تضحياتهم بأن ندفن الطبيب هنا في كازه، أن نفعل ما كان بإمكاننا أن نفعله منذ بداية الرحلة؟ فكرت في جميع الرجال الذين قضوا نحبهم والنساء أيضًا، وجون واينرايت الذي اختفى دون أي أثر، فكرت في شيزه وتارو، اللذين قتلا بسهم في شاونده. وفوق كل شيء، فكرت في آمودا، رفيقنا القوي الذي استطاع بحكمته أن يرشدنا إلى حيث نحن الآن.

يسرني القول إن الآخرين نظروا إلى الأمر على النحو ذاته. ما زال بعض الرجال يتكلمون عن المكافأة التي تنتظرنا في زنجبار، لكنه كان جليًا لمعظمنا أنه بمكافأة أم من دون مكافأة، لم تعد تلك رحلة الطبيب الأخيرة، بل رحلتنا أيضًا. لم يعد الأمر متعلقا بالطبيب فحسب، بالصواب والخطأ في أن نعيده إلى وطنه، أو أن ندفنه هنا أو هناك، لقد بات الأمر يتعلق بكل ما كابدناه. رفاقنا الذين هلكوا. لأجلهم، ولأجلنا جميعًا، قطعنا عهدًا أن نظل متمسكين بقرارنا الأول، أنه من الصواب رغم كل شيء أن نعيد الطبيب إلى وطنه.

غضب الملازم كاميرون جدًا لهذا القرار، وعبر عن ذلك بكل وضوح.

قال: "اللعـ*** على عنادكم. افعلوا ما تشاؤون. لن أتدخل بعد الآن في أي من هذا. أنا أغسل يدي".

ولأنه لم يعد في حاجة لأن يشغل نفسه بأمر الطبيب ليفينغستون، قرر مواصلة رحلته إلى الداخل. بيد أنهم ألحوا علينا لكي يتفحصوا الصناديق. وكما رويت، لقد حملنا كل شيء في شيتامبو: الكتب، والأدوات، والقماش، وكل ما سيكون ذا أهمية عبر الزمن لكونه متعلقًا بالطبيب في ساعاته الأخيرة.

ثم أصر على فتح صناديق أدواته. وكان عليَّ أن أطلب من الناسيكيين أن يخرجوا القسم الرئيس من أدوات الطبيب لمعاينتها.

كان شوما على وجه الخصوص أكثر من شعر بالغصة لتسليم الأدوات: البارومترات المعدنية، والبوصلات، ومقياس الحرارة، والسدسيات، فقد كان تِلميذ الطبيب لمدة طويلة إذ كان يعرفها واحدة واحدة ويتعامل معها كأنها أدواته، فهي كانت الأدوات التي كان يستخدمها الطبيب في مشاهداته على مدى سبع سنوات.

ورغم أن هذا النهب كان مؤلمًا لنا إلا أنه كان له الفضل في تخفيف حمولتنا على نحو واضح. أما أكثر ما أقلق سوزي وشوبيره هو عندما وجه كاميرون اهتمامه نحو المسدسات التي يحملها العسكر. فقد أراد عشرة منها، وخمس بندقيات، بالإضافة إلى معظم الذخيرة. ولم نكن قادرين على أن نقنعه بعكس ذلك. فقد قال إن خيارنا هو مواصلة الرحلة، وأنه لا حاجة لنا للمسدسات.

عندئذ طلبنا منهم مقابل الأسلحة بعض البضاعة لنتاجر بها في طريقنا نحو الشرق، فقد كانت مواردنا شحيحة.

قال إنه لا شيء عنده ليعطينا إياه، فهو يحتاج إلى إمداداتنا لنفسه. أن يتركنا دون حماية ودون مؤونة بهذه الطريقة! سأترك للقراء أن يروا ما يروه في هذا الرجل، فلن أقول حرفًا زائدًا حول هذا الموضوع. فلينتقم منه رب السماوات، يقول الرب، لي النقمة أنا أجازي.

اجتمعنا محبطين لنقرر متابعة طريقنا. ونحن معًا، جاء رجل عربي ذو عينين صفراوين وأسنان برونزية لم نرَ مثل لونها في إنسان وأمسك كُمّ سوزي، وقال: "لدي شيء أريك إياه".

تبعناه بفضول أنا وسوزي وشوما إلى بيت صغير في آخر صف البيوت. ومن خزانة كبيرة، أخرج أربع حزم كبيرة من القماش الأمريكاني.

قال إن الطبيب تركها في طريقه هناك، احتياطًا. قال إن الملازم كاميرون كان يهينه وأنه لا يرغب في أن يحظى بهذا القماش. فضحك سوزي وهو يصافح العربي بكل مودة.

كان ذلك كنزًا بالفعل، وكنا في غاية السرور لتلقيه. فقد ارتفعت معنوياتنا، لكننا ارتأينا أن نوضبه في اليوم الذي يغادر فيه كاميرون إلى الداخل لئلا يدّعي ملكيته كما ادعى ملكية الأدوات والمسدسات. في اليوم

التالي، افترقنا عن فرقة كاميرون، إلا أننا وجدنا أنه رغم أن كاميرون قد خفف حمولتنا لكنه اثقل علينا بحمل لم نتوقعه، فقد ترك الطبيب ديلون وتعليمات لنا بأن نأخذه معنا إلى الساحل.

حالما انتشر نبأ انضمام رفيق رحلتنا الجديد إلى الفرقة، استطعت أن أرى على وجوه الجميع الشعور الوحيد الذي سيطر عليهم جميعًا، وهو الإحباط والخيبة لاحتمال انضمام هذا الرجل إلينا. لقد كان بإمكاني بالفعل أن أشعر بقلوبهم تنقبض غمًا.

ورغم أن الله خلق الإنسان على صورته، إلا أنه بحكمته اختار أن يكون لكل شكله الخاص. بيد أنه لا شك على الإطلاق في أن الشكل الذي وهبه للطبيب ديلون جعله غير مناسب البتة لبعثة كهذه.

لعلّه يشعر وهو على متن سفينة في عرض البحر- وهي الطريقة التي وصل بها إلى هنا - كأنه في بيته، خصوصا إذا كان مع الرحلة قاعة طعام فاخرة وطعام شهي يتناوله ليلًا على طاولة القبطان. على أن كل شيء يتعلق بهيئته، من وجهه الأحمر، وبطنه المستدير، ويديه الصغيرتين الممتلئتين، إلى عنقه المتورم المتعرق، توحي بأنه لم يكن ليتحمل أن يتجول في البرية الأفريقية. لكن كاميرون غادر في وقت مبكر إلى الداخل، ولم يترك لنا أي خيار في هذا الشأن، تمامًا كما فعل في مسألة الأسلحة وأدوات الطبيب.

وهكذا انضم إلينا الدكتور ديلون في ذلك الصباح عندما غادرنا كازه.

19

22 تشرين الأول/أكتوبر 1873

المدخل التاسع عشر من مذكرات جاكوب واينرايت، كتبها خارج يونيانيمي؛ وفيها يثبت الطبيب ديلون أنه رفيق سفر أثقل من طفل مشاكس.

إذا كان تقدمنا بطيئًا قبل انضمام الطبيب ديلون إلينا، فإننا الآن نسير كالحلزون. يؤسفني القول إن شكوك الفرقة برمتها حول إمكانية مرافقة الطبيب ديلون لنا في الرحلة قد أثبتت أن لها أساسًا من الصحة. فقد أصبح الآن عبئًا أتمنى أن يكون بمقدورنا - مثلما فعل المسيحي والمفعم بالأمل[14] في(رحلة الحاج) - أن نتركه يمضي في أرض تحرير الأعباء[15].

بات جليًا الآن لماذا لم يرغب الملازم كاميرون في أن يواصل السفر معه، فالطبيب ديلون رجل صعب المراس. لقد خسرنا جون واينرايت، صحيح، لكننا استبدلنا به الطبيب ديلون، وهو أسوأ رفيق سفر حتى الآن، فرغم أن المسكين جون كان يتباكى ويشتكي ويتمارض، إلا أن الطبيب ديلون يعرقل

14 Hopeful

15 Place of the Unburdening

بالفعل كل شيء.

عندما لا يكون متلكئًا في الخلف، أو يرفض المسير، تراه يمطر آذاننا بشكاوى لا تنتهي عن الطعام والطقس، وعن الحشرات وضجيج الحيوانات في الليل، وعن ضحك الأطفال في النهار، وغناء الرجال أثناء المسير. وفوق كل ذلك، لا يستطيع تحمل صوت طبل ماجوارا أو جاري شيرانغو.

وبعد أن قرر - كما هو صحيح - أن إنكليزيتي هي الأفضل بين من هم في الفرقة، فقد كانت هذه الشكاوى تهطل عليّ. إذ روى لي بالتفصيل الممل رحلته على متن سفينة جلالة الملكة Enchantress، السفينة التي حملته إلى زنجبار، وعن الحمى التي أصابته مرارًا فوق التربة الإفريقية، وعن الزحار والملاريا التين عانى منهما.

كان طبيبًا لمريض واحد، وهو نفسه، ورغم أن خدماته لنفسه كانت تجري بعناية بقدر وفرتها، إلا أن هيئته تبدو أضعف من أن تتحمل هذه المناخات. إن رفيقًا كهذا مِن أسوأ مَن يسافر المرء معه، خصوصًا أنه يشعر أنه سيد الجميع، كما لو أننا في بعثة ديلون لا بعثة ليفينغستون.

في صبيحة اليوم الذي انطلقنا فيه، رفض النهوض عندما نادانا ماجوارا للاستيقاظ. قال إن الوقت باكر جدًا، ففي فرقتهم، لا يبدأون السير إلى بعد أن يكون العشب قد جف من الندى. وحتى مع ذلك الانطلاق المتأخر، كان علينا أن نتوقف في وسط النهار الأول لمسيرنا لفترة طويلة. ففي فرقتهم، كما يقول الطبيب ديلون، لا يسيرون سوى حتى وقت الغداء. وهذا ما كان كافيًا ليجعل حليمة تصدم بمثل هذا الكسل.

بعد يومين من المسير من كازه، قال إنه عاجز عن المسير، وطلب أن يُحمل في نقالة. قال إن قدميه متورمتان، ورجليه عاجزتان عن حمل جسده. فأحدث طلبه هذا موجة من الغضب بين الرجال، وقالت لنا حليمة

وتاويكا رأيهما في أن الرجل ليس مريضًا بقدر ما يبدو.

خشيت ألا ينسجم مع شيرانغو الذي حمل النقالة في المقدمة، وماريكو شاندا الذي حملها من الخلف. فأثناء مسيرنا ارتطم شيرانغو بحجر وتعثر، فاهتز الطبيب ديلون في النقالة، فصفعه صفعة أدهشتنا بقوتها. لكن شيرانغو بدا غير منزعج، وابتسم وانحنى، ثم رفع النقالة وسار بقوة إلى درجة أن ماريكو شاندا اضطر إلى أن يجري للحاق به.

طلب سوزي من شيرانغو أن يعطي النقالة إلى باغازي آخر، لكن شيرانغو بدا مصرًا على تعويض الهزة التي شعر بها الطبيب ديلون بسببه، فرفض ذلك وهو يبتسم له. لا بد أن قدرة الله قد فعلت فعلها في شيرانغو، ومن خلاله يتجلى تواضع الرب.

كان وجود الطبيب ديلون يلهينا عن مشكلات أكبر. فكما قلت في مدخل سابق، لم يأخذ الملازم كاميرون أدوات البوانا له فحسب، بل استولى أيضًا على نصف مسدساتنا وكل ذخيرة العسكر تقريبًا. ومن بين العشرين مسدسًا الذي نحمل، لم يترك لنا سوى عشرة، إلى جانب ثلاث بندقيات.

لم يعد خافيًا أننا كنا عزّل كليًا. ولم يعد في مقدورنا كذلك أن نخفي مهمتنا الحقيقية. أن نحمل جثة رجل، ورجل أبيض فوق ذلك، لا بد أن يثير العداء ضدنا.

وصلنا بعد مدة وجيزة إلى مجموعة من القرى التي كنا نرجو أن نتاجر معها، وقد تُركنا لندافع عن أنفسنا بالحيل فحسب. لقد كانت أنباء حملنا الكئيب قد وصلت إلى أول قرية وصلنا إليها. أعرضوا عنا. ثم سرنا إلى قرية ثانية، وهناك أعرضوا عنا أيضًا. احتججنا بأننا مجرد فرقة من التجار، لا نحمل سوى البضاعة، لكنهم لم يصدقونا.

واصلنا المسير إلى أن وصلنا إلى قرية كاسيكيرا. واختلقنا لأهل القرية

كذبة أننا أصغينا إلى الرجال الإنكليز وتخلينا عن حمل جثة الطبيب، إذ غيرنا رأينا وأرسلنا الجثة إلى يونيانيمبي لتُدفن هناك. وهكذا سمح لنا أهل القرية دون خوف بأن نأتي ونحتل بعض الأنحاء في المدينة، وهو ما لم نحظَ به طويلًا، لأنه كان معروفًا عنا أننا نحمل بقايا رجل ميت معنا.

ظل الطبيب ديلون يسبب لنا المتاعب. ففي عشية مغادرتنا كاسيكيرا، خيمنا قرب نهر جار. وحالما تناول وجبته، أمر أن تنصب خيمته واختفى داخلها. جلست بقية الفرقة حول النار في الليل، تصغي إلى موسيقا طبل ماجوارا، ترافقه جاري شيرانغو.

كنا غارقين في الموسيقا فلم نسمع الطبيب ديلون يغادر خيمته. لم نره إلا أن تحدث إلينا قائلًا: "ألن توقفوا هذا الصخب الجهنمي؟ أكاد أعجز عن سماع نفسي بينما أفكر".

مشى مترنحًا نحو شيرانغو وتناول الجاري وحطمه على الأرض. انكسر الخشب الخارجي إلى ثلاث قطع، وسقطت اللوحة بمفاتيحها المعدنية محدثة طنينًا. ثم تناولها عن الأرض وقذف بها في النهر. وقفنا جميعا صامتين وهو يثور. وبعد أن شفى غليله، أدبر عائدًا إلى خيمته.

قال كاروس فرار: "أخشى أنه أصيب بالحمى".

لم يقل شيرانغو شيئًا، وقف ينظر إلى النهر الجاري، كما لو أنه ينظر أين سقطت آلته الموسيقية. ورغم أننا خضنا النهر لنبحث عنها فجر اليوم التالي، ورغم أنه غطس في أنحاء عديدة قدر المستطاع، إلا أنه لم يستطع إيجادها. وبدلًا من ذلك أخذ القطع المكسورة والمطلية من الخشب التي بقيت منها وحزمها مع أشيائه.

20

28 تشرين الأول 1873

المدخل العشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، كتبه خارج كاسيكيرا، حيث يدخل واينرايت وادي الذل[16].

الظلام.. الظلام.. الظلمة واليأس يلفان كل شيء.. أنا في قبضة وحش اليأس يقيدني بكل قوة. أنا مكبّل في قلعة الشك. لقد ارتكبت الآثام بحق نور العالم، بحق إحسان الرب. بتّ أشك حتى في خلاصي. لقد أغضبت الروح القدس، وها هو يفارقني. لقد أغريت الشيطان وها هو في طريقه إلي. وكعادته استخدم وسيلته المرأة، حواء الآثمة، جيزابيل المرائية، أهوليبة الخائنة، أهولة العاهرة. لقد خدعتني مثلما خدعت دليلة شمشون، ومثلما خدعت جيزابيل آهاب، ومثلما خدعت حواء آدم.

فأنا في نهاية المطاف لم أكن في أرض بيولا، إنما كنت عالقًا في الأرض المسحورة، في دار الغرور في المكان الذي جعلتني فيه ساحرة أضل طريقي، هذا هو اليأس الذي أشعر به. نادى مبروكي قادة البعثة جميعًا ليعقد مشاورات عاجلة، إذ نقل له ماريكو أنباء ذات شأن. قال إنه يود أن يناقش مسألة

16 Valley of Humiliation

في غاية الأهمية فهناك ما تسبب له بالخزي والعار، إن أحد أفراد المجموعة كان يضاجع امرأته تاويكا تحت جنح الظلام. ووجه نظره إلى المكان الذي كنت أجلس فيه مع الناسكيين الآخرين وأشار إليّ بإصبعه.

أغمضت عيني ورحت أصلّي، لم أكن أدرك كم كان ذلك اليوم حارًا. بدأت جبهتي تتصبب عرقها وقبل أن يقول أي شيء آخر ركضت تاويكا ووقفت على بعد مترات قليلة من مبروكي وقالت وهي تنظر نحوي: " هذا صحيح". شعرت كأن عيونهم جميعًا كانت تنظر إليّ.

ثم قالت: "لقد اخترت كاروس".

فتحت عيني ورأيت أن كاروس فرار نهض ليقف بجانبها.

"لقد اخترت كاروس وأنا أحمل ابنه". لبرهة شعرت كأن الحياة تجمدت في عيني، مبروكي مذهولًا، وكاروس محترزًا. أغمضت عيني مجددًا وأنا أشعر كما لو أن رمحًا شق خاصرتي. أكملت تاويكا حديثها: "نعم! كاروس هو من أريد، ولا شيء يمكن أن يثنيني عن قراري. إنني امرأة حرة، أليس كذلك؟ أنا لست أمة. أنا لست حليمة".

انفجرت حليمة غضبًا: "أليست الأمة إنسانًا؟" ردت نتاويكا عليها قائلة إن هذا الأمر لا يتعلق بها شخصيًا، وأن كل ما قاله الجميع لن يغير ما تشعر به تجاه كاروس.

هربت من الأصوات المتشاجرة ومشيت باتجاه جدول الماء. ارتفعت أصوات صراخهم وكانت تُسمع وكأنها تصدر من مكان بعيد. لا أعلم كم من الوقت أمضيت واقفًا هناك بمفردي لكنني أعلم أنني بدأت بالتقاط أنفاسي وكأنها طعنات مؤلمة في البداية وبعد ذلك كانت أنفاسًا طويلة تملأ كياني بالمعاناة. لم أستطع أن أرى أي شيء حولي بسبب الغشاوة التي

أعمت عيني، ورغم أني لم أعد أسمع صوتها إلا أن كلماتها كانت ترن في رأسي، أنا اخترت كاروس. هي اختارت كاروس.

كانت واقفة في طريقي وأنا أبتعد عن جدول الماء، رفعت يدي كي لا أراها ولكنها وقفت في طريقي وقالت: " أنا لا أستطيع أن أكون الشخص الذي تريدني أن أكونه".

أكملت المشي وكأنني لم أسمعها. "وأنت تعلم ما الذي جعلتني أقدم عليه، ما الذي طلبت مني فعله، كيف أستطيع أن أحب رجلًا مثلك؟"

توقفت ونظرت إليها دون أن أنبت ببنت شفة.

"قال شيرانغو إني سأضاجعه بطلبٍ منك!"

توقف قلبي وأحسست أن معنى ما قالته كان مثل الصفعة، ثم أكملت: "سأتزوج أنا وكاروس وسنسافر لنعيش في الرأس، وسأتعلم الإنكليزية".

طغى ذلك الاسم على بقية كلامها فلم أستطِع سماع شيء آخر! لقد اختارت كاروس فرار. كادت الأفكار بخصوص علاقتها مع شيرانغو تملأ رأسي إلا أنني أرغمت نفسي أن أفكر بعلاقتها مع كاروس فارار، ومشيت بعيدًا بينما أكملت هي الثرثرة والتكلم عن خططهما. يخطط هو وفرج الله أن يطلبا من الطبيب كريستي في زنجبار أن يساعدهما لكي يتدربا في مهنة الطب. لقد وعدها أن يشتري لها الكثير من الفساتين وأن يعيشا حياة ملؤها اللهو والعبث. أكملت قائلة: "ليس بيدي حيلة، فأنا أحمل طفلًا، وذلك الطفل يجب أن يكون له أب".

كلا.. ليس بيدها حيلة.. ولا يمكنها إلا أن تكون جيزبيل الخادعة. كلا.. ليس بيدها حيلة فهي ابنة حواء وأخت جيزبيل المغرية. إنها السامرة، أهولة، وأهوليبة، إنها جميع عاهرات أورشليم. ليس بيدها حيلة. لقد زنت ولا تستطيع أن تكف عن تدنيس نفسها مع رجال لحمهم كلحم الحمير

ومنيهم كمني الخيل. لا.. ليس بيدها حيلة.

أنا متأكد أنها وكاروس يضحكان عليّ. فقصة شيرانغو مجرد هراء، بالطبع إنها هراء، إنها شيء اختلقته.. نعم من الممكن أن تكون كذلك. إنه أول شخص تحول إلى المسيحية على يدي وأعلم من صميم قلبي أنه لن يفعل شيءا كهذا! ولتجمّل اسمها واسم عشيقها أمام الناس لن تتردد بأن تشوه اسم مسيحي.

لطالما عرفت أن كاروس يمقتني ويمقت مواهبي، كنت أعلم أنه وصديقه فرج الله لا يحباني لأنني أصغر منهما سنًا ولكنني كنت الطالب المفضل في المدرسة. هو يستاء من أنني أتكلم لغة الطبيب بطريقة أفضل مما يمكن أن يتكلمها يومًا، وأنني أقرأ الكتب نفسها وأعلم بماذا يفكر الطبيب أيضًا.

إنه أكبر مني بعدة سنوات ولذلك فمن المؤكد أنه كان يحسدني لأنني أصبحت محل ثقة الطبيب وأنا أصغر منه بكثير! وها هو الآن سيصبح طبيبًا وسيتدرب في مجال الطب تمامًا كما تدرب الطبيب، لكن ذلك لم يكن كافيًا.. بل كان أقل من أن يكفيه! فشؤون الروح ليست كشؤون الجسد، فهذا الجسد ليس سوى قشرة خارجية وهذه الأرض ليست مدينتنا الدائمة ولكننا نبحث عن منزل بعيد، منزل نذهب إليه بدون أجسادنا التي سنتركها هنا على الأرض، منزل تحلق إليه أرواحنا الخفيفة. وإن كان هو يعرف كيف يشق الجسم البشري فأنا أعرف كيف أصل إلى أعماق روح الإنسان. في ذلك المساء وبعد وجبة العشاء التي لم أستطع تناولها جاء كاروس إلي وأنا جالس مع الناسكيين الآخرين. وقفت ونظرت إليه نظرة حادة، بينما كان الآخرون يمازحونه ويسخرون. "مبروكي يتعامل بمرونة مع الأمر.

أفترض أنه من حسن حظي أنه غير قادر على اتخاذها زوجة له".

مشيت بمحاذاته وقلت له: "المعذرة، لديَّ الكثير من الأمور المهمة لأفكر بها بدلًا من التفكير في أي سرير ستنام العاهرة هذا الأسبوع".

وفي طريقي إلى حيث لا أدري، قابلت شيرانجو الذي ألقى عليَّ السلام متبسّمًا. تابعت طريقي بمفردي ونار كرهي تضطرم.

21

18 تشرين الثاني 1873

المدخل الواحد والعشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، إذ يحل العيد المحمدي ويرتدي واينرايت درع الرب ويتجهّز لمعركة ضد سلاطين أبوليون وممالكه.

يَهْوَهْ يِرْأَهْ. الله هو المدبّر، يَهْوَهْ يِرْأَهْ، المسيح نصيري وفضله يكفيني، فضله يكفيني، نعم! يكفيني! فضله يكفيني! سأردع شهواتي وسأكتب على قلبي بدم الحروف **سولا فيدي، سولا غراتيا، سولا سكريبتورا.** وبنار الروح القدس سأكتب هذه الكلمات على روحي: بالإيمان وحده، بالنعمة وحدها، بالكتاب المقدس وحده.

فضله يكفيني، إيمانه يكفيني، خلاصه يكفيني. سأصلي مع الروح القدس. سآكل مع الروح القدس. سأمشي مع الروح القدس. لأن هذه المعركة ليست معركة اللحم والدم.

إنها معركة تتعلق بسلطات الشر وممالكه. سأقاتل في هذه المعركة من أجل إلهي ومليكي ضد كل قوى الظلام في العالم وضد قوى الشر الروحية، لأنها أرسلت المرأة الغاوية. أرسلت إليّ أهولة وأختها أهوليبة اللتين

تبحثان عن إغواء الرجال الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل. لقد أرسلت إليَّ المرأة التي تشبه جيزابيل التي همست في أذني تحت جنح الظلام كما همست الأفعى في أذن حواء ثم همست في تلك الحديقة ثانية. وكانت السبب في هبوط الإنسان.

سأحارب مكايد الشيطان، سألبس سلاح الله، وبه سأواجه أبوليون، الشيطان العاري ذي الذيل، العدو اللدود لكل ما هو طاهر نقي. لن يهزمني إبليس ولن يهزمني بعل زبوب. فحَقْوي مُمنطق بالحق، وعلى صدري لابس درع البر. وحاذي رجليّ باستعداد إنجيل السلام. آخذ خوذة الخلاص، وحامل ترس الإيمان وسيف الروح. وسأتصدى بصلابة لسهام أبوليون المشتعلة.

وهكذا يقول الرب يهوه لي، لا تخف لأني فديتك. دعوتك يعقوب. أنت لي. ذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تحرق واللهيب لا يدمرك. لأني أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل، مخلّصك.

سأصلي مع الروح القدس وآكل مع الروح القدس وأشرب مع الروح القدس وأنام مع الروح القدس، ولذلك سأنتصر ولن تأكلني النار لأنني غُسلت بدمائه. لن تلتهمني النار لأنني تطهرت بحبه. سأنتصر، باسم مخلصي، سأنتصر.

وقريبًا لن تكون إيزابيل الفاسدة التابعة لأبولون سوى ذكرى عابرة بالنسبة لي. ستصبح ذكرى تمامًا كما أصبح العم الذي باعني في سوق العبودية، ستصبح ذكرى مثل ذكرى السياط التي جعلتني أمشي نحو الساحل وأنا أنتحب وأبكي، ومثل ذكرى المركب الشراعي الذي عبر بي في الأمواج العالية المرعبة، مثل ذكرى الأشخاص الذين كانوا يقفزون في المياه بينما

كانت السفينة العظيمة تدنو منا. كل هذه الأحداث ليست سوى ذكريات بالنسبة لي الآن. أنا وريث الخلاص. أنا مغمور بنعمة الرب ومؤمن بحقيقته.

سأصلي مع الروح القدس، وأمشي مع الروح القدس، وأعيش مع الروح القدس. سأنتصر ومثل المسيحي في (رحلة الحاج) سأدخل المدينة السماوية وأمشي مع أولئك المنوّرين. سأجتاز هذا كله وستُنفخ أبواق النصر لأجلي في النصف الآخر، ستُنفخ الأبواق.

22

30 تشرين الثاني/نوفمبر 1873

المدخل الثاني والعشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، وفيها يحتفل بولادته الجديدة ويخرج من فترة السبات ويكرس نفسه مجددًا لخدمة الرب الذي يجمع في تجسده كل الأشياء الأرضية والسماوية.

ظللنا نتجول لأيام في غابة كثيفة حيث كان الملاذ الوحيد هو أن نجلس تحت الأشجار. لا أعلم أين نحن بالضبط سوى أننا في منطقة ما بين يونيانيمبي وباجامويو، ولا يهمني أن أسأل حتى. وعندما خرجنا من الغابة وصلنا إلى سهل واسع خالٍ.

وبين الغابة والسهل، كنا نتقدم ببطء، لأن الطقس كان في أسوء أحواله. كان المطر ينهمر بغزارة. وكانت أفكاري مشوشة ومظلمة مثل السماء الملبدة بالغيوم فوقنا، وكان رأسي ثقيلًا بليدًا، كما لو أنني أوقظت من سبات عميق قبل أن أغرق مجددًا في غيبوبة، لأستيقظ وأنا أحتج وأعترض.

آكل عندما يأكل الآخرون وأمشي عندما يمشون وأنام عندما ينامون، رغم أن الطعام لا طعم له والأرض تبدو كما لو أنها تعوم تحت أقدامي. أحلامي موبوءة برؤى مروعة لنساء عاريات. وعندما أمشي، أو أتكلم،

أبدو كأنني في ذهول أو أنني استيقظت للتو من كابوس مرعب. عندما يتحدثون إليّ أشعر وكأن الأصوات تصدر من مكان بعيد جدًا وتبدو لي الأشياء على غير ما هي عليه في الحقيقة.

عندما أكون خارج أوقات المسير، وأحيانًا حتى عندما نسير، أجد نفسي تحت وطأة تعب مضنٍ وأشعر بنفور بالغ من أي عمل أو تفكير. ولهذا السبب لم أكتب أي شيء في هذه اليوميات.

حتى طريقة ارتدائي للملابس تغيرت، وهأنذا أرتدي ثياب النوم في النهار. أشعر وكأن البدلة الرسمية ثقيلة في هذا الحر، وعندما تمطر تتدلى فوق جسدي وكأنها لعنة مبللة. بدأت مؤخرًا بارتداء عمامة على رأسي لحمايته من الشمس وكان هذا المنظر يُسعد حليمة فارغة الرأس التي كانت تصر عندما تنظر إليّ على أن تدعوني محمديًا قُحًّا.

كان هذا التعليق ، مع رؤية انعكاس وجهي في جدول، هو ما أيقظني أخيرًا. أهاتان عيناي؟ بكل هذا التعب وهذا الهمود؟ أهذا فمي المكتئب؟ أرغمت نفسي على حمل القلم على الرغم أنه أصبح ثقيلًا في يدي، وعندما كتبت تاريخ اليوم تذكرت أن هذا اليوم هو عيد ميلادي.

كلا، إنها ليست لي.

ولن أحظى بها يومًا.

لكن لي حريتي.

لي حياتي.

لي المسيح.

لن تلتهمني النار ولن يسيطر اليأس عليّ. حملت قلمي في هذا اليوم، أكثر الأيام بركة، لأشكر الرب في السماوات على الحياة التي منحني إياها وصليت ليغمر الرب ببركته كل الرجال الذين أبحروا على متن ***SS Daphne***

في يوم خلاصي منذ عدة سنوات.

أصلي لينعم الرب ببركاته على الموقر واينرايت والموقر برايس والموقر إيزنبيرغ وأساتذتي جميعًا. أصلي لكل الصبية الذين بقوا في مدرسة ناسيك محررين من استعباد البشر. أدعو لكل الحجاج في هذه الرحلة الراحلين، والذين على قيد الحياة وأدعو لها، نعم لها! تلك التي لن تنطق شفتاي باسمها مرة أخرى، رغم أنها فطرت قلبي.

على الرغم أننا هنا بعيدون عن أي مستعمرة بشرية إلا أننا في مكان معروف، ففي كل مكان ننظر إليه نرى أكوام العظام تحت الأشجار وهي إشارة إلى أن العبيد مروا من هذا الطريق. أثرت رؤية هذه العظام الصفراء الرديئة في نفسي أعظم تأثير فصمت وصليت لمدة يومين ووجدت نفسي مع حزقيال في **وادي العظام الجافة**.

كانت عليّ يد الرب، فأخرجني بروح الرب وأنزلني في وادٍ مليء بالعظام، وقال لي: "أتحيا هذه العظام؟" والتفت إلى العظام وخاطبتها: "أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمات الرب، سيدخل الرب الروح فيكم فتحيون، ويضع عليكم عصبًا ويكسيكم لحمًا ويبسط عليكم جلدا ويجعل فيكم روحا فتحيون، وتعلمون أنه الرب".

ولهذا فإن هذا اليوم هو عيد ميلادي. في هذا اليوم أعدت تكريس إيماني للرب. في هذا اليوم أجدد بعثتي وأقسم له، هو الذي يرشد الضعفاء، وأنا منهم، أنني سأتجنب كل ما يشتت انتباهي، وأكرس نفسي مجددًا لخدمته.

في هذا اليوم، الذكرى السنوية الثانية والعشرين لوجودي على هذه الأرض أتعهد أنني سأفعل كل ما في وسعي لأستطيع الوصول إلى إنكلترا، وعندما أصل إلى هناك سأرسم كاهنًا وسيكون لي بعثتي الخاصة.

سأعود إلى مسقط رأسي وسأفعل ما بوسعي لأحارب السبب الذي جعل كل هذه الغابات مليئة بالعظام اليابسة. سأفعل ما بوسعي لأحارب هذا الاتجار الفظيع بالبشر الذي يحط من كرامة كل إنسان مرتبط به. سأحمي كل أولئك الأشخاص الذين باعوني في سوق العبيد ونبذوني منذ عدة سنوات.

لن تعلم أمي أن جاكوب وينرايت الذي يقف أمامها مليئًا بالمعرفة والعلوم الرائعة هو ذلك الكائن الصغير الذي أنجبته منذ عدة سنوات. لو أنها على قيد الحياة. لكنهم أحياء! أشعر يقينًا أن هذا هو قدري، ومهمتي أن أحمي هؤلاء الناس وأجلب لهم الخلاص تمامًا كما حصلت على خلاصي في هذا اليوم، يوم انبعاثي من جديد. هذه العظام اليابسة سوف تحيا.

23

25 كانون الأول/ديسمبر 1873

المدخل الثالث والعشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، وفيها تكتشف الفرقة نفاق أحد الرفاق الموثوقين ويلعن وينرايت التعامي المقصود من طرفه.

هل ستنتهي هذه الرحلة الخطيرة والشاقة؟ إننا نمشي مع الموت ونأكل مع الموت ونحمل الموت معنا أينما ذهبنا. نحن الآن نسير في غابة العبيد حيث يرقد المئات فوق المئات من الجثث الهالكة. تجد العظام في أكوام أسفل الأشجار التي كانوا مقيدين بها وتتدحرج الجماجم على طول الغابة عندما تهب الرياح وترتطم ببعضها البعض. حتى الأشجار يبدو أنها تبعث رائحة العفن والفساد.

إننا تحت رحمة العناية الإلهية، تقلبات الحظ تتحكم بنا. خلال الأسبوع الماضي كنت أحصن إيماني وأذكر اسم الرب وأنا أنشد أنتيفونة.

يا حاكم بيت إسرائيل.. يا من منحت الشريعة لموسى.. أنقذنا بقوتك الجبارة!

يا أصل يسّى.. يا علامة حب الرب لشعبه.. هلمّ أنقذنا يا رب!

أيها الفجر المشرق.. يا عظمة النور الأبدي.. يا شمس العدل.. أشرق فوق رؤوس هؤلاء الذين يسكنون الظلام وظل الموت!

واليوم.. من بين كل الأيام.. هو الأغلى والأثمن.. ففيه ولد الرب المسيح، أنادي، يا عمانوئيل، يا ملكنا ومانح الشريعة.. هلمّ أنقذنا أيها الرب. فها نحن ذا اليوم ندفن جثة أخرى ونكمل طريقنا مع هذا العبء المضني في هذه الرحلة الشاقة الطويلة. جثة الطبيب هي ما جلب الموت علينا. لوسي رحلت، كانيكي رحلت، سونغولو رحل، ميسوزي رحلت، شيزه رحل، تارو رحل، جون واينرايت رحل، آمودا رحل. وخلفهم اليوم رحل شيرانغو.

إننا نمشي مع الدم والعظام، إننا نمشي مع الجثث المشوهة، هنا في وادي ظل الموت نمشي مع الأسى والصراعات.

كربة الموت هي ما يوجهنا، لن نرى الأرض الموعودة، أرض الحليب والعسل. أتمنى لو أننا لم نحمل جثة الدكتور، أتمنى لو أننا سمعنا كلام المحمديين. لو أننا نفذنا ما قاله بنفسه ودفناه في أرض شيتامبو. لو أننا تركناه لتأكله الحيوانات البرية أو أن رميناه في واحد من هذه الأنهار التي كان دائمًا ما يحاول اكتشافها.

والحقيقة هي أنني أتمنى ألا أرى جثته محمولة على أكتف رجلين. فالثمن الذي بذلناه كان غاليًا، أغلى من أن يتحمله أحد!

24

10 كانون الثاني 1874

المدخل الرابع والعشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، وفيها تحل السنة الجديدة على الفرقة وهي ما تزال في رحلتها، ويهدد شبح الموت كل من فيها، ويجد واينرايت نفسه وجهًا لوجه أمام المتملق[17] والداهية[18].

لم أكتب أي كلمة منذ أن كتبت خاتمة المدخل السابق، وما برحت أصلي لأكفر عن ذنوبي وألا أسمح لوحش اليأس أن يسيطر عليّ. ورغم أني أتلو كلمات الرب وأصلي له هو الذي يشفي الجميع بحكمته وهدايته، ورغم أني أقرأ صلوات الموقر بين لمواجهة خطيئة القنوط التي بتّ الآن أحفظها عن ظهر قلب، إلا أنني ما زلت عاجزًا عن التخلص من ذلك الثقل الذي يكبل صدري.

بعد أيام من الجوع والمسير تحت المطر المتواصل، هجرنا أكثر من نصف الباغازي، آخذين معهم أثمن حزمنا، وغابوا في جنح الظلام، يقودهم - بلا ريب - آسماني الذي اختفى هو الآخر. بيد أن أحدا منا لم يحمل الضغينة تجاههم، فجميعنا يتمنى أن يهجر البعثة لو استطاع.

17 المتملق Flatterer من شخصيات كتاب (رحلة الحاج). (المترجمة).

18 الداهية Wordly Wiseman من شخصيات كتاب (رحلة الحاج). (المترجمة).

فها نحن ذا كنا نسافر وبيننا شر عظيم. كنا نخفي بيننا أفعى تنشر السم والدمار. ويا لخيبتي! يا لكربي! لقد كنت أنا من احتوى في صدره داهية. أنا من احتضن متملقًا بلسانه الملعون الذي يتكلم عسلًا ويقطر سمًا. أنا الذي عميت بصيرتي واتخذت المخادع صديقًا للروح. أنا من سمح للمتملق أن يستريح في ظل عنايتي.

في الليلة التي سبقت كتابتي لذلك المدخل البائس استيقظ تشوما ليقضي حاجته في مكان بعيد عن المخيم كنا قد خصصناه لهذا الغرض، كان ذلك بعد منتصف الليل بوقت طويل ولكن قبل الفجر وكان الجميع نائمًا، وعند عودته إلى مكان نومه سمع صوت صراخ مكتوم.

وكان الصوت يصدر من خيمة الدكتور ديلون. ذهب شوما في ذلك الاتجاه وبينما كان على وشك أن ينادي، ظهر شيرانجو من الخيمة وعندما رآه قال له: " لقد كنت أطمئن على الطبيب، كل شيء على ما يرام".

ارتاب شوما من سلوك شيرانغو وحاول أن يدخل الخيمة إلا أن الأخير وقف في طريقه، لكن شوما يفوقه حجمًا فشق طريقه إلى الخيمة ليقع بصره على منظر مرعب. كان الدكتور ديلون ممددًا على سريره وعيناه تجحظان وحنجرته مقطوعة بلا رحمة. بنظرة واحدة إلى شيرانغو أدرك شوما كل ما احتاج معرفته، ولو أنه لم يركض نحو الخارج ليصرخ صرخة أيقظت باقي أفراد الفرقة لكان من الممكن أن يلاقي مصير الدكتور ديلون ذاته.

لكنه صرخته كانت صرخة مدوية أيقظت الجميع. حاول شيرانغو أن يهرب بعد أن عمّت الفوضى المخيم بأكمله، لكن مونياسيره وآديامبري اعترضا له وأوقعاه أرضًا. حاول شيرانغو أن يهرب، وعيناه تتقدان شررًا، إلا أن الرجلين أمسكا به بقوة. مضى بعض الوقت قبل أن نستطيع أن نفهم ما الذي كان شوما يحاول إيصاله لنا، وعندما فهمنا كان الجميع يسأل السؤال

نفسه: "لماذا؟ كيف استطاع أن يقتل هذا الرجل؟"

أجاب شيرانجو: "لم لا؟ لماذا كان هنا؟ لماذا كانوا كلهم هنا؟ سأقتلهم جميعًا إن استطعت. وهو ليس الأول فقد قتلت قبله أكثر من شخص".

آلمتني معدتي بشدة عندما قلت: "آمودا" وكنت أظن أنني أهمس لنفسي، ولكن من المؤكد أن صوتي كان أعلى مما ظننت.

سأله سوزي: "هل قتلت أمودا؟"

فقال شيرانجو: "قتلت أشخاصًا غيره، لماذا جلدني؟"

قال شوما: "فعل ذلك بأمر من بوانا داودي".

بونا.. بداودي.. بأوام.. بونا بداودي.. بوانا بداودي.. هلّا استمعت لنفسك؟ كيف يمكن له أن يكون بوانا؟ كيف يمكن أن يكون بوانا أي أحد؟ وذلك الآخر! الذي يمتلك عيونًا تغلي! ذاك الذي تسمونه بوانا ستانلي، وها أنت ذا تتحدث عن بوانا ديلون أيضًا، بوانا.. بوانا.. كيف لأي منهم أن يكون بوانا بالنسبة لك؟

اختفى شيرانجو الذي كنا نعرفه بسلوكه المتواضع القريب من القلب، وبدلًا منه صار أمامنا ذلك الرجل الذي يتفجر غضبه ويهدد بأن يقضي علينا بتلك القوة. "بوانا داودي الذي تتحدث عنه كان محظوظًا لأنه مات في ذلك الوقت لأنني كنت سأقتله أيضًا كما قتلت لوسي وميسوزي وكانيكي، لقد قتلتهم جميعًا وكنت سأقتل حليمة أيضًا، ولكن الأمر نفسه بالنسبة لي".

صرخت حليمة: "أنت من قتل لوسي؟"

"علمت كانيكي أنني أحضرت السم من طبيب تشيتامبو، وقتلت جون وينرايت لأنه ساعدني على قتل آمودا".

"فعلت ذلك كله بسبب ذلك الرجل الذي تحملونه الآن بكل ذل.

من هو ذاك الرجل حتى يأتي إلى بلادي؟ ويدفن زوجته في أرضي؟ ستانلي وكاميرون وسبيك وغرانت.. من يكونون؟ من يكون كل واحد منهم؟ من يكونون ليذهبوا بحرية تامة لأيّ من أراضينا؟ ضربني ديلون ولم يفعل أي منكم أي شيء.. لا شيء.

لقد صفعني دون أي فائدة. حطم آلتي الموسيقية، ولم تحركوا ساكنًا. أخبرتكم أكثر من مرة ولكنكم لم ترغبوا بسماع كيف أن البرتغاليين أخرجوا أسلافي من أرضهم. أضاعوا مملكتي وسرقوا أرضي، وها هو كاميرون يدخل البلاد وسيلحق به العديد منهم، تذكروا كلماتي جيدًا. سيجدون منبع نهر النيل الذي يريد كاميرون إيجاده أو دعوني أقول الذي يريدون جميعهم إيجاده، وسيجدون منابع أنهار أخرى، وبينما يقومون بذلك سيكتشفون أن هناك أشياء أخرى يمكنهم سرقتها وسيطلبون منا أن نعبد آلهتهم وكأننا لا نملك آلهة لنعبدها".

تضخمت عينه الواحدة لدرجة أنها بدت على وشك الخروج من مكانها، وصرخ بصوت مليء بالحسرة: "انظروا إليَّ، انظروا إليَّ، انظروا إليَّ، أنا لا أملك شيئًا.. لا شيء.. خسرت عيني وأصبحت نصف أعمى، لماذا؟ بسبب سلسلة من الخرز؟ أصبحت أعمى لأنني أخذت سلسلة من الخرز من رجل لم يدفع لي لقاء عملي؟"

خلال الصمت المطبق الذي تبع كلماته نظر مباشرة إليَّ وقال: "وأنت أسوء شخص فيهم جميعًا، يا جاكوب وينرايت".

انقبض جوفي بينما حاولت جاهدًا إيجاد الكلمات المناسبة لأكذّب الأمر الذي كنت أعلم أنه سيحدث. أعاد وقال: "أنت الأسوأ، لأنك سمحت لهم بالدخول إلى روحك وكرهت نفسك وتخليت عن آلهتك لتعبد آلهتهم. احتقرت لون بشرتك وأنسابك وأردت أن تتشبه بهم في زيهم وكلامهم.

لكنك لن تصبح يومًا واحدًا منهم".

تنفست الصعداء، وكان عليّ أن أقول شيئًا ما لأوقف الكلمات التالية التي ستصدر منه. غير أني شعرت براحة عظيمة عندما ابتعد قادة البعثة ليتناقشوا فيما حصل بعيدًا عن أفراد المجموعة. كانت حليمة تبكي وتمسح دموعها بملابسها وكانت لايده وخديجة تواسيانها، بينما كان الآخرون يتداولون المعلومات التي عرفوها للتو بأصوات خافتة.

كان هناك إجماع واضح من القادة على أمر واحد هو أننا لا نستطيع أن نصطحبه معنا، هذا ما كانوا متأكدين منه، لكننا بالمقابل لا نستطيع تركه هنا إذ من الممكن أن يتبعنا ويقلتنا ونحن نيام، ثم إنه علينا الانتقام لأولئك الذين سفك دماءهم. وهكذا قيدناه بجذع شجرة بينما كنا نفكر ماذا سنفعل بشأنه، وكانت الليل طويلًا للغاية ونحن نتحدث حول النار.

قال مونياسيري: "يمكننا أن نتركه مقيدًا هناك".

قال فرج الله: "سيموت في غضون أسبوع تقريبًا لأن احتياطي الطعام سينفد من جسمه".

أما كاروس فقال: "أن نتركه بدون طعام أو شراب فهذا يعني أننا نتركه يموت ولا يمكننا فعل ذلك به لأننا بذلك سنكون مثل تجار العبيد".

لم أرد أن أوافقه الرأي، لكنني في أعماق نفسي رفضت فكرة تركه مقيدًا بجذع الشجرة. ربما ستمر قافلة مسافرين به كما مررنا بتلك الجثث والهياكل العظمية وسيعتقدون أنه واحد من أولئك العبيد الكثر المقيدين بالأشجار. كان مجرد التفكير بتركه هناك فكرة مريعة، فمن يعلم كم ليلة ستمر عليه قبل موته؟

بيد أننا لا يمكن أن نأخذه معنا. وكان هذا واضحًا للجميع، فأين سنأخذه؟ ومن سينفذ به حكم العدالة؟ هل ستحاكمه محاكم السلطان؟

أم محاكم القضاة؟

اقترح شوبيره أخيرًا خطة. إذ كان هناك عشرة مسدسات وثلاث بنادق، نختار عشرة رجال بالقرعة يحملون مسدساتهم ويطلق كل منهن النار على شيرانغو مرة واحدة، وهكذا لن يموت سريعًا فحسب بل لن يعرف أحد من هو الذي أصابه بالطلقة القاتلة، وبالتالي لن يحمل أحد عبء هذا الذنب. وسننفذ هذا عند الفجر دون إخبار أحد من أفراد الفرقة.

عند الفجر اجتمع الرجال العشرة وكان من الواضح أن أحد منهم لم يعرف طعم النوم في تلك الليلة. حمل سوزي مسدس أمودا. لم يبدُ شيرانغو وكأنه على وشك أن يقابل خالقه. تقطع صوته بكل حقد قائلًا: "بالطبع تريدون أن تعرفوا كل التفاصيل. فحليمة تريد أن تعرف كيف توسل آمودا إليّ للحفاظ على حياته. لا بد أن تكون ممتنًا لي يا سوزي لأنني أفسحت الطريق لك. يجب أن تشكرني حقًا. يجب أنْ تشكرني أنت وحليمة لأنني أسديت لكما معروفًا كبيرًا. أنهيت حياة ميسوزي بيد وحياة آمودا باليد الأخرى. يمكنكما الآن أن تضطجعا معًا طيلة النهار كما تضطجع العاهرة تاويكا مع..." حينئذ لمحت من أقصى الجانب الأيمن أحدهم يخترق صفوف الرجال بلمح البصر، ثم سمعت صرخة مبحوحة. ولبرهة من الرعب، بدا كما لو أن سوزي يحضن شيرانغو. هرع شوما وشوبيره ليبعدانه عنه وإذا برأس شيرانغو يهوي. خطا سوزي خطوة نحو الخلف، وآنذاك رأينا أنه أغمد سكينًا في جوف شيرانغو.

لم أدرك حتى تلك اللحظة أنني كنت أحبس أنفاسي، سحب سوزي السكين من جوفه، فارتعش جسد شيرانغو ثم توقف عن الحركة. كانت عينا شيرانغو تحدقان في ذهول، فغر فمه كما لو أنه يحاول الكلام، ثم همد لافظًا أنفاسه الأخيرة. واستطعت آنذاك أن أتنفس أخيرًا.

25

12 شباط/فبراير 1874

المدخل الخامس والعشرون من مذكرات جاكوب وينرايت، وفيها تقترب نهاية هذه الرحلة بينما تتوجه البعثة نحو باغامويو.

ابتعدنا قليلًا عن مكان موت شيرانغو، وكان يسرنا الابتعاد أكثر وأكثر، لكننا ننتظر عودة سوزي، كما أن نهاية رمضان تقترب. لقد أنهكنا الجوع وأعترف هنا أنني الآن وجدت سببًا جديدًا أحترم لأجله أولئك المحمديين، فقد بتّ أعلم الآن كيف يمكنهم السير من دون أي طعام.

كانت نفسية حليمة محطمة بسبب الأمور التي كشف شيرانجو عنها. إنها تؤمن أن روح ميسوزي قد عادت من أرض الموتى وكأنها فيمبويغو لتعاقبها. في البداية لوسي والآن أمودا، إنها مقتنعة أن ميسوزي تريد الانتقام منها. لقد أفقدها الخوف والكآبة صوابها، أصبحت تهذي وتذكر بيتها في زنجبار والباب الذي ستصنعه وكيف كان من المفترض أن يعيش سوزي معها هناك، أما الآن فهي لا تستطيع لأن ميسوزي لن تدعهما وشأنهما.

كان سوزي قد شوهد آخر مرة وهو يسير متجهًا نحو كاسيكرا. فتبعه

شوما ومونياسيره إلى هناك حيث وجداه يتاجر بالقماش والخرز مقابل الحصول على زجاجات البومبي. كان غارقًا في الشرب ورفض بكل عدائية أن يعود مع أفراد الفرقة. كان هناك أمر واحد في وسعهم فعله، وهو أن حمله أربعة رجال وهو في أقصى حالات الثمل وأعادوه للفرقة. وعندما استعاد وعيه، تناوب أفراد الفرقة في التحدث إليه. لقد صليت لأجله، وصرخ شوما في وجهه. لايده وخديجة انتحبتا. وكنا جميعًا نتحدث بين بعضنا البعض بأصوات مبحوحة.

قلنا جميعًا الشيء نفسه، وهو ما قلته له أيضًا: "لم يكن ما أقدمت عليه قتلًا، لقد فعلت ما فعلت لتحمينا جميعًا".

لكن سوزي لم يصغ لأحد منا وقال: "عندما تقتل شخصًا ما يمكنك أن تأتي إليّ وتشرح لي ماذا تعني أن تكون قاتلًا".

فقلت له: "فليكن إذًا المسيح خلاصك".

عندئذ انفجر سوزي ضاحكًا كما لو أنه مختل عقليًا. فتركته بينما حاول الآخرون الكلام معه. بعد ثلاثة أيام من الانتظار قررنا أن نكمل المهمة الخاصة بنا، لقد كان ماجوارا هو من قال: "اتركوني لأتكلم مع سوزي وسأتكلم مع حليمة أيضًا".

أمسك سوزي الذي لا يتجاوب مع أحد لكنه لا يكف عن الشكوى وسار به إلى المكان الذي تجلس فيه حليمة تحت الشجرة. كنا بعيدين عنهم غير أننا استطعنا رؤيتهم وهم يتحدثون واستمروا بالحديث لأكثر من ثلاث ساعات. لم نعلم ما الذي تحدثوا عنه - إذا كانوا قد تحدثوا عن شيء ما بالفعل - إذ لم يذكر أحد منهم ما حصل في تلك الجلسة على الإطلاق.

انضم سوزي إلينا في صباح اليوم التالي وهو اليوم الذي سبق مغادرتنا، وأخبر ماريكو تشاندا أنه سيساعده في حمل جثة الطبيب. أخذت حليمة

موقعها في القافلة بجانب لايده وتاويكا. ضرب ماجوارا عصاه وقرع الطبل، وشرعنا المسير، إلى أن وقع بصرنا على أروع مشهد كان يعني لنا أننا كدنا نصل، ها هو البحر! لم تربطني ذكريات سعيدة مع البحر يومًا، غير أنني لا بد أن أعترف أني لم أجد مباهًا بجمال البحر في ذلك اليوم.

ما أن أبصرناه حتى صاح ماجوارا: "الحمد لله.. باهاري.. باهاري.." وعلت الفرقة برمتها بصيحة أخرى وكأنها رجل لا يعرف سوى كلمة واحدة "البحر.. البحر".

وفي لحظة السعادة تلك، صرنا جميعًا أطفالًا وألقينا كل ما كنا نحمل وعانقنا بعضنا ونحن نرقص فرحًا، وماجوارا يقرع طبله بجنون. أمسك شوبيره بوق ماجوارا وراح ينفخ فيه، ورفرفت الرايات وكأننا في مهرجان من الألوان، ثم ركضنا لنلهو ونرقص في البحر ونرش الماء على بعضنا.

لو كان آمودا معنا لوبخنا على هذا التباطؤ، أو لعلّه سيضعف مثلنا أمام مشهد نهاية الرحلة ويكتفي بتقطيب حاجبيه. ولكن الحقيقة هي أنه لم يكن موجودًا ليوبخنا، لذلك أمضينا النهار بأكمله نسبح ونصطاد السمك ونستلقي تحت أشعة الشمس. كان ذلك أول يوم سعيد بالفعل أمضيناه منذ موت آمودا.

ومقابل المحيط الأزرق الذي يلتقي في الأفق بالسماء الأشد زرقة، وعلى الرمل الدافئ، وتلاطم الأمواج اللطيف، نسينا خلفنا الشر الذي سببه شيرانغو ومتاعب هذه الرحلة الحزينة.

أجمعنا الرأي على أننا سنخيم هناك في تلك الليلة، وفي الغد سنمشي على محاذاة الساحل شمالًا إلى باغامويو. في تلك الليلة أوقدنا على الشاطئ نارًا كبيرةً في مكانين وشوينا الأسماك التي اصطدناها خلال النهار وأمضينا وقتنا في الغناء والضحك.

في صباح اليوم التالي أصرت حليمة على غسل ملابس كل من تبقى وتجفيفها قائلة: "لا يمكننا دخول باغامويو ونحن نبدو مثل مجموعة عبيد بائسين جرى إنقاذهم".

ما يزال عبء خسارتها يجثو على قلبها ولم يكن هناك ضير في أن تظهر كل هذه المكابرة. كانت باغامويو تبعد مسير يوم واحد، ما الأذى الذي يمكن ليوم آخر أن يسببه؟ أمضت النساء هذا اليوم في غسيل الملابس وتضفير شعورهن.

في صبيحة اليوم التالي، توجهنا إلى باغامويو قبل الفجر واخترنا أن نمشي بمحاذاة الشاطئ وكان هذا أكثر أجزاء الرحلة إمتاعًا. لم نعد بحاجة إلى الطبل فالأمواج وطيور النورس كانت تشجعنا في رحلة المشي هذه. كان الأطفال يركضون بكل سعادة نحو الأبقار المستلقية تحت أشعة الشمس بينما كانت الطيور تنقر وتلتقط البراغيث، وعلى مسافة منها كان مزارعو جوز الهند يتسلقون الأشجار العالية ويقطفون جوائزهم.

كان البحر أمام أعيننا طيلة الوقت وكانت الأرض ناعمة تحت أقدامنا. كنا نمشي ونلقي التحية على الصيادين الذين كانوا يخرجون مراكبهم الشراعية أو يصلحون شباكهم في موجة من الثرثرة والأحاديث. وسرعان ما انتشرت الأخبار بشأن مجموعتنا الغريبة وحملنا الكئيب. عندما وصلنا إلى باغامويو قبيل الحادية عشرة كان الحشد الذي يتبعنا ضعفي حجم مجموعتنا.

هكذا دخلنا باغامويو ونحن ندعو ونشعر بالأسى لفقداننا خمسًا وعشرين شخصًا منذ انطلاقنا من تشيتامبو فقد هرب خمسة عشر وتوفي عشرة. توجهنا نحو الكنيسة وأشار شوما وسوزي للآخرين بأنهما سيحملانه إلى الداخل بنفسيهما. كان قداس الأحد يُتلى، بينما كنا نمشي

باتجاه الأمام وقف الناس من على مقاعد الكنيسة، توقف القس وسط القداس وحدّق بنا، قال شوما: " مويلي وا داودي" ثم وضعا جثمان الدكتور ليفينغستون على أرض الكنيسة الحجرية الباردة.

III

باغامويو

عبدك كافور جاء إلينا مكشوف الرأس ممزق الأثواب وهو يصيح: وا سيداه! واسيداه! إن سيدي جلس تحت حائط في البستان فوقع عليه فمات. فقال لهم سيدي: والله إنه أتاني في هذه الساعة وهو يصيح: وا سيدتاه وا أولاد سيدتاه وقال أن سيدتي وأولادها ماتوا جميعًا. ثم نظر إلى جانبه فرآني... فصرخ علي... ويلك يا عبد النحس يا ابن الزانية يا ملعون الجنس... اذهب عني فأنت حر! فقلت: لا تعتقني فإنني ما لي صنعة أقتات منها. وهذه المسألة التي ذكرتها لك شرعية ذكرها الفقهاء في باب العتق.

ألف ليلة وليلة، المجلد الثاني

كانت أصوات الضحكات والثرثرة مرتفعة بما يكفي لتصل إلى مسمعي وأنا في الطابق العلوي في بيتي. أستطيع أن أرى من نافذتي العالية الحشد الكبير من الناس الذين توقفوا إعجاباً وذهولًا وهم يشيرون إلى باب بيتي. كلما أردت الدخول إلى بيتي أو مغادرته يجب عليَّ أن أشق طريقي بين مجموعة من المتفرجين. أستطيع سماع اسمي الآن في ثرثرتهم وأحاديثهم، لا حليمة فحسب، طباخة بوانا داودي، تلك التي يذكرون اسمها، بل بيبي

حليمة، المرأة التي حصلت على حريتها وأصبحت تملك بيتها الخاص الآن.

لا شك أن السعادة تغمر أمي ظافرين وصغيرتي لوسي وهما تسمعان الآخرين ينادونني "بيبي" مرارًا مثلما اعتدت أن أنادي الأخرين "بوانا". أتمنى لو أنني أستطيع التأكد أن لوسي مع أمي. لا قرابة تجمعهما، بل الحب فحسب. ولا أعلم إن كان الحب كافيًا ليجعل أسلافي يرحبون بلوسي بينهم. لعلها الآن مع أسلافها وأمها. أشعر ببعض الراحة عندما تخطر لي هذه الفكرة.

عندما ينادونني بيبي أسأل نفسي: هل هذه حقًا أنتِ حليمة؟ ثم أبتسم قائلةً: نعم حليمة.. إنها أنتِ. وفي رأسي أتكلم مع أرواح أسلافي الراحلين ومع أمي ظافرين لأشكرها على رعايتي وعلى النظر إليَّ الآن.

من كان ليفكر أن بامبي مثلي ستتمكن من الحصول على منزلٍ لها؟ ابن بوانا دودي الذي كان يدعى زوغا، لأنه ولد بجانب أحد الأنهار، على الرغم من أنه عاش باسم أوزويل، حسنًا لقد وفى بوعد أبيه.

فبدلًا من أن يأخذني لأصبح ملكيته الخاصة أعطاني ملكية خاصة بي واشترى لي هذا المنزل، وأعطاني المال لشراء هذا الباب الفخم. أتذكر أحيانًا كيف كان أمودا يصر على أنه ليس هناك امرأة من الرقيق تملك بيتًا. المسكين آمودا! أعتقد أنه من الأفضل ألا نسهب في الحديث عن هذه الأمور.

منزلي واحد من المنازل القديمة التي بنيت على الطراز الحديث، فهو ليس منزلًا عاديًا، إنه منزل له باب لم يُر له مثيلٌ من قبل. يقول الناس الذين سافروا إلى بلدان عدة أن أبواب زنجبار أجمل الأبواب على وجه الأرض. فهناك أبوابٌ تتحدث عن القدر، وأبواب تحمي الثروة التي حصل عليها أصحابها بشق الأنفس، وأخرى تحمي من الشر. أما الأبواب المزخرفة

فتؤدي هذه المهام الثلاث.

باب منزلي باب مزخرف، ويقولون إنه ليس بابًا عربيًا كما أنهم يتفقون على أنه ليس بابًا هنديًا ولا سواحيليًا، بل إنه يشبه هذه الأبواب جميعها، هذا ما يقولونه، ولكنه رغم ذلك لا يشبه أي بابٍ منها بصورة فردية.

يصيحون بدهشة: "انظروا! ها هي السلسلة حول حواف الباب لحماية المنزل من الشر والحفاظ على سلامة ساكنيه، وهناك صفٌّ من أزهار اللوتس لتظهر تفتح قلوب ساكنيه. هلّا نظرت إلى المقابض النحاسية الذهبية ذات النتوءات الظاهرة وكأن مالك هذا المنزل يحرسه بعناية من هجوم فيل ما! وأي فيلٍ يستطيع اقتحام بابٍ كهذا؟"

إنه بابٌ مميز بالفعل، لا يشبه أي بابٍ آخر، هذا ما اتفقوا عليه.

وكان هذا رأي النجار أيضًا الذي كان يحك رأسه بحيرة عندما كنت أصف له الباب الذي أريده. أخبرني أنه لم يسبق له أن صمم مثل هذا الباب لا هو ولا أي نجار آخر في زنجبار كلها. لكنه بالطبع ليس بحجم الباب الضخم لمنزل الوالي القديم الذي يملكه لودا دامجي، حاكم الجمارك، بالإضافة إلى نصف زنجبار. كما أن حجم باب منزلي ليس قريبـا من حجم باب تيبو تيب الفخم، وكيف له أن يكون بهذا الحجم وقد جنت هذه العائلة ثروتها الهائلة من بيع العبيد بينما أنا مجرد امرأة محررة. لكن النجار الذي صنع باب منزلي كان فخورًا بنفسه، أؤكد لكم ذلك!

أحيانًا عندما لا يكون الطقس حارًا أجلس في الخارج على البارازا المنخفضة الموجودة على طول المنزل وأستمتع بأحاديث الناس. يستدير أولئك الذين يعلمون أن ملكية هذا المنزل تعود لتلك المرأة التي تجلس على البارازا وتستمع إليهم يقولون باستغراب: "لكن هذا الباب.. بيبي حليمة.. هلّا نظرت إلى هذا الباب؟" أخبرهم ضاحكةً أنه ليس بابـا سواحيليًا كما

أنه ليس بابًا عربيًا أو هنديًا، إنه باب حليمة.

يزداد سروري كلما تذكرت أنني لم أنفذ فكرتي الأولى بشأن شراء المنزل على الشارع الذي يسمونه الآن هورمزي. لا يطل هذا المنزل ذو الباب المميز على الطريق بل يقع في زاوية هادئة من طريق فرعيةٍ تسمى كاوندي وهو طريق لا يعرفه أحد، أو على الأقل يمكننا القول إنه طريق لم يكن يعرفه أحد قبل أن أنتقل إلى هنا، إذ تزداد شهرته يومًا بعد أخر.. وكل هذا بفضل بابي.

أردت شراء منزل في شارع هورومزي لأن هذا الاسم يعني "الإنسان المحرر". هذا هو الشارع الذي كان العرب يأخدون العبيد إليه عندما أغلق سوق العبيد. نعم! لقد أغلق سوق العبيد بالفعل ويعود السبب في ذلك - كما يقول بعضهم - إلى أن الأخبار التي أرسلها بوانا داودي عن مجزرة مانيوما أغضبت الناس، ولذلك أجبر الإنكليز السلطان على إغلاق السوق، ولكن هذا لن يغير شيءا بالنسبة لأولئك المساكين الذين فقدوا حياتهم.

كانت أصوات التجار عالية وهم يصيحون على العبيد لبيعهم ولكن لم يكن هناك أي مشترٍ، ولذلك عندما أجبرهم الإنكليز على إغلاق السوق قالوا لهم: "سوف نشتري منكم هؤلاء العبيد إذا أحضرتموهم إلى هذا الشارع في هذا اليوم".

كانت هذا الطريقة الأفضل، بل الطريقة الوحيدة، إذ أنه على الرغم من إغلاق السوق إلا أن هذه التجارة كانت مستمرة في السراديب تحت الأرض وخلال الليل، ولذلك جلب التجار العبيد إلى هوزونزي حيث أُعتقوا وحصلوا على حريتهم، قالوا لهم إنهم الآن واهاديمو، إنهم مالكو أنفسهم وأسيادها.

لكنهم ليسوا جميعًا مثل حليمة.. يا لهم من مساكين، إذا كنت لا تملك الوسائل التي تجعلك حرًا فلن تكون الحرية سوى جرعة مرة، وهكذا تصبح الحرية عبئًا عندما تصير سيد نفسك للمرة الأولى بعد كل سنوات العبودية. الشوارع الآن ممتلئة بالمئات والمئات من العبيد الذين لا يملكون أي عمل لأن العرب لن يشغّلوهم مقابل أجر!

تراهم ينتظرون حتى ينام كل سكان المنازل ثم يحشرون أنفسهم عند المداخل وفي البارازا. لقد وجدت بعضهم منهم خارج باب منزلي ينامون على البارازا وكنت أطعمهم كلما استطعت، لأنني أعلم أنني دون فضل والدتي ظافرين وأسلافي الذين يحرسونني، فمن الممكن أن أكون واحدة منهم.

كان العديد منهم يتوسّلون ليصبحوا عبيدًا مرة أخرى، أو ليعملوا مقابل حصولهم على الطعام لا على أجر للعمل، أما بالنسبة للبقية فقد أصبحت حياتهم مليئة بالسرقات وقطع الطرقات والهمجية أو الموت جوعًا. كان جميع مالكي البيوت الأثرياء في زنجبار غاضبين بسبب ما فعل الإنكليز ويريدون إعادة فتح السوق.

في المساء أشعل النار خارج منزلي ويأتي الجميع لشراء الطعام، ويسألونني إذا كان السمك طازجًا، كما لو أنني في حاجة لحفظ السمك! نفد الطعام كله تقريبًا في يوم واحد، ثم وزعت ما بقي منه على **الوهاديمو** المساكين الذين ينامون في شوارع فورروداني.

الآن وبما أنني أعيش في زنجبار مرة أخرى فقد اعتدت على الشوارع الضيقة المألوفة بكل قذارتها والرائحة النتنة للقطط الميتة، ولذلك كان بوانا داوي على حق عندما أطلق عليه اسم نتنبار. المشكلة الوحيدة بالنسبة لبيتي هي أنه قريب من سوق الأسماك، فعندما تهب الرياح حاملة رائحة السمك بهذا الاتجاه ألعن هذا الموقع! لكن رائحة السمك الميت أفضل من رائحة

العبيد الموتى التي لم تعد موجودة الآن بسبب إغلاق سوق العبيد. نسيت! والضجة أيضًا! دائما ما أسمع صوت ضجة عالية مرعبة ولذلك فمن العجب أن الجميع يستطيع سماع صوت المؤذن عندما يرفع صوته مناديًا للصلاة. وقد اعتدت على بعض الأشياء الجديدة أيضا! مثل حمامني الموجود على الطريق إلى كونايزي، الذي بناه السلطان برغش. إنه مكان عجيب حقًا، تشعر عندما تغادره أنك أكثر نظافة مما تتخيل، فعندما تكون داخل الحمامات هناك بخار ساخن يصل إلى داخل أذنيك وأنفك أيضًا.

الحمامني قريب من ناحية شنغاني، وكان بإمكاني أن أشتري منزلًا هناك ، لكنني لا أستطيع أن أتحمل القرب من البحر. لم أكن خائفة من أشباح تشونوسي وفيمبويغو، تلك المخلوقات المفزعة التي تحدثت عنها ميسوزي، بل إن ما أخشاه إذا سكنت هناك هو أن أمضي جل وقتي قرب النافذة أنظر إلى البحر وأفكر بسوزي.

في الأيام التي تصل فيها السفن إلى المرفأ أذهب إلى هناك وأنا أحمل طبقًا من الطعام جاهزًا للبيع. أحمل هذا الطبق وأصرخ دجاج.. دجاج.. دجاج طازج، لكنني أبحث عنه طوال الوقت. أتوق لرؤيته، وأخبئ هذه الرغبة برؤيته في صراخي دجاج.. دجاج.. دجاج ولا أشهى. وها أنا ذا أتعلم بعض الإنكليزية على الأقل.

كانت السفن القادمة من الهند وانكلترا تحمل الصحف التي تحتوي على قصة جنازة بوانا داوي. لم أستطع أن أفهم كل الكلمات لكني لمحت مباشرة صورًا لجاكوب وينرايت الذي يحمل كفن بوانا داوي على كتفه بمساعِدة بوانا ستانلي وأبناء بوانا وهم يشيعونه إلى مثواه الأخير. فكرت في سوزي وشوما إذ كان يجب أن يكونا هما من في هذه الصورة.

لقد سافرا إلى إنكلترا ولكن ليس لحضور الجنازة. لقد وصلا بعد

دفنه بعدة أشهر، وذلك لمساعدة أصدقاء بوانا داوي وأولاده على تأليف كتابٍ عن رحلته الأخيرة. أتمنى لو كان باستطاعتي الذهاب معهم لأرى ابنة بوانا داوي المفضلة، نانى، وأخبرها كم حاولت أن أطعمه خصوصًا في أيامه الأخيرة. وكيف عادوا بعد سنة يحملون إليّ أخبار حظي الحسن.

بعد عودتهم بثلاثة أيام، استدعيت من باغامويو أنا والأخرين، وإن لم يُعثر على الكثير منا. كنا ذاهبين لاستلام الميداليات أو على الأقل الرجال كانوا من سيستلمها وقد تم تقديمهم في حديقة القنصلية. حصلت على إحدى الميداليات لأنهم كانوا قد صنعوا الكثير منها وقالوا لأنفسهم: حسنًا، حليمة هنا، والميدالية هنا، يمكننا إعطاؤها واحدة. لكن أفضل ما في الأمر أنني حصلت على منزلي الخاص.

تفرقنا بعد استلامنا هذه الجوائز. شوبيره ولايده كانا هنا في زنجبار مع أطفالهما، وعلى الرغم من أن شوبيره لا يزال يذهب في رحلات استكشافية، كانت لايده قد اكتفت من الترحال والتجوال. انضم كل من ماجوارا و مونياسيره وسابوري إلى رحلات بوانا ستانلي الاستكشافية العديدة، شأنهم في ذلك شأن الكثير من الباغازي. عاد فرج الله كريستي إلى الهند مع الناسيكيين الآخرين، جميعهم ما عدا جون وينرايت المسكين بالطبع، وجاكوب وينرايت الذي قيلت عنه عدة شائعات.

يُقال إنه عرض أن يعمل ترجمانًا مع بوانا ستانلي لكنه رُفض، بينما تقول شائعة أخرى أنه عاد لمدرسته في الهند ليعمل في مجال التدريس ولكنهم لم يوظفوه، أما الشائعة الثالثة فهي أن قِدرًا من الماء المغلي سقط عليه وأودى بحياته، ولكن هذا مستحيلًا لأنني سمعت أيضًا أنه كان موظفًا في مومباسا عند أولئك المبشرين الفضوليين الذين يريدون أن يصبح الجميع

مسيحيين، وذلك بعد سنة كاملة من وفاته المفترضة.

وقد قيل أيضًا إنه كان هنا في زنجبار يعمل بوابًا، ولكن هذا يدفعني للضحك لأنني لا أستطيع أن أتخيل جاكوب المتغطرس يفتح الأبواب ويغلقها!

مونياسيري الذي سافر مع بوانا ستانلي إلى الأراضي المجاورة لباغاندا هو الشخص الأخير الذي كان يحمل أنباء عن جاكوب، فقد قابله وهو في طريقه إلى مملكة باغاندا - كما أخبرنا - حيث كان الكاتب في محكمة كاباكا.

لو كان ذلك صحيحًا فسيمنحه الكثير من البهجة، إذ إن كل ما سمعته عن باغاندا هو أن سكانها يأكلون الموز وكأن الأرض لا تحتوي على طعام غيره. يأكلونه مطهوًا أو مشويًا في الأفران تحت الأرض، ثم يهرسونه ويشربونه مع الماء. سيكون الموز هو ما يأكله إلى جانب الموز كل يوم، إذا كان كل ما يُقال عن هذا المكان صحيح. حسنًا، أنا مولعة بالموز، أطهو موزًا مقليًا لذيذ المذاق، كما أنه شهي مع القليل من السمك المطهو مع عصير الليمون، لكنني بالطبع لا أتحمل ألا آكل شيئًا سوى الموز.. لا أستطيع ان أحيا حياة كهذه!

إذًا أنا لم أرَ جاكوب ولكنني رأيت تاويكا التي قابلتها لأول مرة وهي في طريقها من زنجبار إلى بومباي، أما في المرة الثانية فكانت في طريقها إلى الرأس. طفلها التي حملت به في الرحلة المروّعة وُلد هنا في زنجبار، كان طفلًا صغيرًا عندما اتجهت السفينة نحو الهند. لقد أصبحت سيدة مجتمع، ترتدي التنانير المطرزة والأحذية اللامعة، ولم يعد شعرها على شكل خصلٍ ملفوفة على رأسها، بل أصبح ناعمًا مسترسلًا ومربوطًا فوق مؤخرة رقبتها.

عندما رأيتها ناديت بصوت عالٍ "تاويكا".

استدارت نحوي بكل تكبر وكأنها لم تكن تعلم من أنا، قالت: "ألست حليمة؟" وكأننا لم نتقابل في حياتنا سوى مرات قليلة، "تسرني

رؤيتك كثيرًا ولكنك يجب أن تناديني ماريا الآن، أنا لم أعد أدعى تاويكا".

لا بد أن عمل جاكوب وينرايت قد أتى ثماره، أعني هنا عمله الآخر، فقد ظلت مسيحية. أخبرتني أنها متزوجة من كاروس فرار الآن، وهناك ورقة تثبت ذلك، أي أنها لم تكن المرأة التي يسافر بصحبتها فحسب. ظهر في هذه اللحظة وكان ودودًا للغاية معي وأخبرني أنهما كانا في طريقهما إلى بومباي حيث كان سيخضع للتدريب الذي يؤهله أن يصبح طبيبًا.

رأيتهما مرة ثانية عندما عادا وكان ذلك بعد ست سنوات، لكنهما هذه المرة كانا في طريقهما إلى الجمعية التبشيرية في مومباسا التي كانت تسمى بلدة فريري تاون حيث كانوا سيبدؤن بتشييد بلدة كاملة من العدم.

كانا هذه المرة بصحبة طفلين، وأصغرهما طفلة بعمر لوسي تقريبًا عندما ماتت. آلمني النظر إليها لأن الجرح ما زال يسكنني على الرغم من شفائه. ركزت نظري على الصبي وإذا بي أحدق به مذهولة إذ كان بإمكانك الإطاحة بي أرضًا باستخدام ريشة دجاجة لأني فقدت تركيزي، إذ أحسست وكأن جاكوب وينرايت هو من يحدق إليّ.

كانت تاويكا حريصة على أن تذكر كل الأعمال التي ستقوم بها برفقة زوجها في الرأس، تحدثت عن معالجة الأطفال وهداية الوثنيين. الطريقة التي قالت فيها تاويكا كلمة "وثنيين" ستجعلك غير قادر على التصديق أن هذه هي المرأة نفسها التي لعبت لعبة الأرداف المتقاربة مع رجل واحد في البداية ثم مع رجل آخر. وكأن المرء يستطيع أن يخفي حقيقته تمامًا مثل أن يخلع ثوبًا قديمًا ويرتدي واحدًا جديدًا، ولكن شخصيتك الفعلية تبقى موجودة داخلك وراء كل هذه الشخصيات الجديدة التي ترتديها.

كان الحديث كله يتمحور على هذا الوثني وذاك الكافر. قلت لها: "طريقة كلامك تشبه طريقة كلام جاكوب وينرايت، ولو لم أكن أعرف من أبا

طفلك هذا فكنت سأجزم أنه ابن جاكوب لأنه نسخة عنه". نظر إليّ الطفل بعيني جاكوب الجدية، بينما قطّبت أمه حاجبيها عندما تفوهت بهذه الكلمات، لكن زوجها ضحك قليلًا ثم قال: "بما أنك قد قلت هذا، يمكنني الآن القول أنه يبدو كذلك نوعًا ما".

يا له من رجل أحمق! سواء كان طبيبًا أم لا. حتى في الماضي لم يكن يرى ما يحدث أمام عينيه! ربما يكون الأطباء جميعهم هكذا فقد كان بوانا باودي أحمق أيضًا. ومن الممكن أن يكون التعلم هو ما يجرد أدمغتهم من أدنى درجات المنطق.

إنها محظوظة لأنها نالت كاروس فرار. هذه هي تاويكا. ستكون دائمًا على حق لأنها تعلم ما أكثر الأمور أهمية في العالم، هذه طبيعة تاويكا.

أود لو أتزوج مرة ثانية، ولكن عرضي الزواج الوحيدين اللذين حظيت بهما كانا من رجلين كبيرين سنًا، عجوزين لدرجة أنك تستطيع أن تصنع من بشرتهما أوراقًا لرسم كل خرائط بوانا داودي وخربشاته. تتوقع المرأة أن يكون في زوجها بعض الحياة على الأقل! سيكلفني دفنهما أكثر من قيمتهما الفعلية! كلا! أفضّل أن أتزوج سوزي أو لا أتزوج أي رجل آخر.

لا أعلم إلى متى سأبقى في هذا المنزل ولكنني لن أبقى طويلًا. وإذا كنت سأقول الحقيقة فهي أنني بدأت أسأم من الحياة في زنجبار. إنها مليئة بشيتاني العبيد الميتين، تسمع الأصوات الهامسة في المساء وتظهر الظلال بصورة مفاجأة، ثم يقولون إن روح بوبو بهاوا، الشيتاني الشرير الذي طُرد إلى بيمبا منذ عدة سنوات تتحضر للعودة إلى هنا والتسبب بمزيد من الخراب والدمار. صحيح أنه في آخر مرة ظهر فيها كان يلاحق الرجال وليس للنساء، ولكن من يرغب في العيش في مكان تجري فيه مثل هذه الأمور؟ وحتى إن لم يعد إلى هنا كما يزعم الجميع أنه يخطط، تبقى الحقيقة هي أن

الهواء هنا ملوث برائحة الكثير من الناس.

يمكن أن يكون توقي للرحيل من هنا هو ما يدفعني إلى رؤية كل هذه الأشياء. ربما لا تكون المشكلة في زنجبار نفسها وفي كونها لا تلائمني، ربما أنا التي لا ألائم زنجبار. فكرت حتى كاد رأسي ينفجر. ولكنني ما زلت بعد كل هذه السنوات لا أفهم ماذا يمكن للمرء أن يجني إذا ترك منزله ليتجول وينام في البراري باحثا عن منبع نهرٍ تتدفق مياهه منذ بدء الخليقة.

كما قلت لبوانا باودي في نيانجوي منذ وقتٍ طويل عندما كان يشعر باليأس بسبب كل الذين قتلوا في المجازر، قلت له: لا يمكنك فعل أي شيٍ لإعادتهم للحياة ثانية. لقد وُهبت هذه الحياة التي ستغادرها يومًا ما وعلى الرغم من ذلك فإن الناس سوف يعيشون ويموتون ويُذبحون تمامًا مثل هؤلاء، كما أن نهر النيل سوف يفيض ويتدفق ويتدفق ويفيض سواء وجدت منبعه أم لا. علمت لاحقًا بعد عدة سنوات أنهم ما زالوا يبحثون عن المكان الذي يتدفق منه نهر النيل والذي لا يزال مجهولًا حتى الآن.

ولكن على الرغم من أني لن أذهب لأتمشى وأتسكع باحثة عن منبع النهر إلا أني أعلم القليل عما يقصدون - أعني الرجال هنا - عندما تحدثوا وهم مجتمعين حول النار. أفهم الآن ماذا يعني عندما تكون الرغبة في السفر تلدغك مثل البعوضة التي تسبب لك الحمى، هذا يعني أيضًا أن قدميك لا تتوقفان أبدًا وأن عقلك يتجول باستمرار.

حصلت العديد من الأشياء مع بوانا داودي في هذه الرحلة. حصل جزء منها عندما كان على قيد الحياة وحصل الجزء الآخر بعد وفاته ولكن شيئًا واحدًا هو ما بقي معي، إنه الشعور الذي ينتابني أحيانًا: على الرغم من أنني محاصرة من كل الجوانب إلا أن كل ما أريد القيام به هو الذهاب إلى مكان لم

يزره أحد من قبل لأحدق في السماء وأنظر إلى المساحات من حولي، مكان لا أرى فيه سوى الأشجار ولا أسمع فيه سوى أصوات زقزقة العصافير.

أفكر أحيانًا في موضوع السفر مرةً ثانية ولكن بطريقة مختلفة هذه المرة، إذا أرادت أمي ظافرين فإن تلك الرحلة ستكون دون أي جثة لأنه كان عملًا أحمق منذ بدايته. أتذكر أحيانًا كلمات ميسوزي عندما سمعت ما قرر الرجال ان يفعلوه، من سمع بفرقة تجوب البلاد وهي تحمل جثة إنسان ميت؟

بينما أفكر أحيانًا أخرى أنني قد أبحر في قارب شراعي مع سوزي، على الرغم من أن فكرة الحياة في المحيط كفيلة بأن تصيبني بالغثيان. في كل مرة كنت أعبر فيها المحيط لأصل إلى زنجبار كنت أصاب بالمرض! ولكن إذا تعلق الأمر بسوزي، أعتقد أنني سأجازف من أجله.

ربما سأختار أن أعبر البحار لأعيش في باغامويا بدلًا من السفر إلى بلادٍ غريبة. وعلى الرغم من أن كانت حياتي هناك محزنة للغاية إلا أنني أحببتها، إذ أن الهواء أنقى من الهواء هنا. سأشتري سريرًا سواحيليًا كبيرًا مليئًا بالنقوش مثل الأسرّة التي ينام عليها الجميع في بيت الوالي، سيكون سريرًا من القياس الكبير لدرجة أنه سيحتل الغرفة، سريرًا تستطيع النوم والأكل والعيش فيه. عندما تمتلك سريرًا كهذا لن تتمكن من مغادرته أبدًا.

سأبيع هذا المنزل وأشتري منزلًا أصغر هناك، سيكون منزلًا مع حديقة ولكنني سأحمل بابي معي لأنه جميل للغاية ولا يمكنني التخلي عنه. من الممكن أن يعجب به سكان باجامويا أيضًا لأنه باب مليء بالرموز. ولكن بالطبع عدد الناس المعجبين به هنا أكثر ممن سيحبونه هناك. من بيتي ذي الباب الفخم .. من بيتنا ذي الباب الفخم.. يمكن لسوزي أن

ينطلق للسفر ويمكن أن أسافر معه أيضًا ثم سنعود إلى منزلنا في باجامويا وندخل من ذلك الباب ونستلقي على ذلك السرير.

وإذا لم يعد سوزي.. حسنًا.. أكون قد حظيت بآمودا وخسرته. كانت لوسي معي وخسرتها أيضا، لكنني ما زلت هنا وسأبقى هنا إذا لم يعد سوزي. إنني أمتلك منزلًا ذا باب يتعجب الجميع من روعته كما أنني قريبًا سوف أمتلك سريرًا أتعجب أنا من روعته. ما الذي يمكن للمرء أن يحلم به وهو يملك ثروة كهذه؟

بالنسبة للوقت الحالي أنا مقتنعة بالعيش في منزلي ذي الباب الرائع، وقريبًا سأمتلك سريرًا مليئًا بالنقوش، أما الشيء الوحيد الذي أتمنى الحصول عليه هو أن أسمع بعض الأخبار عن سوزي. إنني راضية بحياتي الآن فأنا أذهب إلى المرفأ وأبيع الطعام وأنتظر أن أسمع بعض الأخبار عنه، ثم أعود إلى منزلي وأعشق بابي مجددًا ثم أغلق هذا الباب على نفسي لأكون في منزلي الخاص. أذهب إلى الحمامات العامة كل أسبوعين، أملك تكاليف الذهاب مرة كل أسبوع ولكن هذا سيجعلهم يعتقدون أنني أصبحت في مكانة اجتماعية أعلى من مكانتي. سأكون حريصة على المشي مرة واحدة يوميًا على الأقل في حرومزي فقط لأذكر نفسي أنني حرة.

26

تموز حتى آب 1885

مدخل من يوميات وينرايت، كتبها في محكمة الكاباكا موانغا، في عهد ملك بوغندا الواحد والثلاثين. وفيها يتناول الحاضر المتقلب والماضي المخيب للآمال، ويتأمل المستقبل الغامض.

من على بعد هذه المسافة أستطيع أن أرى هضاب المملكة بلون بنفسجي مقابل السماء. إنها أفضل ساعة في اليوم بالنسبة لي، يتجمع الضباب عاليًا في السماء ويدخل النور المدينة واعدًا بيوم جديد. إنه فصل قطاف الموز أي أكثر الأوقات إنتاجية في المملكة، ستمتلئ الأراضي بقاطفي الموز الذين يعملون ضمن مجموعات لقطع الموز من الأشجار وحصاده خلال ساعة واحدة. ليس الموز الصغير الأصفر هو ما يأكله سكان باغاندا، بل الموز الأخضر الكبير الذي يسمونه **ماتوكه**. العمل في القطاف مبهج إذ يغني القاطفون وهم يمارسون عملهم. سيؤمن هذا الحصاد الطعام اللازم لإمداد محكمة الكاباكا ورعاياها في الشهور القادمة.

عندما أتيت إلى المملكة للمرة الأولى منذ ست سنوات كنت مذهولًا بتنوع المأكولات التي يمكنك تحضيرها باستخدام هذه الفاكهة المتواضعة.

يطبخ سكان باغاندا **الماتوكه** بعدة طرق: إما مسلوقًا بالماء أو مقليًا مع البصل ومغطى بصلصة زبدة الفستق أو مطبوخًا مع خليطٍ لذيذ من السمك أو اللحم. كما أنهم يطحنون الموز الجاف ليصنعوا الطحين الذي يُطبخ مع الماء لصنع العصيدة، حتى إنهم يستخدمون أوراق الموز وكأنها وعاء لطبخ مأكولات أخرى. عندما آكل نوع طعام لذيذ أتذكر حليمة فورًا لأنها ستكون مسرورة للغاية بتجربة هذه الأطباق المتنوعة من الموز.

يشارك في حصاد الموز هنا رعايا الكاباكا جميعهم من أعلاهم مكانة اجتماعية إلى أدناهم، من أكبرهم سنًا إلى أصغرهم. على الرغم من أنني مجرد زائر ولست من هؤلاء الرعايا، إلا أنني انجذبت إلى حقول القطاف وشاركت في العمل. لا أنضم إليهم كل يوم، ولكن عندما أعمل فإني أعمل ساعات طويلة وبجد لدرجة أنهم يعدونني قادرًا على إنجاز المهمات المطلوبة مثلهم تمامًا.

كانت سنواتي الست في مملكة بوغندا سنوات التغيير الجذري بالنسبة لي. وصلت إلى هنا للمرة الأولى في عام 1878 ميلادي، إذ أرسلتني جمعية الكنيسة التبشيرية لأقدم الدعم للموقر ألكساندر ماكي في جهوده أثناء التحضير لإحدى البعثات في المملكة. أخبروني أن السيد ماكي كان بأمس الحاجة إلى مترجم لأن الكاباكا لا يعطيهم إذن توظيف أي من رعاياه. ارتحت لهذا العمل ورحبت به.

وقبل أن يفتح الرب هذا الطريق أمامي ألقاني في التيه واختبرني اختبارًا قاسيًا. كانت تلك أكثر الفترات التي تعرضت فيها للإهانة في حياتي، عندما أجبرت على العمل بوابًا في زنجبار. كنت أرتدي لباسًا عربيًا لكي لا يتعرف أحد إليّ وأنا في هذه المرتبة الاجتماعية المتدنية التي وصلت إليها، إلا أن رجلًا لطيفًا من جمعية الكنيسة التبشيرية عرفني وصُدم بحالتي المزرية،

وحدد لي موعدًا لمرافقة البعثة الجديدة إلى مملكة بوغندا.

عرفت حينئذ أن دوري قد حان، وفتحت قلبي لأشكر الرب لأنني أخيرًا استطعت أن أصبح مبشرًا. لكن عندما وصلت إلى بوغندا كان من الواضح أن الموقر ماكي، قائد البعثة، لم يكن ليسمح لي بأداء أي عمل تبشيري على الإطلاق. كان واجبي أن أترجم وأشرح فحسب، وألا أقوم بالوعظ أو الهداية. بل أكثر من ذلك فقد توقع هذا المبشر مني أن أخدمه شخصيًا وكأنني مساعده الشخصي أو خادمًا من طبقة متدنية أو عبدًا ذليلًا!

حتى ذلك العمل الذي كان مثل النير حول عنقي كان بغير فائدة، إذ إن سكان المدينة لا يتحدثون اللغة السواحيلية بل اللوغندية، وهي لغة لم تكن مألوفة بالنسبة لي. بعد مرور سنة واحدة كنت قد تعلمت القليل من الكلمات المفيدة ولكن الموقر ماكي كان قد تعلم الكثير ولم يعد بحاجة إلى مترجم، لذلك أصبحت في النهاية خادمه المنزلي. على الرغم من أني كنت أدعو دعاء الموقر بين لكي لا يتملكني الاستياء والسخط، إلا أن قلبي احترق من الذل والامتهان.

بعد ذلك أخبرني أحد الخدم في كاتيكيرو - وهو واحد من كبار المستشارين في الكاباكا - أن متيسا الكاباكا كان بحاجة شخص موثوق به لكتابة رسائله والقيام بأعمال الترجمة. سمع أني أملك معرفة البيض، فاغتنمت الفرصة وقدمت نفسي له وأنا متأكد بأن سعادة الموقر ماكي لمغادرتي لم تكن أقل من سعادتي!

كانت تلك فترة زمنية حافلة بالأحداث في المملكة، وكان هناك بعثات من بلدين مختلفين، فرنسا وانكلترا، تقدم العروض للكاباكا لبناء الكنائس. كان متيسا الكاباكا رجلًا ماكرًا وبارعًا في جعلهم قلقين على الدوام وهم ينتظرون وكلهم أمل أن الغد سيحمل لهم أخبارًا جيدة بشأن

بناء الكنائس والمدارس.

ولكن للأسف بعد عدة أشهر من انضمامي للمحكمة بدأ المرض يفتك بمتيسا الكاباكا، وفي غضون أيام قليلة فارق الحياة. كان لهذا الملك الآثم زوجات وجوارٍ بعدد ما امتلكه الملك داود والملك سليمان. يعتقد الناس أنهن أكثر من ثمانين، ولم يكن من الواضح أي من أبنائه سيرث الحكم، إذ كان سينشب صراع مخيف لولا أن أعلنوا أخيرًا أن من سيرث الحكم ابنه الشاب موانغا، ابن الزوجة العاشرة. لا أستطيع أن أشرح ما الطريقة الملتوية التي أكدت حق هذا الفتى بالحصول على العرش. وإذا كان عليَّ قول الحقيقة فسأقول إن التاج لن يكون مناسبًا سوى لهذا الشاب!

عندما مات ملك الكاباكا العجوز ماتت حكمته معه. صحيح أن صغر السن لا يعيق النجاح بالضرورة، كما أن الملوك صغار السن نجحوا في حكمهم في بقاع مختلفة من العالم، بيد أنه من الواضح أيضًا لكل ما قابل هذا الشاب أنه بعمر السادسة عشر لم يكن يملك رجاحة العقل وقوة القلب اللازمة لنجاح فترة حكمه.

ملك الكاباكا الجديد متهور ومضطرب، يطيب له إمضاء الوقت في سرد الدعابات ولذلك فهو غير قادر على التفكير بالأمور المهمة بجدية. بالإضافة إلى تلك الأفعال المشينة التي يُقال بأنه كان يجبر غلمانه على القيام بها. لن أقول شيئًا عن هذه التصرفات الآن سوى أنها مذمومة في سفر اللاويين.

كما أن موانغا كان يفتقر للمشورة الحكيمة في شؤونه الخاصة، إذ إن أكثر مستشاريه حكمة - الكاتيكيرو - والذي وُظفت في المحكمة بفضلِه، كان قد مُنع من دخول المحكمة. الآن وعلى الرغم أني لست من سكان باغندا إلا أنني أتحلى بالقليل من الأمل بأنني سأصبح يومًا ما كاتيكيرو أو مستشارًا، ثم سأرتقي لأصبح ناصحًا شخصيًا.

اعتقدت في البداية أن عمر الكاباكا الصغير كان نعمة عظيمة وبأن الرب قد أنعم عليّ وحقق لي أمنيتي الثانية التي كنت أتوق للحصول عليها بعد الأمنية الأولى التي لم تتحقق بعد وهي أن أرسم كاهنًا. كنت أشعر أنه غير مرحب بي ولكني اعتقدت أنه بإمكاني أن أقود بعثة خاصة بي واعتقدت أن هذه هي فرصتي لأكون قريبًا من ملكٍ أو أميرٍ يستطيع أن يؤثر في شعبه إلى هذه الدرجة. ولكن موانغا قال لي عدة مرات أنه لم يتركني أمضي لأنني أملك خبرة البيض فحسب، بل لأنني أسليه أيضًا.

كان شيرانغو يتحدث أحيانًا عن أولئك الذين يمتلكون معرفة البيض، لكن التفكير في شيرانغو يفتح الباب أمام أفكار أكثر قتامة، أي أكثر الأفكار سوداوية وألمًا وأعني تلك المتعلقة بتاويكا. عندما تخطر هذه الأفكار على ذهني أحاول جاهدًا إبعادها.

كنت كاتبًا و وترجمانًا في محكمة الكاباكا. كنت مسؤولًا عن قراءة رسائل الكاباكا وقراءة الرسائل التي تُرسل إليه، بالإضافة إلى الترجمة عند يأتي الزوار الذين لا يتكلمون لغة سكان باغاندا إلى المحكمة. دائمًا ما كان يتعامل معي وكأني مهرج. وكان يستهزأ بالطريقة التي أتكلم بها اللغة اللوغندية، فعلى الرغم من أنني أصبحت بعد ست سنوات أتكلم اللغة بطلاقة إلا أن طريقة لفظي ما زالت تحتوي على بعض الزلات العرضية، وهذا أمر طبيعي. في هذه اللحظات كان يتعامل مع ما أقوله وكأنه مزحة كبيرة ويلفت انتباه الحاضرين إلى كل خطأ أرتكبه.

وعندما يمل من الاستهزاء بي يطلب مني أن أقرأ له من مجموعة الكتب التي أمتلكها. وبالطبع كان الكتاب المقدس هو أفضل كتاب يمكنني قراءته، ولكنه رفض أن يقبل المسيح ولم يكن يهتم على الإطلاق بالكتاب - أقدس الكتب - وكان يطلب مني أن أقرأ له من كتبي الأخرى.

نعم! صحيح! يقول الموقر بين إننا نصلي للجميع حتى أسوأ المذنبين ذوي القلوب السوداء، لكنني أعترف أنه من الصعب بالنسبة لي أن أصلي وأدعو لقلب ذلك الرجل. أكثر اللحظات التي أعيش السلام فيها تكون عندما أغادر محكمة الكاباكا وأكون في منزلي الصغير عند سفح تلة مينجو. هنا.. أكون مع نفسي، دون صحبة أحد، ولا يقطع هذه الخلوة سوى وجود نامبي، الخادمة صغيرة السن التي تدير شؤون منزلي. منذ أن استبدل قهرمان الكاباكا، مكاسا باليكودمبي، بالخادمة الأولى التي أعطاني إياها الكاباكا القديم هذه الخادمة، وهي تستهزئ بشيء ما في شخصيتي أو في طريقتي بالكلام. لن أشتكي لأن مكاسا باليكودمبي رجلٌ صالح، كما أنه مسيحي. ولكنه لسوء الحظ اختير أن يكون كاثوليكيًا، لقد كان هذا الرجل أكثر الأشخاص لطفًا معي. وكما يقول الموقر بين فإننا يجب أن نكون مسلحين بالإيمان لمواجهة ذلك المزاح المتعجرف الذي يهدف إلى تفريغ كل ما هو خطير وجدي من معناه الحقيقي.

على الرغم من أنني كنت أتمنى دائمًا أن ينعكس تميزي بسبب علمي ومكانتي الاجتماعية على مظهري الخارجي وملابسي، إلا أنني عندما لا أكون في محكمة الكاباكا، أرتدي الملابس الملونة التي تشتهر بها المملكة. الحقيقة هي أن مهارات نامبي في التدبير المنزلي مزرية، فقد أحضرت معي مكواة وعلمتها كيف تستخدمها إلا أنها غير قادرة على كي القمصان والياقات التي أحضرتها معي من إنكلترا بطريقة مستوية. وعندما أوبخها تخبئ وجهها بيديها وتضحك على ما أقول. عليَّ أن أعترف هنا أن التكيف القسري مع هذا الزي لأبدو مثل السكان المحليين ليس سيئًا للغاية لأن الطقس هنا حار جدًا، وإن كان يعني أنني أبدو من مسافة بعيدة مثل أي من السكان المحليين.

على الرغم أنني غير راض على ما تقوم به نامبي على الإطلاق، إلا أنني مسرور مع كيزيتو الغلام الذي يحضر لي الرسائل من محكمة الكاباكا ويناديني عندما يرسل الكاباكا في طلبي. تشبه شخصيته شخصية ماجوارا كما أن أعمارهما متقاربة، إلا أن التعامل مع كيزيتو أكثر سهولة. لم أستطِع أن أقنع ماجوارا بالمسيح لأنه كان شديد التعلق بقصص أمه. أما كيزيتو فهو مستعد للتعلم وقد بدأ بالتقدم بالفعل.

هناك مجموعة صغيرة من الشباب اليافعين، من بينهم أصدقاء كيزيتو وإخوته بوسفو ومكو ونووا وكاجوا ولوانغا، كل هؤلاء جزء من مجموعة صغيرة تتقابل سرًا. كنت أحيانا أستضيفهم في بيتي للصلاة ولكنني أخشى أن أخسرهم جميعًا بسبب قوة تأثير الكاثوليكيين لأنهم ينتشرون بسرعة كبيرة ويجذبون أتباعًا جددًا تحت قيادة بيير سيموت لورديل التابع للآباء البيض. كان من الصعب بالنسبة لي أن أشرح لهؤلاء الشباب لماذا يجب أن يتبعوا الكنيسة التي أؤمن بها وليس كنيسة الكاثوليكيين وخصوصًا أنني لا أنتمي إلى كنيسة محددة. حاول بيير سيموت لورديل التقرب مني في أكثر من مناسبة لتشجيعي على اعتناق الكاثوليكية، ولكن عندما أخبرني أنه لا يمكنني أن أصبح قسًا أجبته بأنني لا أفهم السبب وراء ذلك، بالإضافة إلى أنني كنت أكره الكاثوليكية بشدة.

كنت أفكر أنه يمكن لي أن أجد الأدوات والمساحة اللازمة لبناء كنيسة رعوية صغيرة هنا في هذه المملكة. بالطبع لن تكون بحجم دير الرهبان كما أنها لن تكون بحجم أصغير كنيسة في تلك البلاد الخضراء الساحرة. إنه مجرد مكان صغير يترنم فيه مجموعة من المؤمنين باسم الرب، ويعملون بكل تواضع في كرمه. كانت أمنيتي أن أستطيع بناء قدس جديدة.. هنا.. على التراب الافريقي.

لكن الكاباكا رفض أن يسمح لي ببناء الكنيسة. حتى هنا، في وطني أعاني مما قاله السيد وولر المحترم لي "المساوئ الفظيعة والعظيمة لكونك أسود". وضّح لي أبناء جلدتي أن الناس سيصغون للبعثات التبشيرية للبيض ولا تصغي إليّ.

أثبتت الأيام أن هذا كان صحيحًا، فتجاربي هنا كانت مليئة بالألم والمرارة. منذ عدة أشهر ترجمت له عندما طلب الكاثوليكيون الذين يسمون أنفسهم الآباء البيض الإذن لبناء كنيسة وقد كانت كالصفعة المرة بالنسبة لي أن أترجم لهم أنهم يستطيعون بناء كنيسة في حين رفض هذا الكاباكا نفسه أن يمنحني الإذن للبدء بالبعثة الخاصة بي.

أحاول دائمًا أن أكون صبورًا وألا أسمح للمرارة بالسيطرة على حياتي، وأحاول أن أركز على الهدف الذي وضعته لنفسي في منزلي الصغير الذي يحتوي على مكتبة متواضعة، فأنا لا أملك أدعية الموقر بين فحسب بل أملك أيضًا كتاب (رحلة الحاج) والكتاب المقدس، بالإضافة إلى كل مذكرات الدكتور ليفينغستون المطبوعة التي قدمتها لي الجمعية الجغرافية الملكية، وبعض الكتب التي أحضرتها معي من لندن. يحب الكاباكا أن أقرأ له من كتاب يسمى (أطفال الماء) كتبه رجل دين يدعى تشارلز كينجسلي. يُذكرني ببعض القصص التي أخبرني بها بعض رفاقي خلال رحلتنا، القصص المليئة بالأمور الخيالية، التي - وعلى الرغم أنها غير حقيقة - إلا أنها مسلية للغاية.

لم أحتفظ بهذا الكتاب لذاته بل لأنه تذكار على العاطفة التي أظهرتها نحوي ابنة الدكتور آغنس فهي من أعطاني إياه. إنه الكتاب الوحيد الذي يحب الكاباكا أن أقرأ له منه. كلما كنت أترجم له كان يفهم القصة بطريقة أفضل ويبتسم ويطلب مني أن أقرأه مرة ثانية وثالثة.

والحقيقة هي أنني أمضي في الشرح وقتًا أطول من سرد القصص لأن الكاباكا يريد تفسيرًا لكل شيء، فهو يريد أن يعرف ماذا تعني عمليات مسح المداخن ومحركات البخار والتلغراف بالإضافة إلى الأمور الأخرى. وعلى الرغم من أنها مجرد حكاية تُروى لتسلية الأطفال إلا أنني أتمنى أن يفهم الرسائل الموجودة فيها عن الإحسان والطيبة في المسيحية، لعله يتخلى عن طريقة تفكيره الشريرة. على الأقل إذا لم تستطع كلماتي عن حب المسيح أن تقنعه بهذا يمكن لمواعظ السيدة عامل الناس كما تحب أن يعاملوك أن تقوم بهذا.

أقوم بعملي في منزلي الصغير بهدوء وانتظام. لم أفصح عن سر مهمتي العظيمة لأحد حتى الآن فعلى متن السفينة المتجهة نحو إنكلترا قبل أن يصيبني المرض انتهيت من ترجمة المقاطع الرئيسية: الصلاة الربانية، والتطويبات، والوصايا العشر، وبعضًا من صلواتي الخاصة لأصلي بها في أوقات اليأس والقنوط. جمعتها عندما كنت في إنكلترا. كلفتني قليلًا من المال كما سببت لي بعض النظرات الفضولية. أما الآن فعملت على ترجمة إنجيل لوقا وسفر أعمال الرسل ورسالة الرسول بولس إلى العبرانيين. عندما كنت بحاجة للراحة كنت أخرج للمشي في الغابات الهادئة. هنا في الأماكن التي لا تحوي على نصب تذكاري واحد يحمل اسمه. أشعر بوجوده عندما أنظر إلى حركات النجوم وعندما أسمع ضحكات الأطفال، أشعر به خلال الليل عندما تخمد كل النيران وتبقى نجومه السماوية هي ما يضيء الظلام الدامس.

في عقلي وأنا أفكر بكل هذه الأمور أدعو أن يغفر الرب لشيرانفو كل ذنوبه وينزل الرحمة على روحه، أن يرحم روحه حق الرحمة، وأن يرحمنا الرب جميعًا وأن يغفر لنا كل ما قمنا به لنعيد الدكتور إلى موطنه.

أسأل الرب وأتضرع له أن يباركنا أينما كنا وينزل الرحمة على روح عبد الله سوزي كل مساء.

لا أفكر بالماضي سوى مرات قليلة لأن التفكير لا يجلب لي سوى الآلام فإنكلترا لم تكن المدينة السماوية ولا المكان الذي أستقي منه تعاليمي الدينية وإنما كانت مدينة العذاب البارد الفظيع.

بيد أن بداية طريقي هناك كانت واعدة، فأيامي الأولى التي عشتها فيها كانت تنبئني بأن كل ما كنت أتوق له وأصلي لأجله سيتحقق. عندما رست السفينة الملكية *Malwa* في ساوثهامبتون استقبلني الموقر هوراس ولير وعدد من أصدقاء الطبيب بكل مودة، وأخبروني بأنه تم اختياري لحمل رفات الطبيب إلى مثواه الأخير.

كنت أول من حمل نعشه في دير وستمنستر الفخم العظيم، وكان السيد ستانلي إلى يساري وأبناء الطبيب وأصدقاؤه خلفي وكنا جميعًا نحمل نعش الطبيب ونتوجه به إلى مثواه الأخير. شعرت وكأنني واحد منهم، كنا جميعًا متساويين في نظر بعضهم وفي نظر الرب. بعد ذلك قدموني للملكة التي استقبلتني بكل لطف وأثنت على إتقاني للغة الإنكليزية.

بدا لي مستقبلي أكثر إشراقًا بعد ذلك. ذهبت مع الجمعية الكنسية التبشيرية في رحلة تثقيفية حول إنكلترا. تعرفت في هذه اللقاءات على أشخاص لم تكن أرض افريقيا تعني لهم شيئًا أكثر من كونها جزء على خريطة العالم، فمن المؤسف أنهم لم يعرفوا سوى القليل عن المساحة الشاسعة لتلك الأرض.

كان من المؤلم بالنسبة لي أن أشرح لهم أن الرسومات، على الرغم من ولع الجغرافيين بها، إلا أنها لا تعطي سوى صورة تقريبية لكل

تلك الأراضي الشاسعة. وعندما تحدثوا عن بناء قواعد هناك ذكروا أنهم يريدون بناءها في سيشيل ثم سينطلقون إلى مومباسا والمناطق الموجودة فيها من هناك. شرحت لهم عدة مرات أن المناخ هناك حار للغاية إلا أنهم كانوا يتمتعون بحماس كبير تجاه فكرة حياكة الجوارب لإرسالها إلى الأطفال الصغار العبيد في زنجبار. في المرات العديدة التي تحليت فيها بالشجاعة الكافية لأصحح لهم هذه المعلومات كنت أشعر أنهم لا يودون سماع المعلومات الصحيحة.

ولكن الأمور تغيرت بالنسبة لي عندما تحدثت مطولًا عن أمنيتي بتأسيس بعثة تبشيرية. تحدثت حينها عن القلوب التي استطعت أن أهديها لمحبة المسيح وعن الأشخاص الذين عمدتهم. البداية الواعدة لم تساعدني بشيء على الإطلاق. أخبرتهم أنني في غضون عدة أشهر استطعت أن أهدي سبعة عشر شخصًا ليؤمنوا بالله، أي أكثر مما استطاع الطبيب هدايتهم طوال حياته. أخبرتهم أنني عمدتهم في أحد الأنهار وأطلقت عليهم أسماء جديدة.

وبدلًا من أن يفرحوا لسماع ذلك قابلوني بالخوف والذعر وأخبروني أنني تصرفت بدون سلطة أي أسقف أو بعثة. لم أكن مبشرًا. بل أسوء من ذلك قالوا إنني متبجح ومتعجرف وأفكاري ملأت رأسي وأفرغته من كل أنواع التواضع. قال السيد وولر إنه أمر يدعو للشفقة فأنا لم أتعلم أي شيء من الطبيب الذي كان لي شرف السفر معه.

كنت غاضبًا حينذاك واندفعت دون حكمة وتحدثت عن علاقة بوانا داودي بتيبو تيب وكومباكوبا الذين يستعبدون الناس والمساعدة التي آزروه بها حين احتاج العون. انقلبت الجمعية ضدي على الفور، فلم أعد مغرورًا ومتعجرفًا ولا أحترم السلطة فحسب، بل أصبحت

ناكرًا للجميل وأمطر الطبيب بالافتراء والكذب.

هذا ما أنهى جولتي التثقيفية تلك، ثم أخذوني من لندن إلى منزل ضخم يسمى دير نيوستيد وهو مكان فخم يملكه السيد ويب صديق بوانا داودي. هناك قابلت أبناء البوانا، ابنه أورزويل وابنته آغنس، ولكنها كانا مهتمين بدوري في فك شيفرات كتاباته وخرائطه أكثر من اهتمامهما بدوري في خلاصه. وفي هذا لم أكن ذا فائدة لهما لأنني لم أستطع شرح ما كتبه الدكتور في يومياته التي بقيت مبهمة؛ فأنا لم أكن موجودًا معه حين كتبها.

حينئذ قرروا أن يرسلوا وراء سوزي وشوما. وعندما نشرت مذكرات الدكتور الأخيرة، كانت تحتوي على ما رواه سوزي وشوما، وليس ما رويته أنا. في تلك القصص كتبا عكس ما قلت لهما عن أحداث تلك الرحلة، ربما كان ما كتباه هو الحكمة بعينها فمن كان ليصدق أننا تحملنا كل هذه المعاناة في رحلتنا؟

ثم ها هو سوزي، الذي انتزع حياة شيرانجو. نعم! شيرانجو الذي قتل آمودا وجون وينرايت وميسوزي وكانيكي ولوسي وآخرين غيرهم، نعم! لقد قتلهم دون أي رحمة. لكن ماذا نعلم عن عدل الرجال البيض؟ كلا! كان من الأفضل لهم أن يصدقوا أننا كنا مرافقين مخلصين عانوا من الكثير خلال رحلتهم ليحضروا جثة سيدهم إلى هنا.

يمكن لرحلة مدتها مئتين وتسعة وسبعين يومًا أن تُختصر في بضع كلمات، وهكذا اختزل شوما وسوزي القصة. مشينا وعانينا من الأمراض، عانينا من الصراعات والجوع والموت. لم يلق آمودا وجون وينرايت حتفهما على يد شيرانجو، بل في المعركة التي حصلت في شاونده، إلى جانب شيزه وناتارو. ماتت لوسي إثر لدغة أفعى، وفي

غمرة المرض، أطلق الدكتور ديلون على نفسه النار بمسدسه. وقد كان شيرانجو من أوائل الذي لقوا حتفهم إلى جانب ميسوزي وامرأته كانيكي. فقد مات هؤلاء الثلاثة في بداية الرحلة قبل أن يتمكن من الانتقام لنفسه.

ثم وصلنا إلى البحر وكان كل شيء على ما يرام، ووصلنا إلى الكنيسة حيث انتهت رحلتنا. بهذه الطريقة أحضرنا جثة بوانا داودي من شيتامبو إلى باجامويا، وهذه هي القصة التي رويت للعالم.

لذلك فإن رحلتي إلى إنكلترا وإقامتي المؤقتة التي بدأت بنصرٍ هائلٍ وآمال كبيرة انتهت بأكثر الطرق خزيًا. لم تنشر يومياتي، ولا رُسِّمت كاهنًا. وهأنذا هنا في بوغندا، قسٍ دون ياقة، وخادمًا للرب دون كنيسة، وكل أحلامي وآمالي قد تبددت.

الفائدة الوحيدة لوجودي هنا هو ما أقوم به مع الكاباكا، أما مدة بقائي هنا فهو أمر لا يعلمه إلا الرب في السماوات. الأخبار من باجامويا مقلقة للغاية فهم يقولون إن الأمة الألمانية على وشك أن تغزو زنجبار والساحل الشرقي لإفريقيا بالكامل، إذا استطاعوا أن يتغلبوا على مقاومة السلطان.

يخشى الكاباكا موانغا أن يصل الغزاة إلى مملكته وأن البعثات البيضاء التي طلبت الإذن لبناء الكنائس في المملكة أُرسلت كخطوة أولية للغزو. وصلت الأخبار للمحكمة عن فرقة جديدة من البعثات الإنكليزية في طريقها إلى بوغندا تحت قيادة الأسقف هانينغتون. استطاعت هذه الأخبار أن تقنع الكاباكا أن الرجال البيض هم حراس المقدمة في إنكلترا وسينفذون في أرضه المخططات نفسها التي سينفذها الألمان في زنجبار. هؤلاء المستشارون بالذات هم الذين كانوا

حريصين على تخليص المملكة من كل المسيحيين وها هم الآن يلحون عليه بتنفيذ أكثر الخطط دموية.

أكد لي هذا الكلام أربعة من غلمان الكاباكا وهم كيزوتو وكجوا ولوانجا ويوسوفو، وقد وصلوا إلى بيتي صباح اليوم وهم يحملون لي أنباء عاجلة. أخبروني أن مستشاري الكاباكا أحضروا إيماندوا، عرافة، إلى المحكمة وتنبأت بأن فاتح مملكة بوغندا العظيم سيأتي من الشرق. عندما شُوهدت بعثة الأسقف هانينغتون في بوساغا التي تقع في شرق بوغندا، وقع الكاباكا مواغانا في نوبة هلع وأمر بأن يُعدم الأسقف هنينغتون حالما تطأ قدمه أرض مملكة الكاباكا، كما أمر أن يُعتقل كل المسيحيين ويُحضروا إليه. بالإضافة إلى أن مستشاري الكاباكا طالبوا بتهديد كل الغرباء بالقتل ما لم يغادروا.

على الرغم من أنهم لم يذكروا اسمي أنا بالتحديد إلا أنني في خطر جسيم، هذا ما أخبرني به كيزيتو إذ يمكن أن ينقلبوا ضدي في أي دقيقة. أمر مكاسا باليكوديمبي كاجوا ولوانجا ويوسوفو بمساعدتي في إيجاد طريق لأخرج من المملكة. يجب عليَّ أن أرحل على الفور.

أحضر كيزيتو معه رسالة أُرسلت إليَّ بسبب اهتمامي بمحكمة الكاباكا، باركت قلبه الطيب ووضعت يدي على رأسه وتلوت بعض الأدعية طالبًا من الرب أن يرشده ويحميه في كل أيام حياته.

حزمت أمتعتي الجديدة ولم يكن من الصعب أن أختار الأشياء التي سأتخلى عنها. حملت معي القليل من الملابس المحلية والكتاب المقدس والدفاتر التي دونت عليها أهم أعمالي وهي ترجمة الكتاب المقدس للغة السواحيلية. على الرغم من أني نظرت إلى ما تبقى بكل حنين إلا أنني لم أندم على تركه.

حزمت أغراضي خلال دقائق وكل ما كان عليّ فعله الآن هو أن انتظر وصول الآخرين وأن أقرأ رسالتي التي كانت من كاروس فارار. كانت هذه الرسالة تحمل أخبارًا سيئة وشافية في الوقت ذاته. شعرت وكأنني تلقيت طعنة في قلبي عندما ذكر اسم زوجته، ماريا، المرأة التي تعرفها باسم تاويكا. وهذا ما كانت تخفيه ولم تخبر به أحدًا. أصبحت الكتابة غير واضحة ثم أكمل: أكرمنا الله بطفلين، عشنا لمدة من الزمن في الرأس بعد أن أكملت تدريبي في مجال الجراحة في بومباي ثم بدأت بالعمل هناك.

بعد ذلك غادرا الرأس واستقرا لمدة قصيرة في زنجبار في طريقهما إلى بومباي. عليّ أن أعترف أنني شعرت ببعض الألم عندما علمت بأمر بعثته فهو من كان يقود عملية نقل المدرسة الناسيكية من الهند، وراقب تأسيسها في مكان كانوا يسمونه بلدة فريري في مومباسا على الساحل الشرقي لإفريقيا.

سلّم هذه الرسالة باليد لأحد الناسيكيين الذين نعرفه كلانا باسم ويليم جونز، وكان قد سافر مع بعثة الأسقف هانينغتون القادمة إلى بوغندا. هناك حيلة لن أستطيع معرفة تفاصيلها في كيفية وصول الرسالة إلى محكمة الكاباكا، إلا أن القهرمان مكاسا بالي كودمبي أوقفها قبل أن يراها الكاباكا ثم أعطاها إلى كيزوتو ليسلمني إياها.

أكملت القراءة ووجدت أنها تحتوي على أخبار أكثر أهمية إذ أخبرني أن عبد الله سوزي قد مات بسلام في منزل حليمة في باغامويو. قال كاروس فرار: "قبل أن ينهي المرض حياة عبد الله طلب منا أن نعمده". عندما سمعت الاسم الذي اختاره لنفسه بعد اعتناق المسيحية بكيت بصوت عالٍ وشكرت الرب ورفعت رأسي نحو السماء ورفعت صوتي بالتهليل. لا يجب أن نتوقف عن الحمد والثناء من شروق الشمس وحتى غروبها. مبارك اسمك أيها الرب! هللو للرب يا كل الأرض! المجد للرب الآن وكل

أوان وإلى دهر الداهرين!

وصل كيزيتو وأصحابه آنذاك. وإذ وجدوني أبكي، هرعوا نحوي والقلق يعتلي وجوههم. لم يكن بوسعي حينئذ سوى أن أجثو على ركبتي وأصلي ممتنًا لرب السماء. غمر الفرح قلبي وأنا أصلي للرب، مثلما أودع روح خادمه المخلص ديفيد ليفنغستون في حضن إبراهيم، أن يقبل برحمته روح خادمه الجديد ديفيد سوزي.

الخاتمة

هنا يرقد الرحالة التبشيري والمحسن ديفيد ليفينغستون. أحضرته إلى هنا الأيادي البيضاء المخلصة وعبرت به اليابسة والبحر.

وُلد في 19 آذار 1813 في بلانتاير في لانارکشاير وتوفي في 1 أيار 1873 في قرية شيتامبو في أولالا.

الشاهد على قبر ليفينغستون،

دير وستمنستر في إنكلترا.

بعد مئة سنة، ألّفت روح ديفيد ليفينغستون وحبه للرب قلوب أصدقائه من كل الأعراق فاجتمعوا هنا في عيد الشكر في الأول من أيار 1973، بقيادة الدكتور كينيث كاوندا رئيس جمهورية زامبيا.

الشاهد على قبر ليفينغستون

شيتامبو، زامبيا.

وصلنا إلى أحد القبور في الغابة... هذا هو نوع القبور الذي أفضله: أفضّل أن أرقد في غابة هادئة وساكنة وألا يكون هناك ما يزعج عظامي.

ديفيد ليفينعستون، من كتاب المذكرات الأخيرة لديفيد ليفينغستون.

(النهاية)

شكر وعرفان

يُعرف عني أني أشكر مطولًا. ولأن تأليف هذا الكتاب استغرق عشرين سنة، يمكن لهذا الشكر أن يكون أطول من الرواية نفسها. لذلك سأكتفي بتقديم الشكر العميق لكل شخص سمعني في السنوات الماضية، أولئك الأشخاص الذين كنت أسبب لهم الملل عند ذكر ديفيد ليفينغستون ورفاقه باستمرار، كل الأعزاء على قلبي.

أنا ممتنة لوكيلي الأدبيين إيريك سيمونوف وتريسي فيشير، وللناشرين نان غراهام وستيفن بيج لثقتهم بي وبهذا الكتاب أيضًا. تغمرني السعادة لأني عملت على هذا الكتاب مع ثلاثة محررين عظيمي الشأن وهم: كاثي بيلدين في سكريبنر ولي براكستون وإيلا غريفيثس في فابر. كما أنني ممتنة جدا لهيلين موفيت وهي القارئة الرسمية الأولى لما أكتب وصديقتي العزيزة صاحبة العطاء اللامحدود، وممتنة أيضًا لآجا بولوك لأنها تولت عملية التنقيح والتحرير ودققت الكتاب بدقة متناهية. أشكركم جميعًا على ترويض إسرافي في الكلام وضبط مخيلتي الواسعة.

ما كان لهذه الرواية أن تُؤلف بدون المساعدة السخية في العام 2017 من برنامج الفنانين في برلين، من برامج المنح الدراسية الدولية DAAD. أثبتت إقامتهم الرائعة في برلين أنها "منحة العمر" لأكتب وأجمع ما تعلمته في

سنوات بحثي العديدة، **Ich bedanke mich ganz herzlich**.[19]

أمضيت أكثر من عشر سنوات في البحث في كتب التاريخ لأكتب هذه الرواية، بيد أنني لا أتوهم مطلقًا أن هذا العمل دقيق تاريخيًا. فعلى الرغم من أن لهذه الرواية أساس تاريخي، إلا أنها وليدة الخيال الأدبي.

ومع ذلك أنا مدينة لعمل المؤرخين روي بريدجز وتيم جيل وهابرت جيربو، وعلى رأسهم توماس باكن هام لأنه كان سخيًا ولطيفًا عندما استشرته بخصوص هذا المشروع ولأن الفصل الأول من كتاب (التدافع على إفريقيا) أثار فكرة هذا الكتاب في رأسي منذ العام 1999.

أثناء كتابة هذه الرواية حظيت بشرف الاطلاع على الرسائل الأصلية والصور والوثائق الأخرى المرتبطة بديفيد ليفينغستون الموجودة في المؤسسات التالية: المكتبة الوطنية في اسكتلندا، إيدينبرغ، ومتحف النصب التذكاري للسلام في زنجبار، ومركز ديفيد ليفينغستون في بلانتير، اسكتلندا، والأرشيف الوطني لزمبابوي في هراري. أشكر كل عشاق ليفينغستون الذين قابلتهم حول العالم من بلانتير في اسكتلندا حيث ولد ليفينغستون، إلى باجامويو في تانزانيا حيث أمضى ليلته الأخيرة على التراب الافريقي مرورًا بكل الأماكن التي عاش فيها في زنجبار وزمبابوي. أود أن أذكر أصغر عاشقة من عشاق ليفينغستون تياني ميزا التي كتبت في عمر السابعة عشر مقالة تحليلية رائعة عنه في البكالوريا الدولية.

اطلعت أيضًا على الرسائل والوثائق التي جُمعت في مؤسسات مختلفة حول العالم إذ لم يكن عليّ أن أزور كل الأماكن التي تحتوي على رسائل ليفينغستون حول العالم بفضل مشروع ليفينغستون عبر الإنترنت، وهو مشروع رائع قامت به كل المؤسسات التي تعد مستودعات للوثائق المرتبطة

19 شكرًا جزيلًا (بالألمانية). (المترجمة).

بحياته ورحلاته. تعاونوا على تحميل هذه الوثائق على شبكة الانترنت لتكون متوفرة لجميع القراء والباحثين مجانًا.

القائمة التالية هي قائمة بأسماء المراجع الأولية والثانوية التي استعنت بها. أنا ممتنة لكل من يعمل على تسليط الضوء على حياة ديفيد ليفينغستون ورفاقه وكل المؤسسات والحكومات التي تحافظ على ذكراهم. لقد أمدَّني المؤرخون بالحقائق، وأكملت مخيلتي نسج باقي القصة. شكرًا لكم.

مسرد بالكلمات والعبارات العربية والسواحيلية

الكلمات العربية التي تستخدمها الراوية حليمة، وهي امرأة أمية غير متعلمة، تعبر عنها من خلال اللغة السواحلية، وقد تعكس بالتالي فهمها القاصر أحيانًا.

الكلمات السواحيلية التي يستخدمها جاكوب واينرايت استبقيت وفق أعراف كتابة السواحيلية في القرن الثامن عشر، حيث كانت تشيع كتابتها Suaheli. وبينما تستخدم حليمة التهجئة بحسب وقع الأحرف على الأذن، Bagamoyo Zambezi, shenzi على سبيل المثال، يستخدم جاكوب الكلمات بحسب تهجئتها في تلك الفترة من الزمن، أي يستخدم Bagamoio Zambesi shensi إلخ.

Alh· amdulil-la¯h	الحمد لله	الحمدلله بالعربية.
Alla¯hu akbar	الله أكبر	التكبير الإسلامي.
Askari	عسكري	جندي، فرد من جيش غير رسمي يرافق البعثات (الجمع عسكر).

Baga	باغا	محاكاة صوتية للدلالة على السقوط أو الكسر.
Bahari	باهاري	تجمع كبير للمياه يمكن أن يكون بحرًا أو محيطًا أو بحيرة واسعة.
baraza	بارازا	منصة حجرية طويلة وواطئة تحيط بمعظم البيوت في زنجبار. الكلمة تعني أيضًا مكانًا عامًا للاجتماع.
Bibi	بيبي	سيدة.
bwana	بوانا	سيد.
Chemchemi ya Herodotus	شِمشِمي يا هيرودوتس	شلالات هيرودوتس
Chunusi	شونوزي	من أشباح البحر.

Dhow		قارب خشبي طويل ذو شراع مثلث الشكل، معروف في دول المحيط الهندي. انظر أيضًا "Jahazi"
Djinn	جنّ	من الكلمة العربية (جنّ)، تشير إلى مخلوق ما ورائي، منه الحميد والخبيث، في اللاهوت والميثولوجيا العربية الإسلامية وما قبل الإسلامية. يدعى أيضًا **genie** في الثقافة الغربية.
dragoman	ترجمان	مترجم ودليل يعمل في دول وكيانات الشرق الأوسط. يمتلك الترجمان عادة المعرفة باللغة العربية، والفارسية، والتركية، واللغات الأوروبية، ويعمل في بعض الأحيان وسيطًا ويؤدي واجبات دبلوماسية أخرى.
Emandwa		كلمة باللغة اللوغندية، تعني العرافة.

عبد مُحرّر، (الجمع واهاديمو)	هاديمو	Hadimu
تعاليم النبي محمد التي لم تدون رسميًا في القرآن وانتقلت شفويًا.	حديث	hadi¯th
حمامات عامة زنجبار، بنيت على الطراز الفارسي بين 1876 و 1888 بأمر من السلطان سعيد برغش بن سعيد (من الكلمة العربية "حمام")		Hamamni
مصطلح عربي يشير إلى كل ما هو محظور في الإسلام. ويمكن أن يكون كل ما هو مقدس ويحظر الوصول إليه من ناس معينين، أو فعل شرير أو آثم.	حرام	Haram
هندوسي.		Hindoo
ضريبة تفرض على المسافرين.		hongo
شراب مسكر. انظر أيضًا Pombe		Hongoro

زوجة مساوية بالنسب، أو زوجة رسمية.	حرمة	Horme
قائد الصلاة في المسجد.	إمام	Imam
الكلمة السواحلية التي تعني "قارب شراعي"، أي قارب خشبي طويل ذو شراع مثلث منتشر في دول المحيط الهندي الإفريقية.	جاهازي	Jahazi
اللقب الذي يمنح لملك باغاندا.	كاباكا	Kabaka
الحمّال النظامي في فرقة الرحالة.	كيرانغوزي	Kirangozi
نقالة أو سرير متنقل.	كيتاندا	Kitanda
لقب يمنح لممثل سلطان عمان وزنجبار في زنجبار خلال الفترة التي كانت فيها عاصمة السلطنة في مسقط، وقبل أن تنقسم السلطنة.	الوالي	Liwali

مدرسة إسلامية.	مدرسة	Madrassa
أصداف نهرية من نهر لوالابا. (هذه الكلمة ليست سواحلية، بل لغة مانويما)	ماكيسي	Makesi
الموز. (الكلمة من لغة لوغاندا)	ماتوكه	matoke
محاكم إسلامية يترأسها القاضي.	مظالم	maz.a¯lim
مداوي تقليدي، وهو يقابل الطبيب في عصرنا الحالي.	كانغا	Mganga
ورقة من جنس Catha edulis قابلة للمضغ ولها تأثيرات محفزة. شبيهة بجوزن التنبول من حيث الاستخدام والتأثير. تعرف أيضًا بالقات.		Miraa
إحدى التسميات الكثيرة التي تطلق على الأمة.	جاكازي	Mjakazi

مسلم.	محمديّ	Mohammedan
القلب.	مويو	Moyo
مستعبد، أي تسمية أخرى تطلق على العبد. (الجمع وابامبي)	بامبي	Mpambe
شجرة جنوب إفريقية من جنس Parinari curatellifolia؛ ، تعرف كذلك بشجرة يومبا أو شجرة برقوق مويولا.	بوندو	Mpundu
طفل (الجمع واتوتو).	توتو	mtoto
الرجل الذي يدعو المسلمين للصلاة، من مئذنة في العادة.	مؤذّن	Muezzin
الإنسان الأبيض (الجمع وازونغو)	موزونغو	Muzungu

mvula	مفولا/فولا	انظر Mpundu.
Mwili wa Daudi	موبلي وا داودي	"جثة ديفيد"
Njari	جاري	آلة موسيقية ايديوفونية مصنوعة من لوح خشبي ترفق به مفاتيح معدنية تصدر صدى. أصلها من المنطقة التي تدعى اليوم موزمبيق، وهي ترتبط بآلة تدعى بيرا mbira في زيمبابوي أو كاليميا -Ka limba في جمهورية كونغو الديمقراطية. يشار إيها أيضًا باسم بيانو الإبهام.
pagazi	باغازي	الحمالون في البعثات.
pombe	بومبي	جعة تقليدية مخمرة وثقيلة، من نبات الدخن.
qadi	قاضي	موظف قضائي يترأس المظالم. (انظر أعلاه)

quat	قات	انظر miraa
safire	سفير	حامل الراية الذي يسير في مقدمة البعثة.
salat	صلاة	الصلاة في الإسلام، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة، إلى جانب الشهادة، والزكاة، والصوم، والحج إلى مكة.
sefra	سفرة	طاولة طويلة ووطيئة يقدم الطعام عليها في البيوت في زنجبار.
sepoy		أدنى تصنيف يعطى للجنود الهنود الذين جندتهم شركة الهند الشرقية البريطانية. في السفر الكولونيالي، كان أجرهم أفضل قليلًا من العسكر. (انظر أعلاه)
shensi/shenzi	زنجي	مصطلح تحقير يستخدمه تجار العبيد العرب لوصف عبيد شرق أفريقيا: أقرب معنى هو "الهمج" أو "البرابرة". التهجئة الحديثة للكلمة هي shenzi.

sola fide, sola gratia, sola scriptura		باللاتينية، وتعني: "بالإيمان وحده، بالنعمة وحدها، بالكتاب المقدس وحده". وهي ثلاثة من خمسة مبادئ سولا لعقيدة الخلاص كما تتبناها الكنائس البروتستانتية الإصلاحية، ما يشير إلى خروج رئيسي عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية.
suria	سُرِّيَّة	أمة محظيَّة (الجمع سراري)
taabibu	طبيبٌ	الطبيب بالعربية.
ugali	أوغالي	غذاء رئيسي في شرق إفريقيا مصنوع من دقيق الذرة الأبيض والماء، مطبوخ على نار عالية للحصول على قوام متمازج شبيه بقوام العصيدة.
umm al-walad	أمّ الولد	أمة تنجب الأولاد لسيدها، وبالتالي لا يمكن أن تُباع.

vembwigo	فيمبويغو	من أشباح البحر.
zaka¯t	زكاة	انظر الصلاة.



Photograph by Henry Oliver Hakulandaba

بيتينا جاباه كاتبة زيمبابوية ترجمت أعمالها على نطاق واسع. وهي مؤلفة رواية The Book of Memory ومجموعتين قصصيتين هما، Rotten Row و An Elegy for Easterly. أدرج عمل غابا في القائمة القصيرة لجائزة Orwell، وجائزة Sunday Times EFG Short Story، و Los Angeles Times Book Award، و PEN America Open Book Awar، و Frank O'Connor International Short Story Award، و the Women's Prize Award ، وجائزة Femina étrangers. حصلت على جائزة Guardian First Book Award وجائزة McKitterick من جمعية المؤلفين. محامية متخصصة في التجارة الدولية والاستثمار بالإضافة إلى كونها كاتبة. عملت جابا في جنيف بسويسرا لأكثر من عشر سنوات وتعيش حالياً في هراري، زيمبابوي.

g first rate quality – We shall
Portuguese claims but
ade public

عبير شاليش، مترجمة من سوريا. تخرّجت في كلية الآداب بجامعة تشرين قسم اللغة الإنكليزية، ونالت ماجستير الترجمة التحريرية في المعهد العالي للترجمة والترجمة الفورية بجامعة دمشق.

والنور يضيء في الظلمة

حكاية رجال أفارقة ونسوة، حملوا جثمان المستكشف المبشّر د. دايفيد ليفينغستون (1813-1873)، مع أوراقه وخرائطه، وعبروا بها عرض القارة الأفريقية من المناطق الداخلية إلى الساحل، من أجل أن يُعاد جسده وبقاياه إلى موطنه إنجلترا.

Cover Design: Mohamed khalil
Cover Illustration: Wellcome Library, London



